مكتبة ياسمين

«رواية من جنوب السودان»

استيلا قايتانو

إيريم

منشورات حياة
HAYAT PUBLISHING

إيريم

تُنجب لوسي طفلًا كل عام بالتزام لاهوتي يبعث على الدهشة. قلَّت نوبات حنينها إلى قريتها البعيدة في أقاصي الجنوب -الذي تأكله نيران الحرب- بعد أن سمَّت أبناءها بأسماء كل مَن وما تحبه في القرية؛ أسماء أشخاص وأشياء، كأنها تخشى النسيان، وهكذا ما إن تنادي على واحد منهم حتى يقذفها الاسم إلى القرية، فتستحضر الأمهات والأخوات والطبول والقبور والسوق والكنيسة والنهر وساحة الرقص.

***

تواصل هنا الروائية الجنوب سودانية استيلا قايتانو الحائزة على جائزة القلم البريطانية، مشروعها السردي المتمثّل في رصد تداعيات حروب السودان العديدة، وهذه المرة عبر فتاة تربكها الثنائيات التي وجدت نفسها فيها؛ إذ أصبح لزامًا عليها أن تنحاز للجنوب أو الشمال، للإسلام أو المسيحية، للبشرة الفاتحة أو الداكنة، للبندقية أو غصن الزيتون. ترسم استيلا كلّ ذلك في أجواء سردية غرائبية لطالما ميّزت أسلوبها في أعمالها السابقة.

منشورات حياة
HAYAT PUBLISHING

مكتبة ياسمين

ISBN:978-1-998800-33-9
9 781998 800339

يسعدنا انضمامكم إلى قناة

مكتبة ياسمين

معكم نكبر ونستمر بكل جديد

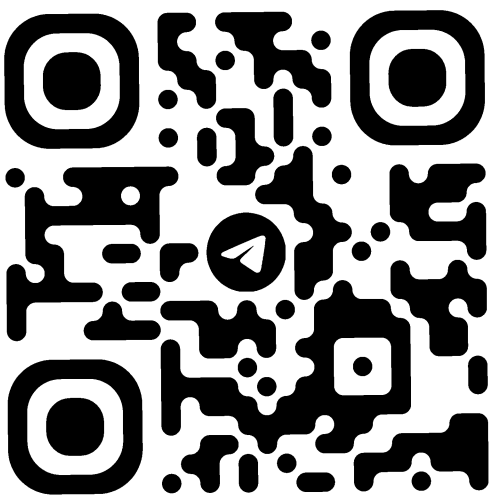

إبريم

الكتاب: إيريم
المؤلف: استيلا قايتانو
التنسيق الداخلي: ضياء فريد
تصميم الغلاف: عبدالفتاح بوشندوقة

telegram @
yasmeenbook

عدد الصفحات: 240
الترقيم الدولي: 978 - 1 - 998800-33 - 9
الطبعة الأولى: 2024

جميع الحقوق محفوظة

منشورات حياة

يمكن شراء إصداراتنا من المتجر الإلكتروني
hayat-publishing.com

إيريم

مكتبة ياسمين
telegram @
yasmeenbook

رواية

استيلا قايتانو

telegram @
yasmeenbook

الفصل الأوّل

العين

حلّقت خمس طفلات بهيئات مختلفة حول برميل الماء الحديدي الذي زحف الصدأ على أجزائه بطيئًا. يرتفع البرميل مترًا أو أقل قليلًا، لكنهن أكثر طولًا ويستطعن إلقاء نظرة إلى الداخل ومدّ إيديهن وهن واقفات على أطراف أصابعهن، عابثات بمحتوياته من ماء وأشياء عائمة.

يرتفع الماء ثلاثة أرباع البرميل، تسبح على سطحه أوراق شجرة النيم المصفرّة الساقطة من أغصانها، بينما تطفو عيدان أراك كقوارب ضالة بسبب التيارات التي أثارتها أيدي الطفلات العابثة، وقد رمى الأب تلك الأعواد كعادته؛ لتكسب قدرًا من الليونة تجعلها قابلة للمضغ دون أن تُدمي لثة مستخدمها.

إموتا أقصرهن، اسمها الحقيقي إدو، يناديها الجميع إموتا، وهو اسم أطلقته الأم عليها مذ كانت رضيعة، ويعني الصغيرة؛ ليصف ضآلة حجمها.

التقتْ وأختها التي تكبرها بعام رفقة ثلاث من بنات الجيران؛ ليلعبن تحت الشجرة الكبيرة، تعلو ضحكاتهنّ وهنّ يتنافسن في لعبة اخترعنها مستخدمات أعواد الأراك الطافية على سطح البرميل.

تقضي اللعبة أن تقذف إحداهنّ عودًا بكل قوتها إلى قعر البرميل الممتلئ بالماء، ثم تنتظر ارتداده إلى الأعلى متجاوزًا البرميل محلّقًا في السماء كصاروخ. اعتلتْ إموتا الصغيرة وعاءً فارغًا لتعوّض قصر قامتها، وتستطيع الوقوف على حافة البرميل، ورمي عودها بكل قوة. كانت أكثرهنّ ابتهاجًا وهي تتابع ببصرها العود يرتفع عاليًا في كل مرة، لكنها في مرة -وهي تنحني صوب البرميل تحاول رمي العود- لم تدرِ بنفسها إلا وقد تحرّك الوعاء الفارغ من تحتها فاختلّ توازنها، حاولتْ تدارك الأمر والثبات مجددًا، لكن الوقت قد فات. انزلق الوعاء وطار بعيدًا، فيما غاصت هي في قعر البرميل، نصف جسدها في الأسفل وقدماها تضربان الهواء، كأنها تطلب النجدة والمساعدة من الأخريات اللواتي علا صراخهن تحت وقع الصدمة.

لم تعد إموتا تسمع شيئًا بعد أن امتلأت دهاليز أُذنَيها بالماء، حملقت داخل الماء باتساع عينَيها، ابتلعت قدرًا من الماء طعمه أشبه بالمعدن، وما تسرَّب لأنفها كان حارقًا مؤلـمًا كأنّ شخصًا غرز فيه سلكًا ساخنًا. حبست أنفاسها وضربت قاع البرميل بيدَيها الصغيرتَين لتتمكن من الخروج، لكن طبقة الطحالب النامية على جدار البرميل وفي قعره جعلته زلقًا، فضاعتْ كل جهودها سُدى.

شعرت بنفاد الهواء الذي حبسته في صدرها، فبدأت حركتها تضعف، ثم ازدادتْ خفةً، كورقة شجر أو أخفّ. شعرت أنها بل وزن، وأنها تطفو بلا إرادة. أخذت حدود البرميل الصدئة في التلاشي، وغدتْ في مواجهة مساحات شاسعة من الماء كأنها في بحر لا حدود له. لا يشغلها سوى الهواء. فتحت فمها أكثر، استسلمتْ للماء أكثر.

وفي أثناء تحديقها في الفراغ، ظنت أنها رأت في الأسفل عينًا بحدقة سوداء لامعة، بدت قناة أو ممرًّا يقود إلى مكان ما. تراختْ أكثر، وجذبها شيءٌ إلى القاع، صوب بؤبؤ العين مباشرة. لم تُقاوم، وانساقتْ إلى نفق أرضي غائر. انسابتْ بطيئًا ككائن نهري، تلاشى الضغط الذي كاد يفجِّر رئتَيها. شعرت أن بإمكانها التنفس بسهولة، لم تميز هل كانت تتنفس الماء أو الهواء. اختفى طعم المعدن وألم اختراق الماء أنفها. أحاطتْ بها مادة تُشبه الهلام، تجمَّدت أطرافها، وتوحَّدت معها وقادتها في اتجاه تيارها المنساب بطيئًا. لا تزال تتشبث بعود الأراك، والتيار يسحبها إلى النفق الأرضي.

دخلته دون عناء، كأنها في حالة ميلاد صوب عالم آخر، كان الصمت مهيبًا والحركة بطيئة للغاية. داهمها شعور ببهجةٍ لا تعرف كنهَهُ، غاب عالمها الذي خرجتْ منه عبر الغرق، أخذت الوجوه تختفي كالفقاعات: وجه أمها، أبيها، أخواتها الكُثر، وقريناتها. في النهاية تلاشى وجهها، واختفى. لم تعد تتذكر حتى ملامحها، واستسلمت لشعور لذيذ بالراحة التامة.

شعرت فجأةً بجذب قوي يأخذها في الاتجاه المضاد نحو الأعلى، شعرت بألم الانتزاع من شيء كادت تُصبح جزءًا منه، يد قوية البنية تجذبها من قدمَيها، وتضرب على ظهرها كما يفعل الأطباء بالمواليد لتتنفس، ولم تزل ممسكة عود الأراك بقوة وعلى وجهها صفاء وسلام الموتى، وبعد حين اخترق الصراخ والعويل أذنَيها، وأسئلة كثيرة عما حدث:

- البنت وقعت في برميل المُويَة.

فتحت عينَيها، فوجدت رجلًا منحنيًا فوقها, لم ترَه من قبل، ضخم البنية ببشرة قمحية، يرتدي جلبابًا أبيض خفيفًا من كثرة الاستعمال، شَعره كحبال مجدولة بعناية.

قد يظنه أيّ شخص مجنونًا عندما يراه للوهلة الأولى، كان يقول كلامًا مُبهمًا في أثناء إنقاذها.. لم تسمعه، لكنها ترى شفتيه تتحركان، عيناه جميلتان تعلوهما غرابة ما، تشبه العين التي رأتها تحت الماء.

شاءت الصدفة أن يمر قرب المنزل الذي كان بابه مُشرعًا مثل سائر البيوت؛ ليكون المنقذ الذي ظهر في الوقت المناسب، كان الأقرب حين انطلق صراخ الصغيرات، ألقى نظرة داخل البيت، فلمح قدمَين صغيرتَين بارزتَين من فتحة برميل، ودون أن يدري وجد نفسه ينتشلها ويحاول إسعافها.

سعلت لطرد الماء من رئتَيها، في الوقت الذي انهارت فيه أمها لوسي، وأحاط بها عدد من الجارات اللواتي هُرعن بعد سماع صراخ الطفلات.

بعد أن استفاقت وفتحت عينَيها، تلقفتها الأحضان، ما عدا لوسي التي بقيت مكلومة، إلى أن هدأ الجميع، وتأكدتْ أن ابنتها حية، فانطلقتْ حينها تضربها وتفرغ على جسدها كل ما مرَّت به من رعب.

استلقت إموتا على السرير بعد أن بدّلت ملابسها المبتلة بأخرى جافة، شعرت بنعمة أن يكون الواحد جافًا. حاولت النوم لكنها لم تستطع، كانت العين/ النفق الذي جذبها للأسفل واضحًا أمامها.

استلقى أيضا أشقاؤها وشقيقاتها قربها في إعياء تام، يفكرون في الموت بهلعٍ، الموت الذي كاد أن يخطف أحدهم خلسة.

إموتا هي الطفلة الأخيرة ضمن بنات لوسي، لم تكن الأصغر سنًّا، فهي تكبر اثنتَين أُخريَين، لكنهما تجاوزانها في النمو جسدًا وإدراكًا، فتبدو كأنها توقفت بها السنين في زمن ما خارج هذا الكوكب، ضئيلة بقامة قصيرة، بعقل ومزاج طفولي لا يتزحزح عن سن السادسة، تمتاز بخيالٍ لا ينضب، تُجري حوارات مع شخصيات هوائية، وتحكي قصصًا في أثناء اليقظة والنوم معًا، قصص مكتملة بشخوص وروائح وأحداث، يصعب على مَن يسمعها للمرة الأولى أن يعتبر كل ذلك اختلاقًا، عُرفت في الأسرة بالكاذبة الصادقة، وتُسميها أمها المجنونة، تتمتع بذاكرة قوية، فتتذكر أحداثًا لا يتوقع أحد أنها أدركتها عندما وقعت، تحفظ الأرقام وتخرج الأشياء الضائعة بعد أن ييأس الجميع من العثور عليها. في بعض الأحيان تنتابها نوبات صمت لأيام، وفي أثناء ذلك تأكل الطين وتشرب الماء، وبعد أن تنتهي من اعتكافها الصامت تتحول لطفلةٍ مرحةٍ بمزاج جيد تضحك بوجه منبسط كالأرض. أُصيبت بكل أمراض الطفولة الخطرة، هاجمتها الفيروسات والبكتيريا والديدان، ونجتْ بأعجوبة، أعاق ذلك نموها الجسدي، وصبغ شعرها بلون أقرب إلى الأحمر، فسَّره الوالدان بأنه نتيجة مباشرة لسوء التغذية. تبدو ردود أفعالها غريبة أحيانًا، تتنبأ وتفسر الأشياء كجدة مُسنّة.

ظلّت لأيام تهذي ببؤبؤِ العين الذي يُشبه النفق، وتقاوم الوقوع فيه متشبثة بمفرش السرير لدرجة التشنج. في أحيان أخرى تدخل في نوبات تكتم فيها النَّفَس لتعيش اللحظات التي عاشتها في أثناء الغرق في البرميل.

نسي الجميع الحادثة إلا هي، ظلت عالقة هناك تشعر بذاك الشيء الذي يجذبها إلى مكان ما، وتحاول أن تجد له تفسيرًا.

انشغل الجميع عنها. تحوم لوسي الأم في البيت ببطن مُتدلٍّ وثديَين مترهلَين، حملت وأرضعت أكثر من أربعة عشر طفلًا، أفرادًا وتوائم، والبيت يعجّ بهم، بضحكهم وشجارهم وملابسهم وأحذيتهم. مَن يكبر تُوزع عليه (أو عليها) مهام المساعدة في الاهتمام ورعاية إخوته الأصغر.

ماركو الأب، يعمل طول الوقت لتأمين الطعام لكل تلك الأفواه الفاغرة، والتعليم لكل تلك العقول الغضة، وتأمين الصحة وتجنّب أمراض الطفولة الغادرة المفاجئة. فقد كثيرًا من وزنه، وانحسر شعره الكث مُخلِّفًا خطوطًا من الصلع على جانبَي رأسه. نحيل بعظام تنوء تحت المسؤوليات الجسام ولكنه صلب، بعينَين بهما غشاوة بيضاء خفيفة أطفأت اتقاد الشباب في حدقتَيه، لا يزال حنونًا كالأمهات، يضبط المراهقين، وينظف مؤخرة الصغار، ويذاكر مع المتعثرين في الدراسة.

حافظت الأسرة على تماسكها ومرحها، على الرغم ممَّا تعانيه من حمل ثقيل، يضحكون بصوت عالٍ، ويخافون أن يُصاب أحدُهم الأذى، وتنتهي شجاراتهم بالدموع، وينامون قريري الأعين بعد

تحلّقهم في الأمسيات حول التلفاز الذي يتوسط أَسرّتهم في الحوش الكبير. أحيانًا ينامون ويبقى التلفاز ساهرًا إلى أن يتوقف البث معلنًا عن ذلك بخطوط مقلمة بألوان قوس قزح، ثم يُطفئُهُ مَن يصحو للتبول نازعًا مكبس الكهرباء في طريقه إلى المرحاض.

تُنجب لوسي طفلًا كل عام بالتزام لاهوتي يبعث على الدهشة. قلَّت نوبات حنينها إلى قريتها البعيدة في أقاصي -الجنوب الذي تأكلها نيران الحرب- بعد أن سمَّت أبناءها بأسماء كل مَن وما تحبه في القرية، أسماء أشخاص وأشياء، كأنها تخشى النسيان، هكذا عندما تنادي على كل واحد يقذفها الاسم إلى القرية، تستحضر أمهاتها وأخواتها والطبول والقبور والسوق والكنيسة والنهر وساحة الرقص.

تتحدث مع أبنائها بلغتها الأم، أرضعتهم المفردات والحكايات مع حليبها، تحكي عن عائلتها وعائلة والدهم وكيف أنهما وحيدان في هذا العالم. تعتبر مهمتها إنجاب إخوة وأهل جدد، لذا على أبنائها ألَّا يتذمروا من كثرتهم؛ فهم أرواح حُرمَت من أن تعيش لعمر أطول، إنهم أبناء جدة اختبرت ألم موت الأبناء مرارًا وتكرارًا دون أسباب معروفة حتى أصابها الخرف، وقررت الذهاب إلى الله ذات نهار قائظ **لتسأله عن أطفالها العشرة الذين ألقمتهم الموت واحدًا تلو آخر، فكان ذلك سببًا لحزن أسلمها للجنون. استلقت الجدة ذات يوم مغمضة العينَين، واضعة كفًّا على كفّ فوق قلبها، ولم تنهض بعدها أبدًا وسط دهشة صديقاتها اللائي يحدقن في وجهها البارد الذي تعلوه ابتسامة هازئة متجمدة.**

تردد لوسي أنها بوابة لعبور تلك الأرواح لمعاهدة تمت في السماء بين أمها والرب، يستمع ماركو إليها مؤيدًا، تعلو وجهه ابتسامة مرهقة، ويهزّ رأسه الذي بدأ الشيب يحتل هامته. كان يتساءل: هل لا يزال مؤمنًا بأنهم يحققون نبوءة ما لسيدة عجوز أصابها الحزن بالعته؟! في قرارة نفسه أصبح مقتنعًا أنه في ورطة لا مناص منها إلا بالاستسلام لتيارها بمزيج من الصبر وحسن التصرف لإدارة شؤون أربعة عشر طفلًا، من رضيع لمراهق بأمزجةٍ وأهواء مختلفة.

يبدو كأن أمورًا عظيمة تشغله، كمَن يُعاني صراعًا داخليًّا يخصه، انقطعت أخبار بيتر صديق عمره أكثر من عامَين، اشتدت أوزار الحرب في الجنوب، أنباء يومية عن الموت والدمار والنزوح، أحوال سياسية لا تتحسن، بل تمضي نحو الكوارث بصورة سريعة ومتتالية.

يشعر بالعدو في مسامه، يتملكه شعور قوي بالرغبة في الهروب إلى مكان ما، ولكن لا يستطيع ترك لوسي وحدها مع قبيلة من الأطفال دون عائل، عليه أن يتعامل مع غضبه من الحرب وإحباطه من الثورة التي وضع عليها آمالًا عريضة بالتغيير، ولكن أخذت الأمور تسير نحو الأسوأ، ولا بد أن يتعلم الصبر.

تشغله ابنته إموتا الصغيرة التي وُلدت مُختلفةً عن إخوتها، تُنازل الموت بنعومة وتنتصر، تبدو كأنها تعيش في عالم آخر موازٍ بتركيز منخفض للغاية، ثم تنكفئ لأيام رافضة الطعام والكلام، كما أنها تعاني من صعوبات في التعلم، عَلى الرغم من أنه في بعض الأحيان يشعر أنها ذكية، ولكنها تفعل ما يُملي عليها خيالها، هل هذا مرض؟ وهل سيسوء الأمر كلما تقدَّمت في العمر؟ وكيف سيكون مستقبلها؟

بعد الحادث بأيام انسلّت إموتا من فراشها بخطوات هادئة، بدا كأن جسدها ارتفع عن الأرض وواصل امتداد ظلها المشي. كانت ترتدي فستانًا أكبر منها يكنس الأرض من خلفها، مزيّن بنقوش على هيئة ورد أبيض، أخذته من أختها؛ تأخذ كل ما ضاق أو قصر عن إخوتها.

اندسّتْ في حضن أبيها، متشبثة بحمالة قميصه الداخلي القطني الأبيض، وبصوت هامس حكت عن العين التي رأتها داخل الماء. شرعت في الوصف فاردة أصابعها النحيلة في الهواء لتريه حجمها الكبير جدًّا، أخذت تحملق بصمت في يدَيها المنتصبتَين في الهواء، كأنها تستجمع أفكارها، أو كأنها تحاول تذكّر اسم شيء تعرفه حقّ المعرفة ولكن ضاع منها الاسم، إلى أن قالت إن العين بدت بئرًا تؤدي إلى مكان ما تحت الأرض، وإن هناك شيئًا يغريها لتنساب معه إلى ذاك المكان المجهول.

احتضنها ماركو وسألها هامسًا: «خايفة؟».

هزت رأسها نافية: «تنفست عادي جوة الـمُويَة».

شعر ماركو بالراحة الظاهرة من نبرتها، ورأى شرودها للبعيد كأنها تستعيد لحظات ماتعة.

ماركو: «ما في زول يتنفس جوة الـمُويَة عادي، لما الزول يغرق معناها ممكن يموت؛ لأنه ما بيقدر يتنفس».

إموتا: «لا ما حاموت، كنت بتنفس عادي، وبشوف عادي جوة الـمُويَة».

كانت عنيدة بشكل لا يُصدق، مما زاد هواجس أبيها الذي ازداد صوته حزمًا: «دا ما صاح!».

إموتا: «بابا قلت ليك كنت بتنفس جوة الـمُويَة كدا»، ثم أخذت تشهق وتزفر بقوة في شقاوة طفولية متحدية، فما كان من ماركو سوى أن نهض وأمسكها بين ذراعَيه وأجلسها في مواجهته، محاولًا السيطرة على هذا الحوار بأي شكل: «اسمعي إموتا، ممكن تكوني صادقة في كلامك، لكن نحن ما ممكن نفهم الكلام دا، كل الناس بيعرفو إنه اللي بيقع في الـمُويَة بيغرق وبموت. عشان كدا اوعدي بابا إنك ما حتمشي جنب البرميل تاني».

قالت مطرقة الرأس: «كويس».

كانا يتهامسان كجنديَّي حراسة، وسط أَسرّة كثيرة توزعتْ في الباحة يغطّ فيها أطفاله وضيوفه في النوم؛ الكبار كل واحد في سرير بمفرده، والصغار مثنى مثنى، بأقدام فوق بعض وأيادٍ متدلية على الجوانب، والأم لوسي معها اثنان في فراشها. كأنهم فعلًا في معسكر مؤقت لجنود مرهقين.

حملها إلى فراشها بجوار إحدى أخواتها، ودغدغها في إبطها وتحت ذقنها لتُطلق ضحكات مكتومة وهي تضع يدَيها على فمها، فتبدو في مزاجٍ جيدٍ. همس في أذنها بأنه ينبغي علينا في بعض الأحيان أن نتخلى عن جنوننا قليلًا لأجل قلوب مَن يحبوننا.

أومأت إموتا بعينَين تبرقان في الظلام، تعكسان ضوء البدر الذي كان ساطعًا في ليلة الاكتمال، قائلة: «لن أذهب إلى ذاك المكان أبدًا حتى لا تتألم بابا».

، قبّلها على جبينها شاكرًا، فأضافت بحماس: «عندي قصة مدورة في راسي».

- احكيها بالراحة بصوت واطي؛ عشان ما تصحي إخوانك من النوم، وأنا بسمعك من بعيد زي ما عارفة، اتفقنا؟

هزَّت رأسها موافقة. دغدغها للمرة الأخيرة وعاد إلى فراشه، استمع إلى همسها مع كائناتها المُختلقة، عندما يرتفع صوتها، تسمع أحد إخوتها ناهرًا: «إموتا، اسكتي!». تتوقف برهة تسدّ فمها بكلتا يدَيها، كأنها تحبس تبخّر كائنات قصتها والتسرب على هيئة كلمات، وحين تطمئن لسكون الجميع، تعود للهمس مرة بعد مرة إلى أن يدركها النوم.

يعرف ماركو نوبات الأرق التي تجتاح إموتا خاصة عند اكتمال القمر، يُصبح ذهنها حاضرًا متوقِّدًا، لذا يبقى ساهرًا يحرسها؛ لأنها قد تتجول أيضًا في الفناء دون هُدى.

جافاه النوم تمامًا، وفكر كيف يؤمّن سلامة إموتا الجامحة، التي غالبًا ستفعل ما يملي عليها خيالها، أو تدفع ثمن شرودها وعدم انتباهها لما يدور حولها. قد يجدها يومًا غارقة داخل البرميل فعلًا، أو لعلها تختفي في مكان داخل الأرض.

بعد حوارهما بيوم، كان البرميل منكفئًا، وسعى ماركو لجلب صهريج صغير مقفل بإحكام ومرفوع بقوائم، من أجل سلامة الصغار وخاصة إموتا، ثم زوده بصنبور؛ لأن من الصعب الاستغناء عن شيء لتخزين الماء، إنها احتياطات واجبة لمجابهة انقطاع الماء لأيام.

ولكن تبقى أمر آخر؛ فقد اعتادتْ إموتا أن ترافق مَن يُغادرون البيت سواء أكانوا من عائلتها أم مجرد زوّار. وكثيرًا ما يحدث أن يقوم هؤلاء بإعادتها إلى البيت بعد انتباههم لها ويكونون قد قطعوا حينها مسافات طويلة. ويحدث أن تضيع ساعات نتيجة عادتها تلك قبل أن يُعثر عليها أخيرًا، فتجد أمها لوسي غارقة في هلعها.

لكنّ هذه العادة في المقابل منحتها فرصة أن تكتشف وتتعثّر بأمور سريّة، كما حصل حين تبعتْ جارتهم إلى بيتها بخفّة لم يُنتبه لها. دلفت الجارة إلى البيت تاركة الباب مشرعًا وراءها، ثم استدارتْ حول البيت حتى بلغتْ غرفة معزولة في نهاية زقاق ضيّق، كلّ هذا وإموتا تتبعها. أمسكت مفتاحًا يتدلّى من قلادتها، وفتحت الباب ودخلت وهي تنادي: «بكوري، أنا جيت».

تبعتها إموتا، والتصقت بالجدار جوار الباب. كانت الغرفة معتمة، لذا مضى بعض الوقت قبل أن تعتاد إموتا على العتمة، وتبدأ في رؤية ما يجري. رأت الجارة تداعب جسدًا ممددًا على السرير لا يتحرك منه سوى يدَيه بحركة عشوائية، ويقلّب عينَين جاحظتَين مصوّبتَين في السقف، ويُصدر أصواتًا غريبة كالتي تصدر عن الرضَّع، فتبدو أسنانه الأمامية كبيرة ومتباعدة. قامت الجارة بتقليب الجسد على كلا الجانبَين، قبل أن تخلع عنه ملابسه التي بدت مبلّلة وبلّلت المفارش من تحته، لكنها تفعل ذلك بحبّ، فتعيد ترديد الأصوات التي تصدر عن صاحب الجسد الممدد وقد نغمتها، حتى بدا أن تلك الأصوات الغريبة هي وسيلة تواصلهما.

راقبت إموتا كلَّ ذلك بهدوء ذبابة ساكنة في شبكة عنكبوت، مشدودة بحيث لم تستطع إزاحة عينَيها عن الطفل الكبير بكوري، بشعره الكثيف وجسده الطويل الممدد. حين انتهت الجارة من مهمتها وهمّتْ بالخروج، فُوجئتْ بإموتا معهما في الغرفة. صرختْ فزعة، فأفاقت إموتا من شرودها واستغراقها، فأطلقت ساقَيها للريح دون أن تنطق بكلمة.

خشيت المرأة أن ينتشر سرُّها، فما كان منها إلَّا أن أشاعتْ في الحيّ أنّ ابنة لوسي غريبة الأطوار، كاذبة وتتفوّه بأشياء لا تُعقل. صدّقها كثيرون ممَّن كانوا أصلًا يعرفون عن إموتا طباعها المختلفة. ولم تكتفِ الجارة بذلك، إذ عمدت إلى رمي إموتا بنظرات تهديد كلما رأتها، كأنها تحذّرها من إفشاء سرها حول ابنها المعاق الذي أخفته عن الجميع، وجعلته يكبر وحيدًا في تلك الغرفة المعتمة بعيدًا عن الأعين المتطفلة.

***

تفاجأت الأُسرة في إحدى الصباحات بطرقٍ على الباب، ففتح ديدي، الابن الأكبر لماركو واسمه الحقيقي دانيال. فأطلّتْ فتاة من خلف الباب في منتصف الثلاثينيات تقريبًا، طويلة ببشرةٍ فاتحةِ السُّمرة، جميلة القسمات، شفتاها مُمتلئتان ترسمان ابتسامة ودودة، عيناها بأهدابٍ طويلةٍ تُخفي ما يبدو غضبًا وحزنًا، أما شَعرها فأسود منسدل بإهمالٍ، تميل للبدانة قليلًا. بدا لدانيال أن الفتاة ترتدي ثيابًا كثيرة، أكثر مما ينبغي، ملابس غير مألوفة بالنسبة لشاباتٍ في مثل عُمرها؛ سُترة وبنطالًا من الجينز المنتفخ، وقميصًا بأزرارٍ

مفتوحةٍ حتى الصدر، وقميصًا داخليًّا مخططًا يحبس ثديَين كبيرَين يتحركان كقطتَين حبيستَين في كيس من القماش تكادان تقفزان خارجًا، حذاء جلديًّا بعنق قصير ورباطٍ مرخي. تبدو كمتسلقةِ جبال، تجرّ حقيبة سفر كبيرة، وأخرى من الجلد جيد الصنع تحملها على ظهرها. بيدها ورقة انتُزعتْ على عجل من دفتر مدرسي، غير منتظمة الحواف، رُسمت عليها خارطة باليد، وفيها كتابات بأحرف إنجليزية كبيرة لأبرز المعالم، ورسم واضح لبيت يفتح بابه ونوافذه على الميدان، كُثِّف الحبر بما يشبه هامة شجرة ضخمة وظليلة، تشير الرسمة أنّ صاحبها قضى ردحًا من الوقت في هذا البيت، فهو يحفظ كل شبر فيه.

انتبه دانيال أنّ ملامح الفتاة تبدو مألوفة بالنسبة إليه، تشبه شخصًا يعرفه، ولكنه لا يستطيع استحضاره! تأملها ثوانيَ، وفكّر سريعًا؛ رُبما هي تائهة وتقصد بيتًا آخر في الجوار. كاد يسألها، لكنها ابتدرت الحديث بلهجة الجنوب حين يتحدثون العربية:

- دي بيت تا بيتر صمويل؟ ماركو في؟

ومدّت الورقة التي تحملها بأصابع مرتجفة.

لم يستطع دانيال إخفاء دهشته وهو يرى كيف تختلف لهجة الفتاة تمامًا عن الهيئة التي بدتْ عليها. أجاب متعلثمًا: «أيوا.. تفضلي».

أفسح لها المجال لتدخل، وحمل عنها حقيبتها الضخمة إلى الداخل. خطتْ بتحفظ وعيناها تمسحان أفراد الأُسرة واحدًا واحدًا. امتلأ ناظراها بأناس كثر ينسلُّون تباعًا من الغرف والسقيفة والمطبخ

ومن تحت أغصان الشجرة الكبيرة بهيئات مختلفة كما تخرج البشرية يوم النفخ العظيم، كبارًا وصغارًا، وقد انزوتْ أصواتهم وخفتتْ بعد أن ابتلعوا حواراتهم وصخبهم بشكل تدريجي، إلى أن ساد الصمت تمامًا. تقدم ماركو مُرحِّبًا ومُصافحًا، مدّت يدها تصافحه:

- ات ماركو، صابي تا بيتر.

رد متوترًا: «أيوا.. أنا ماركو صاحب بيتر».

قالت : «اسم تاي سلام عبد السلام محمد عبد السلام.. اسم تاي قبيلة تاي. إيريم. أنا أخت بيتر.. أمنا واحد».

فغر ماركو فمه، واختلجتْ ملامحه. واصلت الفتاة حديثها متجاهلة انفعاله. أخبرته بأنها سمعتْ عنه كثيرًا من أمها، قبل أن تقول -فيما يُشبه التبرير لقدومها- إنها أتت للبحث عن أسرتها. ابتلع ماركو توتره، ودعاها للدخول إلى الصالة. شكرته بابتسامة واسعة وعيناها تتجولان في المكان والملامح من حولها.

مشت حذِرةً متخطية عتبة الباب بحذائها الثقيل، ودون انتظار إذْنٍ رمت نفسها على أقرب كرسي وجدته، وأخذت نفَسًا عميقًا كأنها بذلك تُنهي أولى مهامها الصعبة التي استنفدت كل قواها.

قلَّب ماركو ذاكرته سريعًا، محاولًا تذكر هل حدثه بيتر عن أخته المزعومة هذه يومًا ما؟ لو جاء صديقه على هذا الأمر، لما نساه إطلاقًا! ماذا وراء هذه البنت يا تُرى؟ هل كان وجودها سرًّا لا يعلمه بيتر؟ وماذا عن بقية الأُسرة، هل تعلم عنها شيئًا؟ استغرق ماركو في التفكير دون أن يشيح نظره عنها.

انتشر الخبر في البيت سريعًا، وبدأ الجميع يتهامسون. لمحت سلام ظلالًا كثيرة تتقاطع في الحوش ذهابًا وإيابًا، وأعينًا تقفز هنا وهناك، مختلسة النظر عبر النوافذ بحركات فضولية تبعث على الضحك.

أحضرت لوسي عصيرًا أحمر اللون في كوب زجاجي، مرددة كلمات الترحيب دون توقف، تغطي بها فضولها الذي يحتلّ ملامحها.

قالت سلام مبستمة: «أنت لوسي.. صاح؟».

أومأت لوسي بفرح: «أيوا.. أنا ياو، لكن أنت كنت وين زمن دي كلو؟».

حدجها ماركو بنظرة حادة لتكفّ عن طرح الأسئلة.

ساد جوّ من الارتباك داخل الغرفة التي تضمهم. شربتْ سلام كوب الماء على جرعات كبيرة أفرغته في الحال، وبدأت ترتشف عصيرها هادئةً، قبل أن تبحث في حقيبة ظهرها. أخرجت ثلاث صور فوتوغرافية التُقطت في أزمانٍ مختلفة، مدّت الأولى لماركو: «هذه أنا في الخامسة من عمري رفقة أبي وأمي، كنا نعيش وقتها في قرية حدودية بين السودان وأوغندا، تسكنها قبائل تماسية لا تعترف بالحدود، وحّدتهم الأرض واللغة والعادات والتقاليد، فتمددوا هنا وهناك غير عابئين بالخرائط الحديثة».

تأمل ماركو الصورة: عبد السلام يرتدي بدلة اشتراكية، ويضع في حجره طفلة حليقة الرأس تمامًا كأرملة مات زوجها للتو، الفرق أن الطفلة تبدو سعيدة، وبجواره امرأة في العقد الرابع من عمرها تبتسم

ونظراتها مثبتة على ابنتها حليقة الرأس، بينما تعلق الطفلة ذراعَيها فوق رسغَي والدها في وضع التأرجح، ترتدي بنطالًا أبيض وبلوزة كأنها صُنعت منزليًّا بخيوط الكروشيه بألوان عديدة، تنتعل صندلًا خفيفًا يحتضن قدمَيها الصغيرتَين. الصورة الثانية لعبد السلام وبناته الأربع يتوسطهم بيتر وزوجته ذات الشلوخ الغائرة على الخدَّين، الأب هذه المرة يرتدي جلبابًا وعمامة مهيبة تلفّ رأسه، وتجلس قربه زوجته فوزية متدثرة بالثوب المنقوش عليه أشكال كالجسور الطائرة، فيما البنات بتسريحات متشابهة، شُقّ فيها الشَّعر من منتصفه قسمَين متساويَين، مربوطَين بأشرطةٍ بيضاء معقودة بعناية، فغدون مثل فراشات كبيرة متماثلة تحطّ على الزهر، يرتدين فساتين قصيرة وجوارب طويلة تختفي تحت الفساتين. الفرق العمري بينهن واضح، من عامَين إلى ثلاثة أعوام. ويقف بيتر بوجهٍ خجول في الخلف، يُخفي توتُّرًا خلف ابتسامة حمقاء وعينَين تكادان تقفزان خارج الصورة.

شرد ماركو مفكرًا: عبد السلام داهية حقًّا، يبدو كمَن عاش حياتَين في زمانَين ومكانَين وأُسرتَين مختلفَين، تسيران بتوازٍ ونظام عالٍ وبسريةٍ تامةٍ، ويبدو أنه حان أوان التقاء هاتَين الحياتَين أخيرًا، وأرجو ألَّا يكون صِدامًا عنيفًا.

الصورة الثالثة كانت صورة نصفية لبيتر، يرتدي زيَّه العسكري. كانت نسخة مصغرة من تلك لا تزال مُعلَّقةً على جدار غرفتهم، تذكر ماركو تريزا عندما كانت تحملها بين يدَيها وتتأملها كلما غاب بيتر لوقت ولا تعرف عنه شيئًا، عندما تصدر الأوامر للتصدي لإحدى المحاولات الانقلابية على الحكومة.

مرر الصورة للوسي قبل أن يقتلها الفضول. انطلقت منها ضحكة وهي ترى هيئة بيتر في عمر غضّ وبنية نحيلة. كانت الصورة محمرة كاملةً بلون غسق شمس غاربة. لا يزال عقل ماركو يدور في تفكير مضطرب وسريع عما سيكون عليه الحال بعد وقع مثل هذا الخبر على أسرة عبد السلام، كيف ستتصرف جلاء وأُسرتها؟ لقد حافظ طوال هذه المدة على علاقة جيدة مع أُسرة بيتر الأخرى، يزورهم من حين لآخر، يسأل جلاء عن أخبار بيتر التي تصلها عبر رسائل متقطعة، على الرغم من الفتور الذي اعترى العلاقة، إلا أنّ جلاء وحسن واظبا على زيارات متقطعة في الأعياد والمناسبات السعيدة وغير السعيدة، يحملون أخبار بيتر وأُسرته وصورًا فوتوغرافية لأولاده المتدثرين بالمعاطف حينًا، وحينًا يسبحون في شواطئ بحور شاسعة شديدة الزرقة.

كما طوّرت جلاء علاقة خاصة مع أطفال ماركو الكبار، كانت ترافقهم ممسكة أيديهم في المواكب الكبرى الداعية لإسقاط النظام لمسافات قصيرة وتعيدهم إلى البيت منتشين ومرددين الشعارات الثورية.

حوّلت جلاء غرفة عمليات بيتر إلى مكتبة صغيرة عندما رأت شغف الأطفال بالقراءة، بعد أن اضطر هو للسفر خارجًا والانضمام للتمرد، بسبب مطاردة الاستخبارات، متهمة إياه بخيانة الوطن ودعم المتمردين، مستغلًا منصبه القيادي في الجيش، وكان ذلك بوشاية من ابن عمها إسماعيل.

نفض ماركو أفكاره، كأنه يقول: «ما جدوى هذه الذكرى الآن أمام ظهور سلام المفاجئ؟! جلاء طبعًا ستحلّ المشكلة على أكمل وجه، كما تفعل دائمًا مع كلّ المشكلات الكبيرة التي تندلع فجأةً. أنا أثق بها، سأذهب لمقابلتها، وأحكي لها كل شيء».

وعندما وصل تفكيره إلى هنا، تنفّس عميقًا، وألقى نظرة نحو سلام مُرحِّبًا بها: «أهلًا وسهلًا».

الفصل الثّاني

البيت

البيت، يُشبه كثيرًا من البيوت حوله؛ متلاصقة وعلى ارتفاع متساوٍ، عدا ما زاد ارتفاعه بسبب بُرج الحمام الموضوع فوق الأسطح. يحرص أصحاب البيوت المطلّة على الميادين على وجود شجرة نيم منيعة واحدة أو أكثر أمام الأبواب البنيّة عادة، فتفرش ظلال أغصانها الكثيفة على مساحات واسعة، خارج البيت وداخله على السواء، وتصدّ الغبار الذي تثيره الرياح أو حركة الناس الدائبة أو لعب الأطفال اليومي.

يمتد البيت على مساحة عشرات الأمتار المربعة، تحده جدران مبنية من الطوب الأحمر بهت طلاؤها بسبب الأمطار وسطوة الشمس وعصف الرياح. يضم المحيط الداخلي (الحوش) غرفتَين وصالة بنوافذ مستطيلة ضيقة تفتح على الشارع مباشرة، ومطبخًا واسعًا بعريشة أمامه، ومرحاضَين في الركن القصي خلف الباب، وحمَّامَين في وضع متقابل، وملحق ببالوعة مفتوحة غُطيتْ بغطاء حديدي لتجنب سقوط الأطفال فيها.

بيت يسكنه أكثر من ثلاثين نفْسًا بشرية، بالإضافة لنفوس أخرى من دجاج وحمام وشجرة تصوّب أغصانها نحو الجميع. الأَسرّة

الحديدية كثيرة مُلقاة هُنا وهُناك دون ترتيب، والمفارش والبطاطين القديمة الخضراء كأنها بقايا جنود لقوا حتفهم في كمين، كلها متعلقات بيتر القديمة التي وُزعت عليه في أثناء وظيفته في الجيش، كانت من المتانة بحيث قاومت الاهتراء على الرغم من كثرة الاستعمال، غير أنها لم تنجُ من الاتساخ بالأتربة والسوائل من ماء وزيت وبول الصغار ومَنِيّ الاحتلام.

المنظر داخل الغرف لا يختلف كثيرًا؛ فالمراتب غير مستوية، وتغطيها مُلاءات مجعدة غير متجانسة الألوان. كل شيء يبدو عليه نفاد صبر مَن مروا عليه. سقف من الزنك المتين، جدران منزوعة الستائر مطلية بأزرق سماوي تعلوها طبقة خفيفة من الغبار الناعم، أركانها منسوجة ببيوت عناكب مثقلة بجثث الحشرات وأجيال العناكب الميتة التي استقرت هنا لأمد طويل تتأرجح مع هفهفة مروحة السقف.

سلام -كوافدة جديدة- رأتْ في المكان مملكة للفوضى. كان شيئًا يفوق تصوّرها على رؤيته قابلًا للترتيب. ولم تستطع فهم كيف لبيت صغير كهذا أن يؤوي كل هؤلاء القوم، عائلة ماركو وحدها نصف عدد السُّكان، ثم ضيوف طارئون نبشتهم الحرب الدائرة من أماكنهم في الجنوب، ودفعتهم للنزوح شمالًا نحو مدن لا يعرفون عنها شيئًا.

أخذت سلام تفكر أين سيكون موقعها وسط هذه الفوضى، هي التي نشأت بنتًا وحيدة، إحساسها بالخصوصية عالٍ، ربّتها أمها تربية صارمة على النظام والنظافة، فاعتادتْ أن يكون كل شيء في مكانه،

يبدو هذا المكان جنونيًّا بالنسبة لها. لا تتوقع قطعًا - والحال هكذا - أن تكون لها غرفة تخصها، لذا إذا حظيت بسرير وركن تضع فيه حقيبتها، سيكون هذا كرمًا بالغًا.

خطر في بالها لوهلة بيت والدها في الخرطوم، لا شكّ يتكوّن من غرف عديدة. تخيّلت نفسها تسكن فيه رفقة إخوتها من أبيها، وهنا شعرتْ بنبضات قلبها تتسارع، وتقلّص يصيب معدتها. كيف سيتقبّلون أختًا تخرج لهم من العدم؟ إنها سرّ والدها الذي خبأه في قرية نائية أقصى حدود الجنوب، واختفى بعدها سنين طويلة دون أي خبر.

لكن مع هذا، لا يمكنها التراجع عما عزمتْ عليه؛ الخروج إلى العلن، وإنهاء حالة إخفائها التي دامتْ طيلة حياتها. لا بأس إذنْ أن يكون هذا المنزل بفوضاه العارمة أولى الخطوات نحو ذلك. ستتحمّل أي شيء حتى تحلّ كل التعقيدات المتعلقة وتعيد الاعتبار إلى حياتها المغيبة.

ستكون جزءًا من هذه الفوضى لكيلا تبدو متزمتةً مترفعةً عن الباقين، ماركو ولوسي يبدو عليهما الطيبة مستسلمَين لقدرهما استسلام الرهبان، سترى ما يمكن أن تقدمه لتوفر الراحة لنفسها أولًا ثم الآخرين. ستقاوم بروز شخصيتها المائلة للنظام والانضباط، ستنهض وتشرع في ترتيب ما يمكن ترتيبه.

بالكاد قمعت نفسها وأكملت الاستعانة بخيالها، شرعت ترتب البيت في ذهنها، وكما تفعل الساحرات في قصص الأطفال، أمسكت عصاها، وبضرباتٍ متتاليةٍ أزاحت الأَسرّة وأمالتها على الجدارن،

طوت المفارش وكدّستها فوق بعضها أعلى المنضدة القديمة التي تقف بقوائم واهنة في إحدى الأركان. الآن أصبح الحوش فسيحًا، دخلت الغرف، نفضت الغبار المتراكم فوق الجدران، وأزالت بيوت العناكب المثقلة بجثث الذباب. تأملت الوضع وهي تدور حول نفسها، نعم هكذا أفضل! أصبح اللون الأزرق الباهت أكثر صفاءً كسماء يوم صيفي. عدّلت المراتب الملتوية، وبحثت في الدواليب المكدسة بألثياب والمفارش عن ملاءات متجانسة، سوّت تجاعيدها بالمكواة الحديدية المسخّنة بجمرات الفحم المحمرة، وفرشتها، بحثت عن ستائر، لا بد أن تكون هناك ستائر في مكان ما، أخرجتها من رفٍّ آخر، مكدسة ملفوفة ببعضها، يظهر نفاد الصبر بجلاءٍ هنا، أحدهم يسعى للتخلّص من هذه الأشياء، فردتها وشدّتها على النوافذ التي تُدخل الشمس والغبار وأعين المارة، غسلت الأبواب والنوافذ فركت مقابضها جيدًا بالماء والصابون، ابتسمت عندما رأت كل شيء يلمع، وثمة هواء خفيف ونظيف يدخل رئتَيها دون ذرات الأتربة. سعدت بإنجازها المتخيل.

«هل هناك شيء؟»، أعادها هذا السؤال إلى أرض الواقع، وجدت نفسها في مواجهة ماركو ولوسي لا يزالان ممسكين بالصور - دليل انتمائها العائلي الوحيد- ويحدقان فيها بريبة.

ردت بهزة من رأسها: «لا شيء. فقط لا أصدق أنني وصلتُ إليكم أخيرًا».

قالت لوسي: «لا بد أنكِ متعبة من السفر، هيا سآخذك للداخل لتبدلي ملابسكِ وترتاحي»، ثم نادت بناتها: «إدووووو». ردّت ثلاث منهن في ذات الوقت. «تعالين! خذن الحقائب ورتبن المكان للعمة». هكذا هو دأبها عندما تكون هناك مهام لأكثر من شخص، لا تُتعب نفسها وتنادي ثلاثة أسماء مختلفة، فقط اسم واحد، فتلبي النداء ثلاث فتيات يُعتمد عليهن، أو الأدوات الثلاث كما تسميهم. سمعتْ سلام جلبة في الخارج، همسات وضحكات مكتومة وتدافع ومشاكسة أمام غرفة الضيافة.

سمّت لوسي ثلاثًا من بناتها باسم أمها إدّو، التي زارتها في المنام في أثناء حملها بكل واحدة منهن على الرغم من تباعد ولادتهنّ. كانت تأتي وتهمس لابنتها قائلة: «هذه أنا مرة أخرى!»، وما إن تُنجب لوسي بنتًا، حتى تسارع إلى تسميتها باسم الأم، وفيما بعد تُعطيها لقبًا يُميّزها، إدّو الكبرى تُلقبها بـ(إيانق) أي أمي، وإدّو الثانية هي (إغيسا) بمعنى: وُلدت بعد عدد من الفتيان، وأخيرًا إدّو الصغرى (إموتا) أي الصغيرة ضئيلة الجسد.

اقتحمن الغرفة، قافزات فوق العتبة بإيقاعاتٍ مختلفة، إيانق بقوامها الجميل الصلب وملامحها الدقيقة مزيج من ملامح أمها وأبيها، ترتدي فستانًا مصنوعًا من قماش النايلون الذي لا يصلح للمناطق المدارية الحارقة بشمسها، لونه أسود بياقاتٍ دائرية كبيرة كياقاتِ الملابس المدرسية، يبدو عليها النضج والذكاء، ولها ثديان نافران باعتداد شابة في مقتبل العمر. تبعتها إغيسا، خجولة تهرب بنظراتها هنا وهناك كمَن اعتلى مسرحًا لأولِ مرة، هذه اتجهت

مباشرة نحو الحقيبة الكبيرة وأرادت حملها والفرار خارجًا، ملابسها رثة، يبدو أنها انتظرت طويلًا حتى وصلها هذا الفستان من أخواتها اللاتي يكبرنها، لونه أخضر يميل إلى الاصفرار كأوراق الأشجار في مواسم الخريف، وجهها يشبه ملامح الأب ماركو تمامًا، لكن على هيئة طفلة، تبدو شقية في نهايات المراهقة، تتأرجح على باب النضج بشوق كبير لمفارقة طفولتها. وأخيرًا إموتا، التي اقتربت بخطوات ناعمة كقطةٍ، واتجهت مباشرة نحو سلام تنظر إليها بحدقتَين ثابتتَين فأربكتها، ترتدي فستانًا بهت بياضه، أشرطته من الستان الأحمر يمر بكل الحواف، مع انثناءات دقيقة متقنة إلى نهاياتها. يبدو الفستان فضاضًا بسبب حجم الفتاة الضئيل، ابتسمت ابتسامة ودودة ومرحبة، فردّت سلام الابتسامة بأخرى وقورة دون أن تُظهر أسنانها.

وبينما تُساعد البنات سلام لتجد موقعها في البيت بتوجيهات من الأم، تدافعت الذكريات بغتة على رأس ماركو، وهو يتفحّص ملامح سلام بتمعن. تذكّر صديقه بيتر، وشعر بالفقد. هناك شيء منه فيها؛ الملامح الوسيمة، ولكنها أكثر جمالًا. عيناها واسعتان بأهدابٍ سوداء، الأنف الدقيق والبشرة الخلاسية والشَّعر الطويل المتمردِ الذي يكاد يكون أشعثَ.

تساءل في نفسه: أين صديقه بيتر الآن؟ ربما لن يُصدِّق أنّ أخته هنا الآن.

شعر بخشوع يصيب روحه، لم يلبث أن استحال إلى شعور بالحزن. لا يعرف لماذا تذكّر أمه، وكيف تخلّتْ عنه سنوات طويلة بعد أن منحته إلى تاجر شمالي.. هكذا ببساطة! تساءل: أين هي

الآن؟ وأيّ نوع من النساء كانت؟ كثيرًا ما هبطت عليه هذه الأسئلة دون إجابات. يتذكّر كيف كان يبكي في كلّ مرة يشعر باحتياجه إليها، لطالما احتاجها، حتى لو كانت عاهرة، فهو يحتاجها أيضًا.

قبل أن تتخطى سلام عتبة الباب خلف الأم وبناتها، ألقت نظرة نحو ماركو، فوجدته يغالب دمعة تنحدر على خدهِ، لقد ضبطته تمامًا. احتارتْ في حزنه، لكنها مثله أيضًا، يغمرها حزن لا تعرف أسبابه، أو هي تعرف، لكنها لا تريد الإمعان في بحث تلك الأسباب. للحظة خطر لها ما تحتاجه الآن؛ أن يباعد ماركو بين ذراعَيه ويشرع حضنه وينادي عليها. ستترك ما بيدها وترتمي في صدره لتبكي، ليبكيا معًا بالأحرى، كلٌّ على أسبابه التي يعرفها، وتلك التي لا يعرفها. هي تريد هذه اللحظة التي يُشاطرها فيها شخص هذا الحزن، فيفتّته ويضعفه ويعيده ضئيلًا مقدورًا عليه. خطر لها ماركو الذي يُغالب دموعه الآن، يُعيد الترحيب بها أختًا له قبل بيتر صديق عمره، فيما لوسي باكيةً تطلب منهما أن يكفّا عن البكاء: «اريامو.. اريامو!». فيما هبط على البنات صمت مطبق وهن يرين حفلة البكاء التي انخرط فيها الجميع.

لكن سلام عوضًا عن كل تلك الخيالات التي أثارتها دمعة ماركو، منحت الرجل ابتسامة مرتبكة، وتبعت الفتيات إلى الخارج.

عبرت سلام الفناء المليء بالأسرّة المبعثرة، قفزت فوق المفارش والسجاد والمشمع والبطاطين القديمة المكوّمة بإهمال، مرت تحت حبل الغسيل المثقل بالملابس التي جفت الآن بعد أن كانت بحاجة لغسيل ليلي عاجل. مسحت بعينَيها وجوه الضيوف واحدًا واحدًا؛

رجال نحفاء بعروقٍ نافرة كمرضى، نساء بخدود جافة وأعين حزينة متشحات بملابس سوداء أكلتها الشمس، يلتصق بهن أطفال ببطون كبيرة بحجم البطيخ وضلوع بارزة، الجوع في أحداقاهم يكاد يقفز منها، مراهقون لم يعتادوا حالهم الجديد بعد، أعينهم قلقة تجوس في المكان كصقور تتهيأ للانقضاض.

هذا المنظر ليس غريبًا عليها، منذ بدأت الحرب مرةً أُخرى وملأت الأجواء بالقذائف والرعب والمجاعات والموت، كان هذا حال الناس في كل المدن والقرى التي مرت عليها، يتكدسون بالعشرات في البيوت التي تفتح لهم، وعندما يتذمر أصحابها يرحلون إلى أخرى وهكذا، يلتمسون الأمان والطعام، وأماكن يبكون فيها موتاهم معلنين الحداد الأبدي على السابقين واللاحقين وعلى أنفسهم.

يحتاجون إلى عناوين مؤقتة لاستقبال الرسائل المكتوبة بخط اليد والتي تحمل أخبار الموت المباغت: إما بالألغام، وإما الرصاص الطائش، وإما المتعمد، وإما بالأمراض ومهاجمة الضواري ولدغات الأفاعي. سلام نفسها تحمل في حقيبة ظهرها مثل تلك الرسائل المكتوبة بحبر الفجيعة، لتوزعها عليهم واحدًا واحدًا بعد أن تجلس وتستقرّ. بعض النسوة بدأن النحيب سلفًا بمجرد معرفة أنها قادمة من الجنوب، يا للبؤس، كأنما تخلى الله عنهم بغتة!

تومئ برأسها لكل واحد منهم تمرّ به، بإشارة للسلام أو المواساة، ربما! يبدو أن الحوش هو عالمهم الحالي وآخر حدودهم، أو ربما

لأنّ النهار لم ينتصف بعد، وهناك ظلال كافية ليحتموا بها، ألقتها الجدران وأغصان شجرة النيم الكبيرة.

لمحت شيخًا بقدم متورمة منشغلًا عن الجميع، يحاول إخراج دودة استقرت في أنسجة جسمه من خلال جرح مفتوح كأنه ثُقب بمسمار ضخم. يُمسك طرف الدودة بقشة صلبة ويحاول سحبها للخارج برفق؛ لكيلا تنقطع فتندسّ داخل لحمه، وتفتح لنفسها ثقبًا آخر في جلده، فتأكله من الداخل وهو لا يزال حيًّا. قالت في سرها: «دودة غينيا اللئيمة، سأرى كيف أخلصه منها لاحقًا».

في مثل هذا البيت يصعب تسمية الغرف بأسمائها، غرفة نوم أو غرفة ضيافة، كل الغرف ومساحات الأمكنة الأخرى صالحة لكل شيء. البيوت أيضًا تفقد هويتها بسهولة إذا ناءت تحت عدد كبير من الناس. هناك ثلاث غرف بالكاد تكفي لكل تلك الأنفس. أما الحوش؛ فيتحوّل لساحة نوم تستوعب الجميع خاصة في ليالي الصيف الطويلة، حيث ينامون تحت النجوم مباشرة.

ألقت نظرة داخل المطبخ ذي الباب المخلوع، بدا كهفًا، بينما بريق أواني الألومنيوم المصقولة جيدًا يومض في لُجة العتمة. ها هي في حرم السقيفة الآن، تحوي أَسرّة متراصة ملتصقة بالحوائط، صانعة ممرًّا في المنتصف يقود في نهايته إلى غرفة بباب موصد. تحت السقيفة طالعتها أربعة عشر زوجًا من الأعين الفضولية، لمراهقين وأطفال مرحين. سلمت عليهم واحدًا واحدًا، محاولةً حفظ أسمائهم التي تتقافز كلما حطت تلك الأكف الصغير في باطن يدها مصافحة

خجولة. تعددت الأسماء وتنوعت بين أسماء كنائس وقبائل، أسماء للتدليل، وأخرى لأمكنة وأنهار وأناس موتى وأحياء.

لفت انتباهها أن هناك توائم أيضًا وسط هذا الزحام، بدا الجميع متقاربين في العمر، ولكن سرعان ما تبين أن هناك تدرجًا ملحوظًا في الأعمار والأطوال. قالت لوسي وهي تبتسم باعتزاز المحتفي الذي أنجز مهمة على أكمل وجه: «ديل عيالي، وفي نفس الوقت إخواني وأخواتي اللي ولدتهم من بطني». فابتسمت سلام بارتباك مَن لم يفهم تعويذة. وطالعت الأعين الكثيرة التي تحملق فيها، أعين واسعة براقة يكاد الفضول يقفز من محاجرها.

اجتازتهم بعد أن صافحت الجميع، دون أن تحفظ اسمًا أو شكلًا.

لف الصمت المكان، الأعين تقول كثيرًا، وبسبب التوتر وصلها دبيب خطواتها الثقيلة القوية كأنها تدك الأرض.

لوسي تشير إليها مرحِّبةً بأن تدخل الغرفة. تبدو غرفة خاصة لزوجَين، لا، إنها فعلًا كذلك. سبب هذا لها حرجًا، فترددت في الدخول. هذه المساحة الخاصة يجب احترامها، ولكن تشجيع لوسي أزال التردد في آخر المطاف. الغرفة مرتبة ونظيفة على النقيض تمامًا من الفوضى العارمة التي مرت بها قبل قليل، تسربت لأنفها رائحة بخور حلو، فخفّف من توترها.

يوجد سرير مزدوج يتوسط الغرفة، شُدَّت فوقه ملاءة بيضاء، وُزع فيها ورد يحمل ألوانًا عديدة نُسجت باليد. وهناك خزانة للملابس من الخشب العتيق بثلاث نوافذ. الجدران الأربعة اكتسبت لونًا أزرق غامقًا كلونِ عمق البحر، عُلقت فوقها صور بأطر ذهبية، هذه

صورة نصفية كبيرة لبيتر ببذلته العسكرية، وأخرى موازية لتريزا زوجته ترتدي تنورة قصيرة سوداء تنتهي فوق ركبتَيها، وكنزة رياضية بيضاء بدوائر صغيرة سوداء، بأكمام عريضة الحواف كأذنَي فيل، على رأسها شَعر مستعار كثيف، وأقراط رقيقة مدورة من الذهب الخالص تزين أذنَيها، حواجبها محفوفة بعناية ترسم هلالًا فوق عينَيها الواسعتَين المكحولتَين. تراءى بريق خافت على شكل نجمة لزمام مغروس بعناية في أرنبة أنفها، تشع بشرتها الناعمة بالنظافة واللَّمعان، وصورة ثالثة عائلية لبيتر وتريزا وأطفالهما الأربعة في كامل أناقتهم.

في الركن منضدة ثقيلة بقوائم قصيرة رُصَّت عليها مجموعة من الحقائب، الجديد منها فوق القديم، كل حقيبة تشير لحقبة زمنية ما، في الأسفل صندوق حديدي مطليّ بالأخضر الفاتح تزينه رسوم لأهِلَّةٍ صفراء باهتة، يتدلى منه أقفال كبيرة، ثم حقائب من البلاستيك وهكذا، إلى آخر حقيبة حديثة من القماش المقوَّى بأحزمة كبيرة. خلف الباب يقف ما يُشبه المنصة عليها هاتف لا يعمل تحوّل إلى مجرد ديكور حزين يحكي فجيعة ما دون أن يرنّ، عدد من الكتب القديمة مرصوصة بعناية جوار الهاتف، ويربض كرسي منسوج بالحبال تمزق بعضها، كأنه ينتظر جلوس أحد عليه.

جلست سلام على الكُرسيّ حتى أَنَّ تحت ثقلها، كأنه تفاجأ، إحساس غريب. الغرفة مريحة؛ لأنها شبه معزولة، لولا تكدّس الأشياء فيها حتى السقف وتحت السرير الوحيد أيضًا، كأنه مستودع للأشياء المهمة لساكني البيت جميعهم، حتى هؤلاء الضيوف الطارئين مثلها.

دخلت الحمام لتستحم وتبدل ملابسها الثقيلة المتعرقة، في أثناء ذهابها وإيابها، اضطرت أن تمر أمام تلك الأعين الفضولية مرة أخرى، وهي تخترق جلدها وشَعرها الكث، فيما سؤال أصحابها ينفذ إلى قلبها مباشرة: مَن هذه؟ وما قصتها؟

استلقت سلام أخيرًا على السرير وقد نال منها التعب، لدرجة أنها لم تشعر بحرج اللحظات السابقة. ثبتت نظراتها على السقف المنخفض جدًّا، تتدلى منه مروحة قديمة تبدو كأنها قطعة منزوعة من آلة حرب.

حكت لها لوسي كيف أنها اهتمت بهذه الغرفة؛ على أمل أن يعود أصاحبها الغائبون، تعني بيتر وتريزا، وشردت هنيهة كأنها تستحضرهما في ذهنها. ثم انتقلت بشكل مفاجئ إلى قصص أخرى بدأت تنسل كانسحاب خيط من بكرة لا نهائية.

بدأت الحكي عن إسماعيل، وكيف أنه كان مسؤولًا عن كثير من التجارب المؤلمة، ابتداءً من محاولة اعتقال بيتر، وانتهاءً إلى محاولة بائسة لمصادرة بيته أيضًا ورميه في الشارع من خلال تزوير أوراق تُثبت ملكيته للبيت.

وعلى الرغم من رحيل عائلة بيتر، إلا أن لوسي واظبت على المجيء لتهتم بالشجرة، واستمر الأمر على هذا الحال، حتى صادفت في مرة جلاء التي تبحث عنهم بدورها؛ لأنها قد حلّت الأمر وألقت إسماعيل في السجن.

لاحظت سلام كيف أن عينَي لوسي التمعتا وهي تنطق اسم زوجة بيتر.

«جلاء مرة قوي، وقلبو ابيااااض»، مطّت الكلمة الأخيرة مع ابتسامة غمرت وجهها، أبانتْ عن مدى محبتها لجلاء. انتبهت سلام إلى أن مشاعر ما بدأت تتشكّل حيال عائلتها التي لا تعرفها؛ إحساس بالغضب وعدم الارتياح تجاه إسماعيل، ومشاعر ألفة وطمأنينة تجاه جلاء.

واصلت الاستماع لقصص لوسي بنصف انتباه؛ لأنها تغرق في تحليل كل شيء بسرعة، وتحاول الخروج باستنتاج أوَّلي قد يساعدها كيف ستتصرف في الأيام القادمة.

اقتربت منها لوسي كأنها بصدد إفشاء سر خطير، وواصلت سردها كيف أن الجيران في أثناء غيابهم سمعوا أصواتًا، على الرغم من خلوِّ البيت من الناس. اندهشت سلام في البدء ثم ضحكت قائلة:

- عملت كجور ولا شنو؟!

هزت لوسي رأسها في نفي قاطع وهي تشاركها الضحك: «لا. لا.. أنا ما بعرف كجور وحاجات زي دي».

شعرت لوسي أن سلام لم تصدق القصة الأخيرة فيما يخص الأرواح، فزادت حماستها أكثر لتضيف أن هذه القصة ليست اختلاقًا، وأنّ الجيران أكدوا أنهم سمعوا جلبة من الأحاديث والقهقهات، وأبوابًا تُفتح وتُغلق. وأضافت أن إسماعيل حاول تأجير البيت لسكان جدد، إلا أنهم لاذوا بالفرار من يومهم الأول. وأنه حاول هدم البيت وإعادة بنائه، فتعرّض عدد من العمّال لحوادث فظيعة. أحضر شيوخًا ليقرأوا القرآن كما نصحه أحد الجيران لطرد

الجنّ، لكن دون جدوى. لهذا ظلّ البيت موصدًا شهورًا دون أن تتوقف الجلبة.

حكت لوسي هذه الحادثة بحماس؛ لأن القصة تؤكد اعتقادها أن هناك قوة خفية تحمي عائلتها. ختمت قائلة: «ما في حاجة بيحصل لينا، أنا وراجلي ماركو نحن ناس الله ساي، ما عندنا حاجة كعب في قلوبنا لزول، عشان كدا ما في زول بيقدر يضرنا».

أومأت سلام بالموافقة مبتسمة في إرهاق.

قالت لوسي وهي في طريقها للخروج من باب الغرفة:

- نخليك ترتاح هسه، القصص ما بينتهي. ارتاح من تعب السفر يا.. معليش اسم تاكي منو أنا نسيتو؟

- سلام.. إيريم.

telegram @
yasmeenbook

الفصل الثَّالث

سلام

وُلدتْ سلام لأب تنحدر أصوله من قرية صغيرة تقع شمالًا على الضفة تمامًا، يحدها النيل من ناحية، بينما من الناحية الأخرى تصفع رمال الصحراء الجزء الأسفل من جذوع نخلاتها. نشط في التجارة، حتى وصلت مغامراته التجارية جنوب البلاد. أما أمها؛ فمن الجنوب، قريتها محمية بالهضاب، بينما تنخفض السحب المحملة بالرعود تلثم هامات غاباتها المتشابكة. أمها زوجة سجين قضى نحبه في أحد سجون الشمال محكومًا بالمؤبد؛ بسبب مشاركته في مذبحة ضد مواطنين شماليين عاشوا في الجنوب. التقى الاثنان ونما عشق بينهما على الرغم من أن كل واحد منهما ينتمي لمجموعة تعتبر الأخرى عدوًّا، ويتناحران منذ زمن بعيد. ولهذا وجد الاثنان نفسَيهما منوبذَين.

وُلدت سلام في سنين الهدنة. كانت الحكومة في الشمال حينها تستجمع قوتها للهجوم من جديد على مَن تمردوا على سلطتها بحجة المظالم، تُغريها القوة للسيطرة على حاضر الناس ومستقبلهم، وتضرب في سبيل ذلك بكل شيء عرض الحائط. في ذلك الوقت حاول الجنوب لملمة أطرافه التي تُمزقه الانتماءات؛ استعدادًا لبعث تمرد أكثر شراسة من سابقه، يضمن توحيد أبنائه ويجعلهم على

استعداد دائم ليكونوا وقودًا له. على أيّ حال كان الوضع أشبه ببركان نائم، قد يستيقظ بغتة، فوّهته في الجنوب، بينما تمتد حممه لتحرق البلاد كلها، وترجّ أركان الحكم في الخرطوم.

منذ نعومة أظفارها في الجنوب، تعايشت سلام مع فكرة أنها غريبة بسبب ملامحها المختلفة، كان هذا سببًا لتصنيفها ضمن انتماء آخر. فبشرتها الفاتحة وشَعرها الذي ينمو حتى ينكبّ على ظهرها جعلاها مادة للتندر والسخرية والتنمر من الصغار والكبار. ملامحها التي لم تخترها، انتماؤها الذي وُلدت به أو أُلصق بها إلصاقًا! فهي جنا مندوكورو*، هذا التنصيف حوّل حياتها إلى جحيم. منذ بواكير الطفولة عرفت أنها تنتمي إلى فئة يتوارث الناس في الجنوب كراهيتهم في أجواء فوضوية تنذر بحروب مباغتة.

سمّاها أبوها سلام، بينما أطلقتْ عليها أمها إيريم، أي المولودة في أثناء الحرب. اسم يشاكس ويعاكس الاسم الذي أطلقه الأب الحالم. ظلّ اسم سلام رسميًّا في شهادة ميلادها ودفتر حضور المدرسة والشهادات الجامعية، لكنّ إيريم هو الاسم الأكثر قربًا لحالتها، حملته كحقيقة مؤلمة، وكان الاسم الأكثر التصاقًا بمخاوف أمها وقومها الذين فقدوا ثقتهم في جدوى السلام من هول ما رأوا من أفاعيل آلة الموت وهي تجثم على عنق البلاد، وتحصد الأرواح كلما أساءت السياسة الأدب، فتندلع حرب أخرى بين الشمال والجنوب. كتلتان تقف كل منهما في متأهبةً للأُخرى.

---

* مكون من كلمتَين؛ جنا: طفلة، مندوكورو: اسم يُلقب به الشماليون.

حدّدت الحكومة هوية البلاد وانتماءها العروبي المسلم، فيما الجنوب متمرد دائمًا، ورافض ومحتج وتمترس خلف الانتماء الإفريقي، ويدين بعدد من الديانات السماوية والأرضية. وبين الشمال والجنوب يرقص الموت رقصته المرعبة، محتفيًا، يُشاهد الاقتتال والتطاحن، ويمتصّ ما يتدفق من دماء. ومع كل جولة، يتبادل الرابحون والخاسرون الأماكن، لكن -ويا للمفارقة- دون أن ينتصر أحد!

يستخدم كلّ سلطته للبطش بالآخر وإذلاله، مَن يكره أكثر يقتل أكثر، ومَن يؤمن بقضيته يستميت في سبيلها، فيبطش بأشدّ الطرق فظاعة، ثم لا يكاد ينتبه إلا وقد انقلب الأمر عليه، ليصبح ضحية جديدة، وهكذا بلا نهاية.

تعلم روزا -وهذا هو اسم الأم- أنّ الوضع لن يسفر عن سلام قريب. ستظل الحرب مرابطة بالجوار تتحين فرصة لحين الانقضاض القادم، سيختلف الزمان والمكان، ولكن ستظلّ هي نفسها بذات الوجه الكالح المنذر بالموت والحريق والخراب.

لم تشعر سلام بسلام قط، لذا تجد أن إيريم أكثر تعبيرًا عنها وعن حال البلاد المضطرب، فهو يُجسّد يأس أمها التي آثرت قبول الوقائع مهما كانت مرارتها، على التشبث بأمل يخيّب ظنها في كل مرة.

كثيرًا ما راودتها الأفكار المرعبة، بحتمية موتها مذبوحة على يد أحدهم. لا تدري من أين تأتيها هذه الهواجس؟ كأنها وُلدت بها، تتغلغل عميقًا في ثنايا روحها، في منطقة تنمو فيها القومية بكل تشوهاتها. تعتقد جازمة أنها قد لا تُهدر رصاصة على مثلها، سكين

المطبخ ستفي بالغرض، أو ربما سيسحق أحدهم رأسها بعصا غليظة حتى يتطاير مخها. يا ليتها تموت فورًا! إذا خُيّرت كيف تقتل، كانت ستختار رصاصة، أو وقوع قذيفة عليها وينقضي الأمر سريعًا. الموت نفسه لا يؤلم، ولكن انتظاره وهو يتجه إليك يغتالك ألف مرة.

الموت فعل مزدوج؛ يموت الواحد، ويموت عالمه معه أيضًا. فكم من العوالم أخذها الموتى معهم إلى المجهول! كما تنزعه المنية من الحياة هو أيضًا ينزع قطعته، ذكرياته وأحباءه من الحياة وينزوي. قد يكون هذا سبب تآكل كل شيء من حولنا.

تشعر سلام بالرعب من فكرة الموت مذبوحة، كثيرًا ما استيقظت فزعة لأنها تُذبح في الحلم، تشعر بانغراس نصل السكين في رقبتها وحركته ذهابًا وإيابًا يقطع الأنسجة، ثم الألم الفظيع الناتج عن ثني القاتل -الذي لا يملك وجهًا- لرقبتها، يأتيها في الحلم بلا وجه، بلا ملامح، بلا عينَين ولا أنف ولا فم. يطأ يدَيها بقدم كبيرة ثقيلة، تفقد قدرتها على المقاومة، تبدأ في الصراخ الذي سيختصر طريقه ليخرج عبر فتحة في الحنجرة، يتحول إلى خوار كما تفعل البهائم المذبوحة. ستشعر بكل شيء، صوت الأوصال وهي تُهتك، تدفق الدم الفائر، اصطدام النصل بمفاصل الرقبة، ثم فصل رأسها بالمرة. تصحو فزعة بقلب يخفق بجنون وجسم مرتعد، تتسع عيناها في الظلام الذي يغمر كلَّ شيءٍ، فيتراءى لها شبح قاتلها وهو يتكثف من طبقات الظلمة مقبلًا عليها، تستغل ما تبقى من الشجاعة للركض من فراشها إلى فراش أمها لتحتمي بها.

تُعادوها تلك الكوابيس كلما طرأ على بالها حكايات الناس عن المذابح. حين تتذكّر أيضًا قصة نجاة أبيها في إحدى فورات الغضب واحتدام نوبات العداوة التي تلي مقتل عدد من الناس على يد الحكومة في الشمال. يتم ذلك بطرق مختلفة وفي أجزاء مختلفة من البلاد، حين تسعى الحكومة لإخماد مسببات المقاومة والثورات في الجنوب.

كان ذلك في زمن بعيد، حين كان الإنجليز على وشك إنهاء فترة الاستعمار وتسليم مقاليد البلاد لقيادة وطنية تكونت جلها من الشماليين؛ ما أثار حفيظة الجنوبيين، فقد استُبدال مستعمر أبيض بآخر عربي يتحكم بهم. حكت روزا لابنتها قصة نجاة الأب عبد السلام بأعجوبة من مذبحة استهدف فيها الجنوبيون عرب الشمال؛ احتجاجًا على أمور سياسية قبيل الاستقلال بعام، فذبحوا التجار والمعلمين وقتلوا الرضع وحملوا جثثهم الصغيرة فوق سنان الرماح أمام أعين أمهاتهم اللائي ينتظرهن الذبح أيضًا بعد أن قضى أزواجهن نحبهم بطرق أخرى أكثر بشاعة.

نجا عبد السلام، لأنّ امرأة خباته داخل برميل فخّار كبير تُحفظ فيه البيرة. أغلقتْ عليه باب كوخها، وأكمل الحظ بقية القصة بأن مرّ الغاضبون دون أن يستوقفهم الكوخ أو برميل الفخّار. أنقذته امرأة، وليس أرحم من النساء حين يُجنّ الرجال.

بعد هذه المذبحة بسنوات عاد عبد السلام إلى الجنوب مرة أخرى. لا تزال ذاكرته ملأى بالمآسي التي شهدها بنفسه وكاد يذهب ضحيتها، لذا كان دائم الحذر ويتوقع الغدر في كل مرة، على الرغم من أن الناس بدوا كأنهم نسوا ما جرى وتركوه خلفه للأبد. في يومه

الأول، لمح روزا تسير في السوق واليأس يصبغ وجهها وهي تسأل التجّار العائدين من الشمال تارة عن زوجها الذي شارك في تلك المذبحة وعُوقب بالسجن المؤبد نتيجة ذلك، وتارة تسأل عنه هو نفسه. بدت المفارقة فاقعةً هنا، وامراة واحدة جمعت بين رجلَين، ثم فقدتهما معًا، أحدهما زوجها الجنوبي والد بيتر الثائر في وجه الحكومة، والآخر عبد السلام عشيقها الشمالي والد سلام التاجر الناجي من فورة الغضب تلك.

عاد عبد السلام، فاكتفتْ بالسؤال عن الجنوبي الغائب. كانت لشدة يأسها تسأل عبد السلام نفسه، والذي لم يكن معنيًّا كثيرًا بالحصول على إجابة لها، كان مشغولًا بتجارته وعائلته. لكنه وحين صارت تُلحّ عليه وتنتظر ردًّا، أصبح يختلق لها الحكايات، وكيف أن شخصًا يعرفه التقى والد بيتر في أحد سجون الشمال واطمأن على حاله. كان كلّ ما يعرفه أنّ المقبوض عليهم يُستنزفون بالأعمال الشاقة وحفر أحواض الملح، لكنه استمر في كل مرة يخترع حكاية تبدأ من نقطة مختلفة وتنتهي عند المآل نفسه: «هو بخير، ويبلغكِ السلام». ضمدت تلك الأكاذيب جراحها إلى حين، وأراحت عبد السلام في الآن نفسه من إلحاحها وإزعاجها المستمر. يقول في نفسه: «كذبة صغيرة تفرح قلبًا خير من حقيقة تجلب غمًّا».

أحاط عبد السلام نفسه بمجموعة يثِق بها، كوّن صداقات وشراكات عادت عليه بكثير من المنفعة. فكّر ربما يحتاج لحمايتهم عندما تحين لحظات الجنون ويثور غضب الناس، أو تندلع إحدى تلك الثورات التي تُدبر في الغابات الكثيفة المظلمة.

يسأل نفسه دائمًا: ماذا يريد من هذا الجنوب؟ مثله لا يقوى على مواجهة النهاية التي تأتي بخطوات ثابتة ثقيلة، عليه أن يقف في مكانه مرتعدًا بفم مفتوح وأفكار تتلاطم في رأسه الذي قد يُقطع في أي لحظة. ربما يذبحه أحد ما يعرفه جيدًا قد أسدى إليه خدمة كجلب إطاراتٍ جديدة لدراجةٍ، أو مرهم لمرض جلدي، أو أهدى إليه ملابسه القديمة، يا للبؤس! عندما تصحو الفتنة وتستعر النفوس لشرب الدماء، لا تعدّ مثل هذه العطاءات ذات جدوى، فقط الموت مقابل الموت. تتلاشى كل تلك الأشياء الجميلة التي نحتفي بها في أوقات السلم كغيمات صيفية هشة تذيبها الرياح الساخنة.

يستحضر دائمًا كيف لقي بعض التجار والمعلمين حتفهم، حصدًا بالرصاص أو بشجّ رؤوسهم بفأس، أو ببقر الحوامل بالحِراب.

تعايش عبد السلام مع الأفكار المرعبة التي تجول في رأسه في أثناء إقامته في الجنوب لقضاء بعض حوائج التجارة. يمسك الخوف تلابيبه ولكنه لا يرضخ، تسيطر عليه هواجس بأنه سيقتل في هذه المنطقة يومًا ما. ومن المحتمل أن يتعرف على قاتله بالوجه والاسم. قد يكون ذاك الشاب الذي يرمقه بنظرات انتقامية كأنه السبب في إعدام والده، أو هذا الذي يتبادل معه المزاح ويعلمه التحدث باللغة المحلية، أو أيّ شخص آخر من حوله.

أجواء تاريخها مشبع بالعنف المتبادل، ولم يمر الناس بأي فترة راحة ومصالحة، فالانفجارات محتملة، والبراكين تظل قريبة من السطح، وجاهزة على الدوام لإطلاق حممها. والناس معبأون بالظلم والخوف والكراهية واليأس. في مثل هذه البلاد من السهل

إشعال فتنة، فكل ما عليك فعله هو إحضار شخص وإلباسه قناع الشر وإخباره أنه سبب كل التعاسة التي مر بها الآخرون. ثم أعطِ نصف معلومة لجاهل أو رجل دين، وسيُكملون ما تبقى وحدهم عبر اختلاق مشهد مناسب مليء بالبشاعة لتأجيج النفوس. وأخيرًا اجعل السلاح متاحًا في أيدي بعضهم، وسيتسلح بقية المسعورين بآلات يستعملونها للطبخ وجزّ العشب. ستنبهر بالنتائج. سيسحلون بعضهم دون تردد، متناسين كل لحظاتهم الجميلة المليئة بالبراءة التي عاشوها معًا، بل ستُمحى محوًا من ذاكرتهم ويحلّ شعور الإبادة مكانها.

السكّان المحليون الذي لا تصلهم ثمار مفاوضات السلام، والتي هي مجرد توزيع للسلطة والثروة بعد مساومة بين أعداء يتبادلون مواقع القوة نفسها للأبد، أولئك السكّان، يعرفون متى تبدأ اللعبة ومتى تنتهي. أما مَن انخدعوا بنبل أسباب الاقتتال، ويجدون أنفسهم منسيين ومبعدين سيتحولون إلى فئة كارهة لكل شيء، وهم يرون عناق القيادات لبعضهم أمام الكاميرات، مجبرين على خفض البنادق، وكبح الرصاص المعد للإطلاق، بينما لا يزال بارود ذواتهم ملتهبًا. هؤلاء خائفون أيضًا، بالنسبة لهم الحرب قائمة مع وقف التنفيذ، أول ما تندلع لأي سبب، سيجز أحدهم رقابهم دون تردد، فمهما كان الواحد صادقًا وحقيقيًّا فإنه مجرد (جلابي)، ينتمي لفئة الأعداء التاريخيين.

يرى عبد السلام شبح قاتله في الظلام عندما يكون وحيدًا، يزدرد لعابه بصعوبة، يفشل في طرد الهواجس، وعندما ينال منه الخوف يفرّ متسللًا على أطرافِ أصابعه إلى كوخ روزا التي يسكن قريبًا منها.

يهرب إليها متخفيًا بجذوع الأشجار. يطرق بابها بطرقات خفيفة متتالية. تفتح له الباب ليقضي ليلته مختبئًا في حضنها حتى الفجر.

عندما فاحت رائحة علاقتهما، صبوا عليها جامّ غضبهم، فوُصمت بالمومس، وتعرضت لمضايقات وتهديد بالاغتصاب. رأوا أنها يجب أن تحافظ على نفسها لأنها زوجة ثائر، وحتى إن أرادت رجلًا فليكن من قبيلتها لا من أعدائهم.

تنامت الكراهية حولهما، وازدادت سوءًا لدرجة محاولة قتلهما في ليلة كانت الأكثر رعبًا مطلقًا. غرس أحدهم رمحًا صلبًا بطول مترَين من خلال سقف الكوخ القش، لكنه لحسن الحظ مرق بينهما في أثناء استرخاء الحب. كانا بين إغفاءة ويقظة، ولا يزال تيار دافئ يسري في أوصالهما. انتفضا ينظران لذاك الشيء الذي اخترق السقف والفراش ليستقر نصله عميقًا في الأرض من تحتهما. وقف عمود الرمح بينهما، على الرغم من نحوله، ولكنهما شعرا به جدارًا صلبًا عزل أحدهما عن الآخر.

تملّكت عبد السلام نوبة هلع، قفز من الفراش، وبحث عن ملابسه في ظلام الكوخ، يردد بصوت متهدج: «ليه عايزين تكتلوني؟ عملت شنو أنا؟».

قفزت روزا راكضة حول السرير إلى الناحية الأخرى، فوجدته جاثيًا على الأرض يهمهم، ويطلب من الله أن ينجيه، إذا نجا هذه المرة فلن يعود إلى الجنوب مرة أخرى. جثت روزا على الأرض بقربه، حاولت احتواءه، لكنه نفض يدَيها، وتكوّر على نفسه مرتعشًا. لكنها في النهاية استطاعت احتضانه كطفل عنيد يرفض المواساة،

احتوت رأسه بقوة وجذبته إلى صدرها لإسكات همهماته الإيمانية. بكت هي الأخرى بصمت. يرتعشان على أرضية الغرفة القاسية، عاريَين من كل شيء، كانا تحت سطوة الحب الذي يزين لهما العقبات ويقول لهما بأن كل شيء ممكن. لم يُمعنا في التبعات إلّا بعد اختراق الرمح ثاقبًا فقاعة النشوة تلك. لقد أعادهما للواقع، وها هما يرهفان السمع كفريستَين في لحظة صيد، فربما يدلف القاتل عبر الباب للإجهاز عليهما.

بقيا متكورَين في الظلام حتى تخدّرت أطرافهما، كل واحد يلتوي داخل تعرجات جسد الآخر حتى ذابت حدودهما، يتنفسان من رئة واحدة إلى أن انبلج الفجر. في الصباح الباكر كان لا بد من تدبير طريقة للهرب. سافر عبد السلام إلى الخرطوم متعجّلًا وفي معيته بيتر، ابنها المراهق. عند الوداع احتضنت بيتر هامسة في أذنه: «اذهب، وتعلّم، وابحثْ عن أبيك، عبد السلام رجل طيب، أنا على يقين بأنه سيعتني بك جيدًا، أنت أيضًا اعتنِ به وبأسرته، هذا أقلّ شيء يمكن أن تفعله لتشكره نيابةً عني. اذهب يا ولدي ربما كتب الرب لك حياة أفضل مما عشناها». أما هي، فلجأت إلى قرية بعيدة لا يعرفها فيها أحد. لكن عبد السلام لم يغادر إلا وقد ترك في جسدها بذرته، سلام، الابنة التي جاءت نتيجة الحب والخوف والتلصص وسرقات الغرام ومقاربة الموت في كل لحظة.

أربكها الأمر كثيرًا، واختلطتْ عليها المشاعر، بين صدمة وحزن وفرح وغضب. فكّرتْ في زوجها الغائب، وفي بيتر، وفي قومها الذين سيسهل عليهم إيجاد ألف عذر الآن لقتلها. ثم فكّرت في عبد

السلام الذي لم يَرَ في يوم إلا نفسه؛ جاءها من أجل نفسه، وها هو يُغادرها من أجل نفسه أيضًا. لكن هذه المرة بعد أن ترك في أحشائها شيئًا منه. خطرٍ لها في مرة أن تتخلّص من حملها، لكنها عادتْ وازدادتْ تمسكًا به، بل وحبًّا له. إنه وإن كان شيئًا من عبد السلام، فهو شيء منها أيضًا، بل يكاد يكون هي، كيانها وعصارة مشاعرها.

وُلدت لتجد الحرب في انتظارها، لذا سمّتها أمها ابنة الحرب (إيريم). زحف إليها الوعي مبكرًا، كعادة الأطفال الذين يترعرعون في الأزمات. سرعان ما اتخذت الحرب كأمر شخصي يعنيها بالذات، فهي تنتمي بالدم لطرفَيها. عندما انتشرت في الجنوب الألفاظ العنصرية الموجهة للشماليين، وكانت هذه وسيلة العوام الوحيدة للانتقام مما لحق بهم من خراب، كانت في البدء تردد تلك الألفاظ، فهي أيضًا تشعر بغبن تجاه ذاك العدو، إلى أن سمعت ذات الكلمات موجهة ضدها، تسمعها من الأطفال عندما تدخل معهم في شجار، وفي بعض الأحيان ينعتها الكبار أيضًا بالألقاب ذاتها، مما فجَّر السؤال الحاد في قلبها حد النزف: لماذا هي؟ لماذا أصبح الناس يصبون جام غضبهم عليها؟ لماذا يحتقرونها ويذكرونها أنها ليست منهم، يشيرون إليها لتتأمل نفسها في المرآة؟ كثيرًا ما عادت إلى البيت لتقضي وقتًا طويلًا أمام المرآة، تحاول نفي ما يلصقونه بها، هي بالتأكيد ليست (مندوكورو)، وليست جلابة، ولا تنتمي لعرب الشمال! إنها تكره الشمال مثلهم، فكيف لا يرون ذلك؟ هل الشمال الذي يجري في دمها أكثر وضوحًا من شعورها لمن تنتمي الآن؟ كانت تحوّل السؤال إلى أمها كلما تاهت بشأن هويتها: «أنا

عرب يا ماما؟»، وترد الأم مدعية عدم المبالاة: «وكان أنت عرب ما لو يعني؟!». تحتار أكثر، فتطيل المكوث أمام المرآة، الأمر الذي جعل روزا تهشم المرآة في آخر الأمر، قذفتها حجرًا وبعثرتها إلى قطع صغيرة، لتبتسم بعدها بتهكم ردًّا على جزع ابنتها جاحظة العينَين، كأن الأم اغتالتها للتو. قالت لها الأم إن كل واحدة منهما ستكون بعد اليوم هي مرآة الأخرى. لكن ذلك لم يُنهِ مشكلة سلام أينما حلّت، في الشارع، وعند الجيران، وعند الصغار والكبار على حد سواء.

أخيرًا، ابتكرت روزا طريقة لحماية ابنتها؛ إذ عمدت إلى الهرب كحلّ دائم. أخذتْ تهرب بها من مكان إلى آخر كلما اصطدمتْ سلام بكراهية وغضب. ارتضت الأم أن تدفع هذا الثمن، لأنها بالأساس ارتضت علاقة مرفوضة كاملةً، لا يكفّ قومها عن أن يسألوها كيف تناست الدماء التي أُريقت بين الشمال والجنوب، لكنها لم تنسَ يومًا! هي وزوجها وابنها ضحايا هذه الحرب. لكن هل يسألون الحب؟ الحب غير مَعنيّ بتقديم الإجابات، الحب أعمى، بل وخبيث في بعض الأحيان. إنه ليس بريئًا دائمًا. الحب يُدرك التبعات، ولكنه يمضي قدمًا غير عابئ بشيء.

تخبر ابنتها في لحظات صفاء أنها إذا ما خُيرت بين أن تتأمل الدماء المتدفقة بين طرفَي البلاد الملعونة هذه، وبين إنجاب ابنتها، فستختار أن تنجب الطفلة حتى لو ذبح الجميع بعضهم، ستحملها قافزة بها فوق الجثث لتُخبئها في مكان آمن. إذا كانت علاقتها بأبيها ومن ثم إنجابها هي خطيئتها الوحيدة، فهي أجمل خطيئة لأنها أعطت لحياتها معنى. ولو رجع الزمن سترتكبها مرارًا وتكرارًا ومع

الرجل نفسه، وليذهب الجميع إلى الجحيم. ولكن هي مَن عاشت في الجحيم آخر الأمر.

ورثت سلام وجهَ أبيها ولونَ جلده، وبسبب هيئتها المختلفة كانت مدعاةً لانتقاص الكبار منها وتنمُّر الصغار عليها، وكثيرًا ما أسدلت شَعرها إلى الأمام واختبأت خلفه لتحجب وجهها عنهم؛ فتبدو كمَن يختبئ خلف غابة من النباتات المتسلقة. أحيانًا تقف في مكانها دون حَراك وفي صمت تام، تتظاهر بعدم الوجود؛ إنها حيلة الكائنات العاجزة عن الدفاع، تقف ساكنةً تحرّك حدقتَي عينَيها كبندول الساعة من وراء خُصلاتها المتأرجحة، تزامنًا مع دقّات قلبها وأنفاسها المتواترة.

في أحيان أخرى يبادر أحد العابرين لإنقاذها؛ امرأة أو رجل، ومرات كثيرة أطفالٌ مثلها، يسحبونها من تحت سَيل الشتائم التي تنطلق نحوها دون رحمة، تنساق مع اليد التي تجرُّها كالمنوَّمة، حتى تجد نفسها في البيت، تتبادل نظراتٍ غاضبةً مع أمها دون أن تنطق حرفًا، على الرغم من إلحاح أمها لتحكي لها ما واجهته، تظلُّ صامتة لساعات طويلة، متكوِّرة في صدفتها الخاصة، فيتفاقم إحساس أمها بالذنب.

حين اختفى أبوها في غموضٍ تام، لم تدرِ روزا كيف تحمي ابنتها. قبل أن يغيب عبد السلام كان الأهالي يُكنّون له احترامًا وقبولًا وثقةً كأنه أحدهم، ويغضُّون الطرف عن ماضيه، ويبرّرون لأنفسهم هذا القَبول عندما يتجنَّبون فكرة العداء التاريخي الذي يجب ألّا يتزحزح عندهم، فيقول بعضهم: «قلة من هؤلاء العرب طيّبون حقًّا مثل عبد السلام، إنه ابن إنسان حقًّا!».

كانت تسمع هذا الإطراء المغلَّف بالاستثناء كأمر غريب من فم الأهالي، ربما كانوا يتملَّقونه أو يردُّون إليه الجميل بسبب كَرَمه معهم، ولكن مهما كان فهم صادقون في مشاعرهم تجاهه أينما حلَّ؛ فهو يعرف كيف يكسب ود الجميع. ولكن على أي حال فقد اختفى منذ أربع سنوات، ولا يعلم أحدٌ ما حدث له!

أَلِفَت سلام نفسها مع أم وحيدة في أوضاع مضطربة؛ فالسياسة كلما دخلت في شقٍّ ضيق، يتناسى الناس سريعًا فضائلَ بعضهم على بعض وتتهاوى الصِّلات، فيُطِل السوءُ من وجوههم وألسنتهم. ولم تكن سلام وأمها في حاجة لأي شيء، بل كانتا تعيشان في رَغَد، لأن روزا أدارت تجارة زوجها بمهارة مدهشة، كأنها تاجرة بالفطرة، بعد أن ترك عبد السلام كل شيء في عُهدتها، فتمكَّنت من حماية ابنتها من العَوَز، ولكنها مع ذلك لم تستطع حمايتها من موجات الكراهية المصاحبة لتقلُّبات الأوضاع، كانت تردُّ أحيانًا بمحاولات يائسة؛ فتارةً تسبُّ كل مَن ينادي على ابنتها بـ(جنا مندكورو)، وتارةً أخرى تُغلق أبواب الطاحونة الوحيدة في المنطقة (التي تُديرها لمساعدة النساء بدلًا من طَحن الغلال على الحجارة)، هكذا كانت تحتجُّ إذا ما تعرَّض أحدٌ لطفلتها، ولكن دون جدوى.

كان شَعر سلام الكثُّ دائمًا مصدرًا للتنمر، فاهتدَت لحَلْقه كأنها تجزُّ تلك السِّمة التي وصمتها وجلبت إليها التعاسة، بَيْد أنه يُعاود النمو بسرعة وينسدل مرة أخرى على جبينها كشعيرات كوز الذرة.

الهروب كان الخيار الأسهل؛ فقد كثرَت المشكلات وتكالبَ الجميع عليها، تحجَّجت بتجارتها التي في كل قرية، إذ لم تكن تقضي عامًا في قرية حتى تهرب إلى أخرى. وكانت سلام في أثناء ذلك تكتسب اسمًا ولقبًا جديدَين فورًا، بلغة مختلفة حسب القبيلة، وكلها تعني الشيء نفسه: (جنا مندكورو) أو (الغريبة) أو (الحمراء مثل مؤخرة القرد). كثرة السفر وتغير المكان من وقت لآخر أكسبا سلام ثقافاتٍ ولغاتٍ وتقاليد عديدة، كتلك المنتشرة في أدغال الجنوب القَصيّ؛ حيث باستطاعة ألف شخص فقط ابتكار لغة ولهجة ورقصة خاصة بهم.

في الثانية عشرة كانت تعرف عددًا من اللغات واللهجات المحلية، تنسى بعضها وتتعلم أخرى جديدة، وتعرف تفاصيل الطقوس وأداء أكثر الرقصات بمهارة، تُحرّك عضلاتها ومفاصلها مع كل الإيقاعات التي تُصدرها الطبول على اختلافها، ترقص قافزة إلى الأعلى مثل صبيات الباريا*، أو هازَّةً صدرها وخَصرها مثل فتيات الأشولي** والزاندي***، تارةً مخالفة بين ساقَيها كقبائل الجور والبلندا، وتارةً مقوِّسة يدَيها ناثرة الأتربة بقدمَيها كنساء اللاتوكا.

تزيَّنت بالسكسك**** والعاج وجلود الضواري وريش الكواسر، تمسَّحت بزيت اللولو والصلصال والرماد، غنَّت وصلَّت وترنَّمت بكل لغات تلك الأرض التي تعرفها كتعاريج كفها، ورغم ذلك

---

* اسم قبيلة في جنوب السودان.

** اسم قبيلة في جنوب السودان.

*** اسم قبيلة في جنوب السودان.

**** الخرز.

تظل (الغريبة) ومجرد (جنا مندكورو)، الملفوظة بلا رحمة خارج المجموعة، تصرخ أحيانًا لكي يكفُّوا عن ذلك، تؤكد أنها ليست (مندكورو)؛ فهي تنتمي إلى هذه الأرض ولا تعرف أرضًا غيرها.

خَطَت سلام نحو سن المراهقة بملامح جميلة مُلفتة، وظهر أول أشكال تمرُّدها في ما فعلته مع أمها حين أوقفتها عن حَلْق شعرها، فقد دأبت روزا على حَلْقه كلما زاد طوله وتكاثفت خصلاته السوداء؛ لكيلا يشدُّها منه أقرانُها عندما تتشاجر معهم.

تتذكَّر جيدًا ذاك اليوم الذي بدأت فيه هذا التمرد؛ تسمَّرت أمها أمامها والموس بين أصابعها، تنظر لابنتها كأنها تراها للمرة الأولى، كانت سلام حازمةً يتطاير الغضب من عينَيها، وهو ما جعل الأم تتردَّد، حاولت أن تفرض سُلطتها بالقوة، ولكن سلام أطبقت على رسغها في تحدٍ. وفي لحظة تغلَّبت عليها أمها وبدأت تجزُّ شَعرها، ولكن سلام أمسكت نصلَ الموس بقوة حتى انغرس في لحم يدها، عاركتها الأم لتفكَّ منها الموسَ لكيلا تؤذي نفسها أكثر؛ فجَرَحت يدَها أيضًا، تشابكت الأصابع الدامية داخل شَعر سلام، بلَّل الدمُ الخصلات خصلةً خصلةً وانساب غزيرًا نحو وجهها، وبدأت الأم تصرخ فيها لتُفلت الموس، لكنَّ كلما ارتفع صوتها اشتدَّت قبضة سلام على الموس وهي تكزُّ على أسنانها مُغمضةً عينَيها.

كانتا تنزفان وهما تتعاركان بالأصابع، أدركت الأم حينها افتضاح نيّتها وسعيها الجاد لإخفاء ملامح ابنتها التي تجلب لها السخرية، وعرفت أنها كبِرَت وقرَّرت أن تُجابه معركة هُويتها بنفسها، بالمواجهة لا بالهروب والتخفِّي كما اعتادت هي أن تفعل. استسلمت

واستجابت لها، فكَّت أصابع سلام الدامية التي تقبض على النصل، والدمُ يقطر منهما معًا ملطِّخًا شعرَها ووجهها ذا الملامح المتحدِّية، ووعدَتها بأنها لن تلمس شَعرها بعد اليوم.

وخلال عامَين فقط كانت حزمة كثيفة من الشَّعر جاثمةً على ظهرها كذيل خروف، ينسدل مُشعَّثًا بإهمال ظاهر للعيان، ينمو دون رادع، جافّ ومتمرِّد، عصيّ على التمشيط. كأنما تريد أن تقول: «ها أنا ذا بكل ملامحي التي تُبغضونها، لنرى إلى أي مدى يُمكنكم أن تكرهوني، لأرى إلى أي درجة سأتحمل ذلك».

كثيرًا ما عادت من المدرسة بأشياء عالقة فيه، يضعها التلاميذ في محاولاتهم الدائمة للتنمُّر عليها، أشياء مثل الديدان، والحشرات الميتة، وفضلات القطط، والأعشاب الجافة. ترجع إلى البيت كالمنوَّمة، بتاج من الأوساخ على شَعرها، وأذناها مُعبَّأتان بالقصص المقزِّزة عن والِدها الهارب، لا تستطيع تجاوز ثرثرة الأهالي عندما تمرُّ بتجمُّعاتهم؛ فيتعمَّدون أن تسمع ما يقولون.

أصبحت معروفة؛ فهي ابنة التاجر العربي الذي غرَّر بأمها وهرب تاركًا بذرة محرمة في أحشائها. كثيرًا ما أغضبها ذلك، فتدخل في شجارات بالأيدي تنتهي نهاية مأساوية؛ حيث يصطفُّ كثير ضدها ويضربونها ويُعفِّرون شَعرها بالتراب. كان لديها حينئذٍ صديقتان مقرَّبتان كانتا أيضًا من المنبوذات في المدرسة، لكن بلا أسباب واضحة، قد تكون صداقتهما لها هي السبب. كانتا إذا حاولتا الدفاع عنها في أي شجارٍ، ينتهي الأمر بضربهنَّ جميعًا.

كثيرًا ما عادت إلى البيت باكيةً متَّسخة مليئة بالكدمات، فتألم لها أمُّها وتخرج لتتشاجر هي الأخرى مع أمهات الأطفال المشاكسين، حينها يُسمعونها أسوأ الكلمات وأكثرها بذاءةً؛ فهي في نظرهنَّ مُومِس نامت مع العرب وزوجُها مُلقًى في السجن. وعلى الرغم من كل ما عانته أمُّها من شتائم، لم تذكر أباها بالسوء قطُّ، ولم تحنق عليه أيضًا.

لم تنسَ سلام هيئةَ أبيها على الرغم ممَّا يعتري ذاكرتَها من ضباب، وتتذكر أن الجلباب الظاهر في صورته مع عائلته الأخرى لم يكن يرتديه حين يكون معهم في الجنوب. كان مرحًا ويحترم الجميع، واكتسب حبَّ الأهالي ووُدَّهم؛ فمنحوه اسم قبيلة ولقبًا ذكوريًّا مشاكسًا. عُرف بأنه تاجر ومزارع عنيد يحرث ويزرع دون هوادة، مغامرٌ يبحث عن الخيرات ويهيِّئ كل الموارد لاستخراجها من باطن الأرض، يوفر الحاجة الملحَّة ويكسب الذهب في الكل سعيد.

يمتلك عبد السلام متاجرَ ومخازن مكدَّسة بالبضائع، كالصابون والزيت والملح وحبوب القمح، يستأجر المزارع ويجرِّب أن يزرع ما تُمليه عليه المواسم، فزرع الفول والطماطم والخضار، وجرَّب زراعة البُن والشاي. جفَّف لحوم الغابات والأسماك وأرسلها شمالًا وربح منها. كان موهوبًا يُجيد الكسب، ورجلًا لا يعرف الخسائر، ولا يحب أن يفوته شيء أراده بشدة؛ لذا عندما أحب امرأة من الجنوب لم يتركها، وعندما انهالت عليهم المضايقات وسط قومها قرَّر أن يهرِّبها بعيدًا، وكان يزورها في مكان اختبائها، لكن نتيجة ذلك كانت إنجاب طفلة...

تُردِّد أمها دائمًا أنه رجل مختلف، لم تقل يومًا إنه شماليٌّ أو عربي كما يُشار إليه، تقول فقط إنه رجل؛ هذا ما علَّمها إياه، علَّمها أن تتحدَّث بالكُليات. ولأنه مختلف في حسِّه ووعيه وروحه، أصبح لا يرى معها الفُروقات التي تُزعج الآخرين وتستفزهم وتُخيفهم من الغرباء؛ فهو يرى إنسانيَّة الإنسان قبل لون بشرته وانتماءاته بخيرها وشرها، كان متحررًا حتى من نفسه.

كثيرًا ما كان يُرمى –في بعض النقاشات الجادة والمزاح السخيف– بتهمة الانتماء إلى المجموعة التي استباحت الجنوب وسبَّبت البؤس. كون المرء لطيفًا لا يمحو تاريخًا من القهر تسبَّب فيه قومُه، سيظل مدرجًا في قائمة الجُناة بحكم هُويته، على الرغم من الحقيقة الساطعة التي تقول إنه شخصيًّا لم يرتكب جُرمًا بحق إنسان، سواء في الجنوب أو في أي مكان من هذا العالم. كل ما يريده هو أن يعيش حياة مليئة بالحياة؛ حياةً ممتدَّة مشبَّعةً بالتجارب الجميلة والمريعة معًا، حياةً صادقة.

لكن إلى أي حدٍّ كان صادقًا؟ تُرى هل تعرف أسرتُه في الخرطوم أن لديه ابنةً في الجنوب؟ وهل هناك صورة لسلام وأمها في ألبومهم؟ وهل أخبر بناته الأخريات أن لهم أختًا؟ وهل أخبر بيتر تحديدًا أن له أختًا؟

لم تدرِ روزا كيف تسلَّحت بكل ذاك اليقين في أنه هو الشخص الذي تريد أن تُكمل معه المسيرة منذ لقائهما الأول في تلك القرية النائية ولم يفترقا إلا ليلتقيا مرة أخرى بطُرق يمكن وصفها بالتهور؛

واجها معًا لحظات حاسمة كادت تودي بحياتهما، لكن كُتبت لهما النجاة معًا.

ساعدها عبد السلام لتعود للحياة مرة أخرى بعدما عاشت حالة من التأرجح بين الأرملة وبين المطلقة، انجذبت إليه على نحو لا يمكن مقاومته، وانتشرت الشائعات والنميمة بين الناس. كانت هناك حينئذ بوادر حرب مشفوعة بحملات كراهية لكل ما يُمثل الشمال، علاقة مثل تلك تُعد جريئة وجارحة في زمن سياسي ملتهب؛ حتى إنه نجا من محاولات اغتيال عدة، ودفعه ذلك ليقلِّص تجارته عائدًا إلى الشمال، ولكنه لم يكن وحده، كان يُمسك بيده صبيًّا أغرَّ مرتبكًا وخجولًا، هو ابنها بيتر الذي لم تَرَه بعد ذلك قط، ولكنها أوصَتْه بأن يبحث عن أبيه.

حين أوصته دامعةً على ابنها، قال في حزم: إن بيتر ابنه من تلك اللحظة وسيتحمل مسؤوليته كاملة؛ إذا نجح فسيفرح به، وإذا أساء الأدب فسيضربه، وإذا مات فسيكون هناك مأتمٌ في قلبه إلى الأبد. لن يتعامل معه على أنه وصيَّة أو أمانة، بل سيعامله مثل الابن وأكثر، وهذا ما يشعر به في قرار قلبه، يشعر أن ما يربط بينهما أقوى من الدم، هو تآلف الأرواح وسط كل الدسائس والضغائن والدماء المتدفِّقة بينهما منذ عشرات السنين.

وبعد أن وعدها بأن يجد مكانًا آمنًا للجميع، عاجَلَته متشكِّكة بعد خطبته الطويلة:

– إذنْ فقد حانت لحظة الفراق، أليس كذلك؟

ضيَّقَ عينَيه وعَلَت نبرة حزمٍ صوته:

– الموت وحده هو الذي يفرقنا يا روزا، الموت وحده.

أخذ يهزها من كتفَيها:

– اتفقنا؟

نظر عميقًا في عينَيها دون أن يستطيع اختراق جدار اليأس والقلق الذي أحاطت نفسها به؛ لهذا السبب كانت تُردِّد لابنتها سلام منذ أن انقطعت أخباره بعد سنوات طويلة من الانتظار: «أبوكِ ليس بخير»، وتتنهَّد كأنها تطرد مخاوفها التي تقول إنها فقدته للأبد! حتى جاءهم الخبر اليقين؛ لقد مات بعد رحلة طويلة مع المرض، أُصيب بجلطة دماغية أقعدته وأفقدته القدرة على النطق والحركة، بسبب بعض الخسائر التجارية، وسرقة ابن أخيه إياه بعد أن وثق به ثقة عمياء، لكنه غدر به واختلس كثيرًا، ولم يحتمل عبد السلام ذلك.

عندما سمعت روزا هذا الخبر أنَّتْ كأنها وحشٌ وقع في فخ. لم يكن عبد السلام بالنسبة إليها مجرد زوج، لقد تمرحلَت تلك العلاقة ومرَّت بكل أنواع الصِّلات؛ في البدء كان غريبًا، ثم صديقًا يسمعها ويدعمها ويبحث معها عن أخبار زوجها الغائب، ثم صار حبيبًا، وأخيرًا أصبح مصيرًا! لقد كان همزة الوصل بينها هي وابنها بعد أن سلَّمته له دون تردُّد، كأنما كانت تضعه في القارب الوحيد خوفًا عليه من أجواء غير مبشِّرة، آملةً أن يجد حظًّا أفضل ويحظى بمستقبل مختلف. كان عبد السلام يأتيها بأخبار ابنها بين حين وحين؛ كيف حاله وماذا يفعل وأين وصل، وكان يضع في حِجرها صُورًا شمعيَّة له.

اندفعت الذكريات والمشاعر خارجةً منها لتعبّر عن نفسها دون مواراة، تبكي تارةً في حضن ابنتها الصغيرة، وتارةً تحتضنها وهي تندب أباها وتشتكي مصيرهما ووَحدتهما هكذا بلا سند. كانت تسهر بعض الليالي حتى الصباح تهمس في الظلام تتكلم مع الرب، لم تكن صلاةً، وإنما حديثٌ انتفت فيه المسافةُ بين العبد وربِّه، تشكو حينًا وتغضب حينًا؛ حتى ظنَّت سلام أن أمَّها فقدت عقلها من الحزن على موت زوجها وضياع ابنها.

إن فَقْد سلام لأبيها لم يرتقِ لمستوى الفاجعة بالنسبة إليها؛ هناك دائمًا ذاك الفراغ الذي تركه غيابُه الطويل. في صغرها كانت تنساه ببساطة، حتى يأتي في العام الذي يَليه محمَّلًا بالهدايا، ويتعارفان من جديد، ثم تمضي العلاقةُ في تطوُّرها بين طفلة لاهية وأبٍ مؤقَّت.. يلتقيان كلَّ عام كأنهما غريبان تصادَفَا لأول مرة على متن قطار؛ تبدأ علاقتهما كيفما اتَّفق، بأحاديث عامَّة وعابرة، ولا تفتأ هذه العلاقة تتعمَّق حتى تنتهي بتبادل العناوين، ثم ينسى كلٌّ منهما الآخر إلى حين مصادفة أخرى قريبةً أو بعيدة.

هذا الأبُ بالنسبة إليها كائنٌ ضبابي، يحمل كل خواص الغيمة، يملأ الذاكرة كالبخار دون شكل أو حدث واضح، ثم تتَّضح الرؤية شيئًا فشيئًا؛ تتذكَّر جلوسهم في فناء بيتهم الصغير الكائن وسط مزارع البن، يُشعل أبوها النار من الأعواد الجافة ويشرع في شواء أكواز الذرة الشاميَّة، يحكي قصصًا عن أسفاره وتجارته وذكرياته، ويتضاحك مع روزا تحت نجوم تتلصَّص عليهما من خلف سحب تزحف متكاسلة على جدار السمَّاء، وضوءٍ بعيد لبدر أخذ في الأفول.

هذا المكان المليء بأريج نبتة الشاي يعُدُّه قطعةً من الجنة؛ مكان هو نفسه لا يدري كيف عثر عليه، بعيدٌ عن ضجيج المدن ورقابة الحكومات الجائعة والمجتمعات المريضة بالفضول والتطفُّل على حياة الآخرين، مكانٌ للحياة والأُنس وحرث الأرض.

حرص على أن يحمل سلام بين يدَيه؛ يُقبِّلها وهي شبه صلعاء ويتحمَّل وخز شعرها النامي بعناد كالإبر على شفتَيه. هي لا تحبُّ غيابه، تتمنَّى لو يبقى لتهنأ بحضنه ويُلقِّمها حبات الذرة الشاميَّة، يغمرها بحبٍّ لا يشبه حُبَّ أمها التي تقسو أحيانًا، يُغرقها ويعوِّضها عن غيابه بحنان يكفيها زمنًا طويلًا إذا اضطرَّ للغياب، غياب قد يدوم عامًا، أو ربما للأبد..

حضوره يملأ البيت أمانًا، ويُشعرها أن هناك شخصًا يُشبهها، بلون بشرته وكثافة حاجبَيه، وبشَعره المنسدل الذي بدأ ينحسر عن منتصف رأسه. تناديه: «بابا»، وتلعب معه، وتحاول تقليد اللهجة التي يتحدَّث بها، وهو يُجاريها في ذلك. تشتاق إليه عندما يغيب ساعاتٍ منشغلًا في بعض أعمال التجارة والزراعة، حتى يرحل فجأةً وتبدأ رحلة انتظاره مرةً أخرى، تلك الرحلة التي تنزوي فيها ملامحُه وتزول من ذاكرتها، كدُخان يتناثر بفعل الريح ويتلاشى!

هو أيضًا لم يستطع التصالح مع نسيانها إياه؛ تستقبله كغريبٍ في كل مرة بعد عودته، كان هذا هو السبب الذي دفعه لاصطحابهما إلى استوديو المدينة لأخذ صورةٍ عائلية، تلك الصورة التي جاءت محمرَّة كالغسق، الصورة الوحيدة لهم، الأولى والأخيرة؛ كانت ترتدي ثيابًا ملونةً وتبدو السعادة على وجهها وهي تتأرجح بين ذراعَيه، والأمُّ

تظهر مبتسمة في اطمئنان.. بقيت الصورة معهم، لكنه اختفى للأبد، وترمَّلت أمها مرة أخرى. أما سلام؛ فظلَّت تترقَّب عودته كل تلك السنين، عساه يدخل فجأة محمَّلًا بالهدايا والقبلات ورأسه مشغول بالمهامّ والحكايات.

لم تعُد سلام تحتمل أن تعيش سِرًّا جاهد الأب في كتمه، على الأقل لا بد أن تعرف الجزء الآخر من حياتها؛ حينما أكلت الحربُ الجنوبَ بطيئًا وسمَّمت الأجواء بالعنصرية والكراهية في كل أجزاء البلاد، حينما عادت الكلمات القاتلة تملأ الشوارع، وأضحت قَسَماتُها ولونها وشعرها تشكِّل تهديدًا مباشرًا لحياتها إذا ما قرَّر معتوهٌ بأنها ابنة الأعداء! فضَّلت الرحيل هذه المرة شمالًا؛ بحثًا عن النصف الآخر من أُسرتها، وسعيًا وراء مَن يمكن أن يكون على دراية بسِرِّها.

انتهى بها الأمر جالسةً في طائرة مُؤنٍ حربيَّة تابعة للجيش، مليئة بالمصابين والجرحى والمرضى وبعض المتاع، طائرةٌ تبدو مستهلكةً أكثر من اللازم، أسلاكٌ ملوَّنة تتدلَّى داخلها، مُعدَّات حربيَّة وطبيَّة مكدَّسة عديمة النفع، تبدو أنها في رحلةٍ للإصلاح والصيانة، كجهاز الإرسال اللا سلكي ذاك الذي رأت مثله في الأفلام، والمصابيح المطفأة التي تتوزَّع في بطن الطائرة كأنها أعين موتى.

طائرة خالية من المقاعد، تهتزُّ بشدة عند مرورها بالمطبَّات الهوائية، وبها سيدةٌ نحيفة تملأ جسدَها ندوبٌ جلدية مستديرة ودقيقة، تنتشر حول جلدها كلِّه ما عدا محجرَي عينَيها، عرفت سلام أنها من قبيلة النُّوير التي تتزيَّن بنتف الجلد بخُطَّاف. لم تصمُت تلك

المرأة لحظةً واحدة؛ ظلَّت تصرخ وتنوح بلغتها طَوال مدَّة اهتزاز الطائرة، فإذا استقرَّت كانت تغرق في الضحك، وتنتشر عدوى الضحك منها إلى الركاب جميعًا، حتى بعض الجنود الجرحى كانت تهربُ منهم ابتسامةٌ باهتة!

وفي لحظةٍ ما، داهمَت هذه السيدةَ نوبةُ قيء مفاجئة! لا شك أن وجود كيس القيء في تلك الطائرة المتهالكة نوعٌ من الرفاهية عسيرة المنال، لا سيما والطائرة نفسها على وشك أن تتقيَّأ رُكابَها إلى الخارج! هُرعت سلام إليها، عالجتها بحُقنة تهدِّئ معدتها، وأسندتها لتغيِّر ملابسها، فعلت ذلك بتلقائية مَن لا يُشكِّل العريُ له مسألةً أخلاقية، نزعت ملابسها، فبرزت العظامُ مباشرةً تحت طبقة الجلد الرقيقة التي تكسوها النُّدوب، وبرز ثديان فارغان مجعَّدان يُشبهان باذنجانتَين منكمشتَين.

عادت سلام لرعاية بعض الجرحى من الجنود؛ كانوا بائسين مُطرقي الرؤوس كأنهم زُجُّوا في هذه الحرب بالقوة، خليطًا بين جنوبيِّين وشماليِّين يكسوهم جميعًا شعورٌ بالخزي والعار، يئنُّون مهزومين مِن حركةٍ ثوريَّة وليدة، بعض كوادرها كانوا زملاءهم في المنظومة العسكرية الوطنية ذاتها. أما الحكومة فكانت تبثُّ للشعب أخبارًا عن انتصاراتٍ وشيكة واقتراب تحرير المدن والقرى الجنوبية من أيدي المتمردين؛ إنه محضُ حديثٍ للحفاظ على الروح المعنوية عاليةً، ولكن أولئك الذين يخوضون الحرب أكثرُ معرفةً بالحقيقة؛ هذه الحرب ليست كالسابقة، إنها شرسة وتتحقَّق فيها انتصاراتٌ متتالية، وتتَّجه شمالًا بخُطى واسعة وثابتة.

وفي خضم هذه الأحداث، قرَّرت سلام الرحيل شمالًا! أخبرت أمَّها بقرارها، لم تتفاجأ روزا، كانت تعلم في قرارة نفسها أن هذا اليوم سيأتي؛ أنْ تسعى سلام للبحث عن عائلتها وتقتفي أثر أبيها، لذلك لم تعترض.

تركت سلام أمَّها تخطو نحو شيخوختها بوقار وشجاعة نادرة، وهي مُحاطة بأقارب نزحوا من القُرى البعيدة التي قهرتها الحربُ وسادَها الجوعُ. كانت سعيدة على الرغم من عبء الضيوف، كأنَّ ثمة تعويضًا يحدث على نحوٍ ما لتلك الروابط الأسرية، التي هربَت منها من قبلُ لتحميَ ابنتها. هي الآن مستعدةٌ لتُسامح في كل شيء؛ الشتائم المسيئة واتِّهاماتهم لها بالعُهر، جميعهم الآن لديهم ما يهدِّدهم وعليهم حماية أنفسهم بالتعاضد، لذا ستنسى كل ذلك، خاصة بعد إظهارهم محبةً خالصة لابنتها في شبابها، لدرجة أنهم أذلُّوا أنفسهم لها كأنهم يسألونها العفوَ عن كل ما بدر منهم في الماضي ومن أطفالهم المتنمِّرين.

لقد أصبح هذا كله من الماضي الآن، الماضي الذي لا يزال يغرز مُديته في قلب سلام وذاكرتها. ها هي الآن في الشمال أخيرًا، تطأ قدماها مدينة الخرطوم؛ تسلَّلت إلى الشارع بحَذَر في أثناء انشغال الجميع، أخرجت خريطتها وبدأت البحث، حاولت أن تقرأ أسماء الأحياء والشوارع المكتوبة بأحرفٍ إنجليزية، نطقتها بطريقة كسيحة، وانتهى بها الحال إلى طلب سيارة أجرة.

كان السائق رجلًا كهلًا نحيل الجسم، ابيضَّت كلُّ شعرة فيه، ولكنه احتفظ بعينَين متَّقدتَين وروح مرحة رغم الملمَّات. أخذ يُثرثر كثيرًا بعد أن عرف أنها قادمة من الجنوب، تحمَّس وحدَّثها عن أن له أبناء أخ هناك لا يزالون في الجنوب، وأنهم كبِروا الآن ولا بد أنهم أصبحوا رجالًا ونساءً، لكنه للأسف لا يعرف عنهم شيئًا. همست لنفسها:

– أف! يبدو أن هذا سيتكرَّر كثيرًا على نحو ممل هكذا!

استمرَّ يُثرثر بمحاولات مُضحكة محاوِلًا التكلُّم بلهجة أهل الجنوب، ثم يقفز لنطق كلمات شائعة من عدة لغات محلية، مثل: تشباك- بوقن- مونق- سامبالا- سلام تاكي.. يستعرض معرفته بالجنوب، في حين تختلس نظراتٍ إليه في المرآة الأمامية، وهي تفكِّر بعمق في مصير رحلتها هذه، مُضمِرةً حقدًا دفينًا لهذا الرجل، تراه سعيدًا لأنه يطفو على السطح، وليس عليه خوض معارك لنفي هُويةٍ ما أو إثباتها لصالح حربٍ تحرق الجميع.

ها هي سلام تبدأ مرحلة جديدة من حياتها؛ لا تعرف هل ستكون أفضل من سابقتها أم لا. كلُّ ما تعرفه أنها على استعداد للبوح والمواجهة، وليحدث ما يحدث بعد ذلك!

لم تعد تحتمل حبس كل تلك الأسرار في قلبها، لقد وصلت حدَّ الانفجار الآن، كسَدٍّ بدأ ينهار تحت ضغط مياه مندفعة، فليحدثْ ذلك أولًا ثم لِتتصالح مع الجميع؛ ستسامح أمَّها لمحدوديتها ومحاولاتها اليائسة لحمايتها، ذلك الأمر الذي وسَّع الهُوة أكثر بينها والآخرين، وعمَّق فيها الإحساس بأنها ليست إلا مصدرًا للمشكلات، وهو ما

دفع أمها لابتداع فكرة حلق شَعرها لتُشبِه بقية الأطفال ذوي الشَّعر القصير المجعَّد. ستُسامح أيضًا أباها الذي غاب للأبد، فحوَّلها إلى سرٍّ تتنظره هو نفسه ليكشف عنه الغطاءَ ويواجه به العالم.

لا تدري كيف سيكون رد فعل بقية عائلتها، أبوها هو الأقرب إليها، وهي تعرفه على الأقل، لكن كيف سيتعامل الباقون معها؟

وقفت سيارة الأجرة أمام بيتٍ تظلِّله شجرةٌ كبيرة؛ يبدو أنه فعلًا (بيت الشجرة) كما عرفت من الوافدين، كانوا هنا وعادوا جنوبًا، تنفَّست الصُّعَداء، أخيرًا ستتوقَّف الثرثرة!

ساعدها السائق الكهل في إنزال حقيبتها وهمَّ بالعودة، لكنها أوقفته قائلة:

– أمشي فتش عيال أخو تاكي..

حملق السائق فيها، تجاهلَتْه وجرجرت حقيبتها مُبتعدةً وتلك الضفيرة السميكة تتأرجح خلفها كبندول الساعة القديمة.

ها هي تحكي حكايتها على مسامع ماركو ولوسي؛ طفولتَها الغريبة، دراستَها الجامعية في جامعة مرموقة في يوغندا، تلك الدراسة التي كان أبوها سببًا مباشرًا فيها، فقد كانت لديه رغبةٌ في أن تدرس سلام وتتعلَّم، وشدَّد على أمها بألَّا تتهاون أبدًا في أمر تعليمها، تاركًا لها موردًا أعادت الأم استثماره لتؤمِّن لهما حياة آمنة دون زعازع؛ هي تلك المزرعة فوق الهضبة الشاسعة المتاخمة للحدود، والتي تمتدُّ فوقها حقول الشاي والبن، ومحلاتٌ تجارية موزَّعة في عدد من المدن الرئيسة. ولكنَّ الحرب أكلت كلَّ شيء الآن وأصابت الحيَّ بالركود.

تتحدث سلام السواحلية، بالإضافة لمجموعة من اللغات المحلية المعرَّضة للانقراض، كانت ستبقى في يوغندا للأبد لولا جُموح حاكمهم المعتوه، الذي حوَّل البلاد إلى جحيم؛ تناحُرٍ دائم بين المكوِّنات الاجتماعية، وإبادات بالجملة، وزرعِ كراهيةِ الأجانب في النفوس، وتصفية المنافسين له، كان سفاحًا بكَل ما تعنيه الكلمة.

الآن تُواجِه سلام هواجسها وأسئلتها الدائمة عن بيتر وأخواتها، عسى أن تحصل على بعض الأجوبة. لوسي وماركو حاولا طمأنتها بأنَّ الأمور ستتحسَّن، طالما أن لديها أختًا مثل جلاء.

الفصل الرَّابع

جلاء

كانت جلاء تدهن شَعر أمها الثمانينيَّة بلطف؛ شعر طويل قاسٍ وفي كامل بياضه، مشَّطته حتى نهايته وختمته بضفيرة سميكة أسفل ظهرها. لطالما احتلَّ شَعرها مواضيع حديث النساء في المناسبات؛ بسبب طوله اللافت، فيسألونها عن الزيوت التي تستخدمها حتى يصير بهذا الطول.

لقد كبرَتْ أمها كثيرًا ولم تعد تهتمُّ بنفسها أو تدرك ما حولها، ولا تتحرك حتى حركة بسيطة، ما لم تقذفها ذاكرتها إلى زمان عُنفوانها، فتتحوَّل حينئذٍ إلى شخص آخر تمامًا ممتلئة بالحياة، لكنْ دون ذلك تظل في حالة من الذهول والشلل التام. تستعين جلاء بكرسي متحرك لتحملها إلى الحمام، انسكابُ الماء على جلدها المجعد يُبهجها، تفركها جلاء بالماء والصابون وتدلِّك كل أجزاء جسمها لتُعيد للدم جريانه، ثم تجفِّفها وتُلبسها مريلة نظيفة وبيضاء غالبًا، وتنقلها بالكرسي من الحمام الداخلي إلى فراشها لمواصلة التدليك بالزيوت العطرية المستخلصة من الأعشاب الطبية.

تبقى الأم في حالة صمت مطبِق مرسلةً نظراتٍ غير مبالية، عيناها نافذتان زجاجيتان تُطلّان على عالَم لم تعُد جزءًا منه؛ لا تسمعه ولا تتفاعل معه. تنوء تحت عمر الثمانين ونيِّف قضَتْه في خدمة أسرتها بكل تفانٍ، ومع ذلك ظلَّ وجهها بلا تجاعيد، ماذا يعني أن يكبر المرء دون أن تغزو التجاعيد ملامحه؟! فوزية منذ عنفوانها كانت امرأةً تكبح جسدها وتقمع عضلات وجهها عن التعبير، حتى عطَّلَتها تمامًا؛ فلم تكشِّر عند الغضب ولم ترفع حاجبَيها عند الدهشة، ولم تقطِّب جبينها عند الضيق ولم تبتسم عند الرضا، ولم تبكِ حتى في المُلمَّات؛ فشاخت دون تجاعيد، وأصبح وجهها لا يخبر عن الحياة الطويلة التي عاشتها، بحيلةٍ نادرة خزَّنت كل ما خبرَتْه في قلبها وعقلها، فأصبحا مثقلَين بالأسرار والفواجع، ولمحاتٍ من الفرح.

إذا تألَّمت تأكل نفسها من الداخل، وإذا فرحت استمتعَت بذلك وحدها داخل أسوار ذاتها؛ فعاشت بلا خطوطٍ دقيقة ولا أخاديد، سوى شلُوخِها* الغائرة الستة المحفورة على خدودها، لكن دون ذلك احتفظت فوزية ببشرة وجه مشدودة وخدود ملساء كثمار مليئة بالعُصارة، وفم صغير بشفاه مكتنزة، زاد الوشم من قتامة لونها ولمعة طبقة من الدهن فوقها، كأنها بانتظار قُبلة لن تأتي أبدًا.

---

* الشلوخ: عادة سودانية قديمة تُجرى للفتاة للدخول إلى مرحلة النضج وفقًا للمعايير الاجتماعية السائدة حينها، وهي جروح تُرسم في الخدود على جانبَي الوجه أو على الصدغ (طولية أو عرضية). تاريخيًّا، انفرد السودانيُّون بعادة الشلوخ، وتختلف هذه العادة من قبيلة لأخرى، فيما توجد نفس هذه الشلوخ في جنوب السودان، لكنها تُوضع في الغالب في الجبهة.

الشيء الوحيد الذي يربطها بالواقع هي تلك التحديقة الغاضبة التي تُشهرها عندما تنزعج من أمرٍ ما، كأنما تُمارس صرامتها الأمومية دائمًا، على الرغم من أنها اكتسبت هيئةً جنائزيةً بامتياز؛ بسبب الشيب الذي احتلَّ شَعرها وابيضاض الشراشف التي تتدثَّر بها منذ وفاة زوجها، كانت أقرب لجثة ترنو إلى قبر!

كرَّست جلاء نفسها للاعتناء بها، تعلم أنها تخبّئ الخبل خلف هذا الصمت الفولاذي، الذي لا تُفتح أبوابُه إلا عندما يداهمها الأرق، في بعض الليالي تَنشط ذاكرتُها وتقتات على هذه الذكريات طوال ساعات السهر الطويلة؛ تتسلى بالهذيان، تستحضر الأحداث الماضية، تُردِّد أسماء أناسٍ يتراءَون لها، تصف الروائح والألوان، وتذكر في أُنسٍ مقتطفاتٍ من الحكي الذي لا ينضب.

تراقب جلاء شيخوختها بصبر وتأمُّل، استطاعت أن تحوِّل مهمة الرعاية تلك إلى آلية حماية تقيها الإحباطات الكثيرة التي ألـمَّت بها على مستوى عملها وأنشطتها، منذ أن قرَّرت اعتزال العمل السياسي بعد أعوام من مقاومة الديكتاتورية العسكرية والدفاع عن المستضعفات.

خمد كل ذلك العنفوان، وهدأت فورة تلك الثورة، والطاقةُ التي بعثرَتها في الأسفار المكوكية خارج البلاد وداخلها، الاجتماعاتُ الطويلة غير المعقولة، الاستشارات غير المنتهية لتكوين النقابات، تنظيم التظاهرات، الدفاع عن المحتجزين تعسفيًّا، كتابة تقارير انتهاكات حقوق الإنسان.. كل ذلك انطفأ أخيرًا بفعل الغضب المحيط بها.

لقد رأت بعينَيها لعنةَ ما بعد الثورة؛ ببساطة تبخَّرت كلُّ الأحلام وسارت الأمور نحو الأسوأ، ظل سمُّ الدكتاتورية يسري في الأوصال والأفكار وعصب البلاد، تمامًا كما يفعل سمُّ الأفاعي بالجسد، وعرَفت أن سقوط الأنظمة الشمولية ليس النهاية، وإنما هو مجرَّد بداية، وأن ترسيخ الديموقراطية في دولة لم تَختبرها من قبلُ أشبهُ بنقل الماء في إناء مثقوب لمسافات طويلة؛ جهدٌ كبير مُهدَر بسبب عدم الدراية ونفاد الصبر.

اختفت مظاهر الوحدة الخادعة التي ربطت الجميع في أثناء انتفاضة 6 إبريل في منتصف الثمانينيات، أي قبل عامين ونصف، عاد الشعب إلى البيوت بعد تكوين المجلس الانتقالي العسكري الذي وعد بتسليم السلطة للشعب بعد عام واحد، على أن تسبق ذلك انتخاباتٌ حُرة، وهذا ما حدث؛ تكتَّلت الأحزاب، وبعد فوز أكبر حزبَين تقليديَّين في البلاد، أراد كلٌّ منهما إدارة دفَّة الحكم حسَب ما تقتضيه آيديولوجيته الحزبية لا المصلحة الوطنية؛ فكادت البلاد تتمزَّق من شدة التجاذب والتنازع في أمور مصيرية، مثل الحرب والدستور. حتى إن أحد الحزبَين الحاكمَين نشِطَ وانخرط في عمليات تفاوض لجلب السلام، في حين كان الآخر يطير إلى البلاد المجاورة بحثًا عن الدعم الحربي؛ لخوض الحرب وإخماد التمرُّد الذي اندلع في الجنوب عسكريًّا.

لم تنجُ النقابات من هذه الانتكاسات، تنازعَت القياداتُ، وأُبعد كثيرون خارج اللُّعبة بتُهَم التخوين، وكانت جلاء وزوجها حسن عباس مِن هؤلاء الضحايا، عندما حاولا نقد الحزب الذي

ينتميان إليه نقدًا ذاتيًا، اتُّهما بالخيانة وفُصلا دون تردُّد؛ كُتب في محاضر الاجتماعات أن حسن عباس عميلٌ لدولة رأسمالية، وجلاء ليست إلا برجوازية تنتمي لأسرة ظلَّت حتى وقتٍ قريب تمارس تجارة العبيد، حتى إن والدَها كان يضع استثماراته تحت خدمة الدكتاتورية، وإلا فكيف فُتحت لهم أبواب الكنوز وأصبحت استثماراتُهم منتشرةً في كل بُقعة، لولا هذه المعاشرة غير الشرعية بين رأس المال والديكتاتورية؟ قرأتْ ذلك في مقالٍ لشخص كانت تعده صديقًا، فتمزَّق قلبها أشلاءً.

لم يحتمل حسن عباس توجيه فُوَّهة البندقية إلى صدره، ضرب بكل شيء عرض الحائط وعاد إلى عادته القديمة مُعلمًا متجولًا في أنحاء البلاد، تاركًا المدينة البائسة تتمرَّغ في خُبثها.

وفضَّلت جلاء الصمت؛ أعادت السيف إلى غمده بعد عددٍ من المقالات الدفاعية، فإن محاربة الرفاق للمرء أشرسُ من محاربة الأعداء؛ لأنهم يعرف بعضهم أسرارَ بعض، وبإمكانهم تحريف هذه الأسرار وإدخال الأسرة كلها في صراع لا طائل من ورائه. آثرَت الصمتَ والاعتكاف لرعاية أمِّها العجوز، تاركةً خلفها ساحة المعركة ضاجَّة بعداوة رفاق الأمس، قاطعَت الجميع وأبقَت على المقرَّبين جدًّا من الأصدقاء، ولكنها استمرت في توفير استشاراتٍ قانونية لصغار المحامين والمتدربين.

لم يكن لها صلةٌ بالعالم إلا هذه الصحف التي تراكمَت تراكمًا ملحوظًا فوق المناضد، تحمل كلها أخبار انهيار الأوضاع تمامًا بعد اشتعال حرب ضروس في الجنوب. من الواضح أن ذلك كان فشلًا

واضحًا لأول حكومة ديموقراطية بعد ستة عشر عامًا من الشمولية، والظاهر للعيان أيضًا أن وحش الحكومة القديمة قد استعاد أذرعه وأصبحت مجسَّاتُه جاهزةً للانقضاض مرة أخرى على فترة الديموقراطية، التي تترنَّح كغزالٍ وليدٍ يحاول الوقوف بأرجل واهنة، في حين انشغل قادة الثورة بمصالحهم الخاصة وإشعال صراعات مع إخوة الخندق الواحد.

أغلقت الأمُّ الهَرِمة على نفسها بحرص، بفم مُطبَق وأطرافٍ أصابها الصمم، نادرًا ما تفتح لها منفذًا للحوار إلا إذا قرَّرَت ذلك، فأصبح التواصل معها ضربًا من المستحيل، كأنها مخزنٌ قديم يُفتح من الداخل فقط، أما دون ذلك فلا تجد منها إلَّا نظرةً محذِّرةً ومهدِّدةً بالضرب!

تنتابها نوباتُ أَرَق من حين إلى آخر، تسمعها تتحدَّث مع أشخاص يتجوَّلون في ذاكرتها، تلك الذاكرة التي تتلاعب بها كالكرة؛ كلَّ يوم تأخذها إلى زمان ومكانٍ ما، لا تستدلُّ جلاء على ذلك إلا بالأسماء التي تُطلقها لأناسٍ أو أماكن أو مواقف. أحداث مختلفة في عقلها؛ بعضُها أفراح تُضيء وجهَها فتشعُّ طاقتها وتضحك من بطنها كرضيع، وبعضها فاجعاتٌ تُغرِقها في وجوم مُسدِلةً الأجفان ليوم أو يزيد. هذه الحالة تُبقي جلاء غارقةً في ٱلتفكير والتحليل الدائم لفهم احتياجاتها على الرغم من جدار الصمت الفولاذي ذاك!

لم تَعُد الأم هنا على أي حال، وبينما لا يسير بنا الزمن إلا نحو الأمام، كانت الأمُّ كمَن استقلَّ قطارًا مخصَّصًا للعودة إلى محطَّات الماضي، ولم تنسَ أن تأخذ معها أحبابها وأعداءها وكلَّ ما واجهته

في الحياة من حلو ومر؛ لتبدأ رحلتها في الاتجاه المعاكس لجَرَيان الزمن.

تأمُّلات جلاء قادتها إلى ما يُشبه المتاهة، فسَّرت الأمر في دخيلة نفسها كأن روحَ أمِّها تعيش في عالم الذكريات؛ كأنها قطة عمياء محبوسة في منزل كبير وبه عددٌ غير محدود من الغُرَف، قطةٌ تتلمَّس خُطواتها الدقيقة الناعمة داخل هذا البيت المهجور، تدخله غرفةً غرفةً وتستدل على ما فيه بما تسمعه من أصوات أو تشمه من روائح، حتى طاب لها البقاء هناك في زمان ومكان وبين أناسٍ عَرَفتهم من قبلُ، فصارت تعيش سعيدةً بهذا السجن الاختياري.

تفكَّر جلاء في عُزلتها الاختيارية أيضًا، ولكن بشفقةٍ على ذاتها! أحيانًا تتخيَّل حوارًا داخليًّا محتواه أن لأمِّها عالـمًا تقضي فيه ما تبقَّى من عمرها، أما هي فشعورُها بالخواء يتغلغل فيها حتى النخاع، كلُّ ما تهتمُّ به أخذ يتداعى أمام عينَيها قطعةً قطعة، كانت كقبطانٍ يُراقب سفينته وهي تغرق بطيئًل تحت ثقل تجاويفها التي تختنق بالماء. كل تلك العلاقات التي أنشأتها وأحاطتها بالرعاية -التي تشوَّهت بالخذلان والغضب وسوء النوايا- لم تبذُل الجهد للتمسُّك بها، وقفَت بعيدًا وتركتها تتهدَّم كقصرٍ من الرمال.

ها هي وأمها الهَرِمة يسكنان في بيت كبير خلا من غيرهما، يسكنه الصمتُ مثلما يسكنهما، بيت عجوز هو الآخر، أثبتَ لها أن البيوت أيضًا تشيخُ وتُصيبها السكتة، كيف لا وقد أكلَتْه الوحدة ونخرت جدرانه الوحشة، يحنُّ مثلهما لجلبة السكان وأحاديثهم، والهمسات التي كانت تَحكي سرًّا أو تبثُّ نجوى، أين ذهب الجميع؟ كان

هذا البيت ضاجًّا بالأولاد والأحفاد، وحافلًا بالشجارات، وأحقاد إسماعيل، ورقَّة بيتر وغموضه، وظلِّ أبٍ رؤوف، وأمٍّ تُسيطر على الجميع بتحديقةٍ حادَّة فحسب.

عودة حسن عباس من أسفاره كانت تُعَد من سوانح البهجة الوحيدة، بَقِيا يحبُّ كلٌّ منهما الآخر على الرغم من مرور تلك السنوات، حبًّا مدعومًا بتفاهُم على أرضية صلبة ومنبسطة من الحرية والعفوية. يعود وفي جعبته قصصٌ وأخبار عنِ الأماكن التي نزل أو مرَّ بها، وغالبًا لا تخلو تلك الحكاياتُ من الطَّرَف. يُؤنِس أمسياتها الموحشة بعد غياب الجميع، كانت ترى البلاد الشاسعة بعينَيه هو، كان رسولَها الذي يأتيها بالأنباء من أراضي وقُرًى لم تطأها بقدمَيها، فتُغرم بالجمال الكائن حيثما حلَّ وكيفما شاء لها الله، وأحيانًا تُصاب بالدهشة تمامًا كطفلٍ يشاهد السيرك لأول مرة.

لكنَّ حسن عباس سرعان ما يُقرر الرحيل مرة أخرى، تحاول استبقاءه بذرائع عديدة، لكنه يُقنعها بطريقته التي لا تخلو من منطق صحيح؛ يقول إن الناس في الأصقاع في حاجة لكثير، وتسليحُهم بالوعي هو أقل شيء يمكن أن نقدمه لأبنائهم حتى يمتلكوا صوتًا يساعدهم على استرداد حقوقهم. يقول إنه لا يفعل شيئًا خارقًا؛ إنه يحاكي الطبيعة فحسب! يتخيَّل نفسه شجرة أو حشرة أو ريحًا، يحمل الطلع إلى أقصى ما يستطيع؛ عسى أن يصادف أرضًا وماءً فينمو؛ يستغلُّ مهنة التعليم ليوفر لتلك العقول الصغيرة بعض ما يساعدهم غدًا على الاستمرار.

لكنه في الأساس لا يحب المدن، يقول إنها مصطنعة وكلُّ مَن فيها يحاول نزع جلده وارتداء خِرَق المدينة، التي مهما أذعنتَ لها ولبَّت احتياجاتها ستظلُّ متطلِّبة إلى الأبد؛ لا تحتويك، وفي الوقت نفسه تُفسد عليك عودتك إلى مسقط رأسك، تحوِّلك إلى غريب فيها وغريبٍ في مسقط رأسك؛ ولذا فهو يهرب منها بالعمل والنضال.

تحسَّرت جلاء:

- ضيعتَ عمرك في النضال بلا فائدة، والآن ماذا يا حسن؟! وإلى متى؟!

شردَ بذهنه يقلِّب سؤالها اليائس، متأملًا عصفورًا صغيرًا ينقر ثمرةً جافة باجتهاد وإصرار، ظلت نظراته مثبَّتة على العصفور لمعرفة نهاية هذا العراك المضني:

- حتى تعود لنا بلادُنا التي نعرفها في القصائد.

عندما انتهى من جملته، كان العصفور قد فلق الثمرة التي كانت خاويةً من الداخل، فطار فورًا، تتبَّعه حسن بنظراته وهو يرفرف مبتعدًا تاركًا الخيبة وراءه، ظهر شبح ابتسامة مريرة على وجهه كأنه تلقَّى إشارةً غير سارَّة! أطرق برأسه مفكِّرًا فيما انتهت إليه آمال العصفور؛ الأمر يشبه تمامًا تنقيبَه في أمرٍ مجهول العواقب، ولكنه لم ييئس قطُّ على الرغم من الخيبات والحزن الذي يلفُّ كل شيء بالعتمة.

قد يكون لفصل الشتاء أثرٌ كبير في جعل كل هذا مُبالَغًا فيه؛ فعودتُه إلى الخرطوم مرتبطة بالبحث عن الدفء والأمان عند رفيقة عمره جلاء، ولكنه لم يستطع في هذه المرة مشاركتها كلَّ همومه، أو حتى تلك المخاوف التي تملأ خياله من هول ما رأى.

لاحظَت جلاء اختفاء مَرَحه المعتاد، وركونَه إلى الصمت، وأنه إذا تحدَّث كان يردِّد كوارث إنسانية مثل العوز والجوع والحرب، هذه الأمور التي احتلَّت ببطء كلَّ بيت وكلَّ معدة.

اعتاد التجوُّل في الخرطوم؛ يُطيل مشاويره ليهرب من عينَي جلاء وأسئلتها القَلِقة، وليُبدِّد كذلك توقعاتِه التي تُنذر بالفواجع، كأنه يُلزم نفسه بوطء أراضي المدن الثلاث التي يفصل بينها رافدا النيل، والتي تنام كلُّ مدينة منها على ضفَّة من الضِّفاف وترتبط معًا بجسور عتيقة، وتنغلق على نفسها لتكوِّن مدينة الخرطوم في النهاية، في حين تمتدُّ كلٌّ منها في سهل حتى الأفُق؛ يتخيلها من السماء كأنها صغارٌ ثلاثة يمسك كلٌّ منهم يدَ الآخر ويلعبون لُعبةً تتطلَّب الاتصال.

تستلقي الخرطوم بمُدُنها الثلاث هكذا بدلالٍ بين ذراعَي النيل؛ تلك الذراع البيضاء المتَّسِعة الهادئة، وتلك الزرقاء الثائرة التي حفرت مسارها بعُنف لدرجة انتفاء الشَّطِّ وتكوُّن الجُرُوف الخطرة. تستلقي كأنها امرأة في تمام أنوثتها؛ سهلة حينًا ومتعكِّرة في أحيانٍ أخرى، يضمُّ النيلُ خصرها كعاشقٍ هائم، ثم يُفلتها على حين غِرة متدفِّقًا يحمل الرزق والأمن والحبَّ بكرم لا ينضب. يودِّع الخُرطوم في رحلته الأبدية إلى أقصى الشمال، يعبرُ الوادي الخصب بالخضرة والحكايات وأسرار التاريخ، مُثقَل بحضارات موغلة في القدم، ويعلن في أقصى الشمال انتهاء رحلته الطويلة بطرح عذوبته في ملح المتوسط.

تلك الجولة الصباحية في أنحاء الخرطوم لم تُفلح من تخفيف تَعاسته هذه المرَّة، وظلَّت عينَا جلاء تُراقبان غمَّه عن كثب، تحاول استدراجه ليُبادلها الحديث؛ تسأله عما وجد في تَجواله الصباحي

في المدينة وهل هناك جديد، يُجيب بإطلاق زفرةٍ أولًا، ثم يُحدّثها عن البؤس؛ يحدّثها عن أن الخرطوم مدينة تمشي عكس التطوُّر الطبيعي للزمن، تتخلَّف كلَّ يوم أكثر، يُذكّرها كيف كانت تعجُّ بكل سمات المدن الحديثة وتُنافسها في التحضُّر، حتى تراجعت فيها عوامل النظافة والنظام فامتلأت بالأوساخ والفوضى على نحوٍ لا تُخطئه عين. يرى سمًّا يسري بطيئًا ليَخنقها، إنها تحمل عارًا لا تغسله كل تلك الأنهار التي تشقُّها؛ فهي خُرطوم الثورات المجهضة، والحكومات الفاشلة المنكفئة على ذاتها، بها صُروح التعليم التي تخرَّج فيها الانتهازيُّون طالبو السُّلطة، والمتطرّفون، والحكام، والمثقَّفون البائسون، والحالمون...

تزدحم فيها دورُ الثقافة الضاجَّة بالمنتديات والحفلات، ومنابر الشِّعر، والعُروض التشكيلية والمسرحية، كل هذا الخليط في مثلثٍ واحد، ولكنَّها تبدو صامدةً وهي تتلقَّى الصفعات! يَدِبُّ فيها اليوم كلُّ المحرومين، الذين أفقرتهم بخطف ثورتهم وابتلاعها في كرشها الكبير، يهيم في أرجائها كلُّ مَن أقلقَت مضجعَه بالقذائف بحثًا عن أبنائها المتمردين؛ فلا هي شَبِعت وتطوَّرت، ولا هي تركَتهم وشأنهم. لقد جاؤوا من كل فجٍّ يطرقون أبوابها بحثًا عن رغد مكذوب، نزحوا نحوها لأسباب عديدة؛ على رأسها الحرب، والتصحُّر، والجوع، والبحث عن الفرص.. أُجبِروا على ترك قُراهم، الآن يَهيمون دون وِجهة ويسكنون بُيوت الكرتون والصفيح.

أصبحت الخرطوم حُلمًا يُراود الجميع، ووِجهةً يقصدونها؛ أصبحت خرطوم الأحلام التي يركض في جنباتها وأسواقها مئاتُ الزُّرَّاع وعمال السكك الحديدية المفصولون تعسفيًّا، ليتحولوا من مُنتجين إلى سماسرة بالسوق السوداء؛ بحثًا عن مصادر رزق جديدة في بحر شوارعها الممتدة وأسواقها الكبيرة ومحطاتها الضاجَّة. يبيعون كل شيء للمارَّة؛ حتى المياه وعيدان السواك والمنتجات الصينية الرخيصة، بعد أن أُغلِقت المشاريع العظيمة بأمرٍ من الدولة المجنونة التي تُشرِّد من يحرث أراضيها ويُحرِّك ماكيناتها!

ران صمتٌ طويل بينهما، كلٌّ منهما يلوك ما يعرفه عن واقع البلاد بمرارة، لكسر الرتابة اتَّجه حسن إلى غرفة الحاجة فوزية، هي الأخرى في حاجة لِمَن يُؤنسها. سحب كرسيًّا وجلس قريبًا من مرقدها، رمقَتْه كأنها تسأله عن ما يريد، ابتسم في وجهها:

- شلوخكِ جميلة.

أشاحت بوجهها، ثم مدَّت أصابع مرتجفةً نحو وجهها، تحسَّست تلك الأخاديد التي تشقُّ خُدودَها الناعمة فبدَت مثل أرض حُرثت بمجرفة. ردَّت بوَهَن:

- صحيح؟!

ردَّ بفرح كالممتنِّ لهذه الاستجابة السريعة:

- نعم؛ جميلة جدًّا! هلَّا حكيتِ لي عن يوم حصولكِ عليها!

أبعدَت يدَها عن وجهها وشردت بذهنها بعيدًا. ظلَّ حسن منتظِرًا؛ عسى أن تحكي شيئًا أو أن تنام على الأقل، ولكنها لم تنطق بكلمة،

حتى يئس وذهب إلى غرفته. تركَها في شرودها بعد سؤاله ذاك، نظراتها مثبَّتة على السقف، وعلمَت جلاء أن ثمَّ نوبةَ أرق قادمة!

في منتصف الليل بدأت تَهذِي، خاضت حوارات مع نسوة غير مرئيات، كأن هناك احتفاءً بشيء ما في قريتها البعيدة الرابضة على الضِّفاف، نبراتُ صوتها حَشْرجها طولُ الصمت وقلة النوم، ولكن ملامحها تُوحي بحماس، حماس مشوبٍ بخوف؛ شيء ما مُخيفٌ سيحدث، وهي مع ذلك تتمنَّاه بكل قلبها!

ومن حواراتها مع شخصيات ذاك الزمان والمكان المتخيَّل، استنتجَت جلاء وحسن أنها عادت بذاكرتها إلى يوم طقوس التشليخ. جلسا بصمت يستمعان؛ كانت تحكي بنبضٍ حيّ كلَّ ما حدث في ذاك اليوم البعيد، خاطبَت حسن باسم زوجها عبدِ السلام، وإذا التفتَت نحو جلاء تناديها بـأمي.

بدأَتْ بوصف تلك السيدة الثخينة الجسد، العامرة الصدر والأرداف، ذات العينَين الواسعتَين اللتَين برز بياضُهما أكثر خلف بَشَرتها الداكنة، وصفَتْها على الرغم من ضبابيَّة الرؤية وصعوبة التقاط الأنفاس، في هذا الجوِّ المعتَّق بروائح العطور التقليدية ودُخان البخور وحبَّات القهوة التي تُحمَّص على الجمر.

كانت الرضيَّة سيدةً تنتشي بمظهر الدم! تُدعى عندما تحين الولادة؛ هي التي تمزِّق سِتار المهبل مُوصِلةً إياه بالشرج حتى يخرج الطفل، ثم تُعيد خياطة اللحم بحشره خلف الجلد، تمامًا مثلما تفعل بالوسائد القديمة التي يتفتَّق منها القُطن، وتترك فقط فتحةً صغيرة لِتعيش المرأةُ مرحلة عُذرية جديدة؛ فتمرُّ من جديدٍ بمراحل الإيلاج

الموجعة ذاتها، لكنَّ آلام تمزُّقِها من جديد تُشعرها بالرضا التام، كأنما تقول لها إن زوجها لن يفكِّر في أنثى أخرى.

والرضيَّة هي أيضًا التي تختن البنات لحماية شرفهنَّ، وهي التي تُزيّنهنَّ وتجعلهنَّ أكثر جمالًا ليجذبن الخُطَّاب من كل حدب وصوب. وعندما تأتي الرضيَّة لمناسبة كهذه، فهذا يعني أنها دُفع لها كثير؛ ابتداءً بالمال، وانتهاءً بأكياس المحاصيل الكبيرة من تمور وقمح، ومُؤَن أخرى كالسكَّر والملح والصابون وعُلب السجائر، فضلًا عن إناث البهائم.

كان والد فوزية شخصًا ذا مكانة في القرية وميسور الحال، فقرَّر أن يُسعد ابنته بأن تُشلَّخ على يد أمهر النساء في القرية، وكان له ذلك.

النساء والبنات اللائي خضن التجربة قبلها يحكين اللحظات المؤلمة والأيام الأكثر إيلامًا التي تلتها، في حين كنَّ يُمسِّدنَ شُلوخهنَّ العريضة بغنج فتيات حسناوات، في إشارة للنتائج المذهلة التي حصلنَ عليها. تطرق تلك القصص أذنَيها كأنها تُحكى الآن.

لم تكن فوزية تسمع جلبة النساء والفتيات اللائي جئنَ لدعمها وتشجيعها لئلَّا تجزع في أثناء تغلغُل الموس في لحم وجهها ذهابًا وإيابًا؛ ركَّزت كلَّ حواسها مع حركات وسكنات الرضيَّة، التي انشغلت بترتيب أدواتها، ترصُّها واحدةً واحدةً على الخرقة: الأمواس، ونقيع الشاش في المحلبية*، والعطرون**، والقطن، وعِدَّة خرق. جاءت

---

* زيت عطري.

** بيكاربونات الصوديوم، ولكن على هيئة حجرية.

سيدةٌ تحمل لها كيس العصارة المرارية* الذي نُزِع توًّا من كبد خروف ذُبح أمام الباب، وضعَته بحرصٍ إلى جانب أشيائها المميتة.

لم تَعُد فوزية تشتمُّ الروائح العطرية التي تملأ الأجواء، وإنما تستنشق أنفاس الرضيَّة مباشرةً، كان الهواء مخنوقًا بأنفاسها المخلوطة برائحة التبغ وعبق عرقها الممزوج برائحة المحلب** والمسك.

لا تنظر الرضيَّة إلى الضحية التي ترتعد فرائسُها وهي تُراقِب كل تلك الأشياء كأنها مُذنِب محكوم عليه بالإعدام وعلى وشك اعتلاء المقصلة، بل تكون راسخةً على الرغم من حضور الموت نفسه! الرضيَّة هي جرَّاح القرية، متخصِّصة في أجساد النساء، تُمزِّع زوائد اللحم حسب الطلب؛ من الوجه أو من بين الفخذَين، لتحقيق الأنوثة الكاملة! كانت تَنزِع الأنسجة دون أن يطرف لها جَفن؛ تُوقِف النزيف بخِرَق ماصَّة كأنها تُجفِّف عرقًا، وتعقِّم الجروح ببول البهائم.

قالت بعد قرصة خفيفة في نهدها المتكوِّر النافر، وبابتسامة فيها كثير من الحزم؛ حَزم مَن تعوَّد على المجازر:

- اقتربي يا جميلة.

سحبَتْها تحتها بقوَّة هائلة سحبةً جعلتها تركن كأرنب بين مخالب وحش، ارتجَّت تحت جسدها الهائل محشورةً بين فَخذَيها الممتلئتَين معطِّلةً كلَّ عضلة فيها، ما عدا قلبها الذي كان ينتفض في جزع. بنظرةٍ منها أصدرت الرضيَّة أمرًا لمساعِداتها المنيعات اللائي جَثَونَ خلف فوزية، ثبَّتنَ يدَيها للخلف ورأسها للأعلى وهي تزدرد

---

* العصارة المرارية الخاصة بالخروف، تُستخدم مادةً مطهِّرة.

** حبوب عطرية.

ريقها، وفي لحظةٍ كانت بلا حول ولا قوة كحال بهيمةٍ ساعة الذَّبح. النساء اللائي مرَرنَ بهذه الآلام من قبل يُطمئنَّها بثقلهنَّ لتثبيتها، كأنها في أنفاق لا نهائية من الألم وهنَّ يدفعنَها للمرور بها كلِّها.

تمنَّت أن ترى أمَّها بينهنَّ ليطمئنَّ قلبها، ولكنَّ الأم اختفت! عرفَت فيما بعد أنها هربَت بعيدًا تتجوَّل دامعة بين النخيل الذي ينوء تحت ثقل التَّمر، تلمس جُذوعَه طالبةً منه تخفيف الألم تأسِّيًا بما فعلته نخلة السيدة مريم في أثناء مخاضها.

دارت عينا فوزية باتجاه الموس الذي بيد الرضيَّة، قبل أن تُنزل نصلها مباشرة على الخد الأيمن، النصل الحادُّ يغوص في لحمها، أطلقَت كلُّ خلية صرختَها، كانت أقصى أمانيها أن تموت فورًا؛ أن يُقيم الله الساعة في الحال من أجلها، ويقذف بتلك النسوة في الدرك الأسفل من الجحيم! أما الرضيَّة فلا تعبأ بشيء، كانت في تلك اللحظة لها كلمتُها وفِعلُها وعُبَّادها وجحيم يخصُّها وحدها، واصلَت تُمزِّق الخدود بيدٍ ثابتة، كطفلٍ يرسم بالفحم على جدران الطين!

خطَت فوزية الخُطوة الأولى؛ صار وجهها ملتهبًا من الألم، وأسنانها محمرَّةً بلون الدم الذي شربته، حتى إن بعضه كان ينزلق إلى أمعائها عندما تصرخ، فأخرسَت الرضيَّة صوتَها بحشر إحدى خرقها الماصَّة في فمها.

الخطوة الثانية كانت الأسوأ، أعادت الموس إلى الجرح المفتوح سلفًا، تَحفر طبقات اللحم لمستويات تعرفها جيدًا، كانت تُوسِّعها من هنا وتعمِّقها أكثر من هناك، كما يفعل حفَّار القبور بالأرض. بعدها حشت مجاري اللحم بقِطع من القطن شُكِّلت على هيئة

أصابع نحيلة ونُقِعت في مزيج القطران والحلبة، هذه القطع تُبدَّل كلَّ يومَين؛ تُنتزع فينزف الجرح من جديد، في معركة متجدِّدة غير محتملة تمنع التئام طرفَي كلِّ جرح بشكل طبيعي. هذا العذاب في النهاية سينتهي بنُدوب جميلة تُظهر بهاءَ الوجه، كما كان يُعتَقد.

وهكذا.. كان كلُّ شلخ من تلك الشلوخ يُساوي دهرًا من الألم البالغ أقصاه، ستة شلوخ بستة دهور من الوجع الأبدي.

وبعدها حرَّرتها النسوة نازفةً دمًا ودموعًا وقطرانًا، فاقدةً الإحساس بمفاصلها بعد تداخل أطرافها بعضها في بعض، الألم الذي ينبض في وجهها يُخبرها بأن الرضيَّة سلخَت لحم وجهها حتى العظم!

فقدت القدرة على البكاء؛ فحتى الدمع نفسه لم يكن رحيمًا بها، بل كان يُصبُّ لهيبه المالح على الجرح فيكتمل جحيمُها! كانت تسمع أغاني البنات تنساب إليها من الراكوبة الخلفية وهنَّ يضربنَ على الدلوكة* ويُطلقن الزغاريد ويُصفِّقن مَرِحاتٍ.

ها هنا غنَّت فوزية بصوت عذبٍ فاجأ جلاء وحسن، رفعت أكفَّها وصفَّقت بوهن، في حين أخذ جلد ذراعيها المترهِّل يهتزُّ في تعرُّجاته:

جمالك كيف أحيا بلاهو

الشليخ خدك جلاهو

في خديدك ما احلاهو

فؤادي الشوق عماهو

---

* آلة إيقاعية في السودان، تُشبه الطبل، يَشيع استخدامها بين النساء.

واصلت غناءها عشر دقائق كاملةً ودموعُها تنهمر على صدغَيها، ثم تنهَّدت:

- قلبي أبى الأغنية دي من الزمن داك.

وسكتت هنيهةً، ثم اهتاجت فجأةً وأخذت تنتحب بوَهنٍ مرة أخرى، وجرت دموعٌ غزيرة من عينَيها لتختفي وراء أذنيها؛ كانت تلك الذكرى فتيلًا حارقًا ظل يُسرِّب الألم في دواخلها دون توقُّف، حتى غلبها النومُ عند الفجر.

في الصباح تفاجأت جلاء بخدود فوزية متورِّمة ووجهها منتفخ كبدرٍ اكتمل توًّا، وترتجف من الحُمَّى؛ طلبت الطبيب فورًا لمعاينتها، فأحال الأمر إلى وجود تحسُّس من شيء ما؛ وصف لها علاجًا وطلب من جلاء المراقبة اللصيقة للمريضة وألَّا تتردَّد في طلبه مرة أخرى إذا ساءت الحالة. أدخل ذلك الفزعَ في قلب جلاء، وتساءلت كيف لذكرى عابرة أن تتجسَّد هكذا تاركةً آثارها في الجسد والروح على هذا النحو! إنه أمر رهيب..

ولكن بعد ثلاثة أيام عاد وجهُها كما كان، وعلى الرغم من سكون هيئتها للناظر، كانت الذكريات الشرسة المتجدِّدة تمورُ في أعماقها تجدِّد كل شيء فيها، حتى شلوخها اكتسبت لونًا غامقًا لامعًا.

واستمرَّت على هذه الحال، أخذت ذكريات الأم هذه تزداد قوةً وتمثيلًا واقعيًّا على نحو مخيف؛ فهي تعود إلى الماضي بكل جوارحها، تنزف أحيانًا وتدرُّ الحليبَ أحيانًا أخرى، وتتعرَّق وتكتسب طاقات جبَّارة؛ حتى إنها كانت تقفز من فراشها وتتجوَّل ليلًا في البيت كعهدها عندما كانت ربَّة منزل نشيطة!

أغرق هذا الأمر جلاء في حيرة؛ فلم تعُد تعرف الحدود ما بين الواقع وحالات ذُهان أمها، لأول مرة تُواجه ذاكرةً تتمظهر بهذه الصورة السحرية؛ واختارت جلاء أن تأخذ موقف المراقب، ولكن كثيرًا ما جرَّتها أمُّها لتلعب دورًا متخيلًا، تُمسك كلٌّ واحدة منهما يدَ الأخرى وتمشيان في دهاليز الماضي، تقبل الدور المفروض عليها بكل رحابة صدر؛ تارةً صديقة وتارةً جارة، وأخرى أم، وهكذا...

أصبحت فوزية في نوبات أرقها تتحوَّل إلى إحدى سيداتٍ كان لهنَّ عميقُ الأثر في حياتها، وبعد حادثة انتفاخ وجهها بسبب اهتياج ذكرى التشليخ، لم يجرؤ حسن على طرح أي نوع من الأسئلة؛ خوفًا من عودة الحياة إلى تلك الندوب، فتتفتَّح في شكل جروح جديدة. تركوها كيفما اتَّفق لها أن تكون، لم يعرفوا قطُّ كيف يَنسِج عقلُها خيوط الماضي ليُسدل هذا الستار الثقيل على الحاضر.

أصبحت رعاية الأم عالم جلاء الجديد، غرقت فيه تمامًا، حتى إنها نسيَت ما قاسته من وراء السياسة وإحباطات ما بعد الثورة وخذلان رفاق العمل العام المشترك، حتى بيتر الذي كانت مشغولةً بمعرفة أخباره، سقط كما سقط ماركو وأولاده من قائمة الاهتمامات، ولكنها كانت تعود لنفسها عندما تصلُها رسالةٌ من بيتر؛ فتلقِي رسالة منه يُشبه المغامرة، تظل تفكِّر في الكيفية التي وصلَت بها الرسالة دون أن تجد ردًّا يُشبع فضولها، تمامًا كما حدث في ذلك اليوم...

سمعت طرقًا مدوِّيًا على الباب، اعتقدت أنه بائع الحليب، وعندما فتحته لم تجد أحدًا، بل وجدت رسالة محشورة في تجويف مقبض الباب. خطفَت الرسالة وهي تتلفَّت يمنة ويسرة، من الصعب

أن يُرسل بيتر رسالةً عبر القنوات الرسمية؛ فهو المصنَّف على أنه خائن للوطن بعدما ترك كل شيء وانضمَّ للثورة المسلحة في الغابات البعيدة بعمق الجنوب، باحثًا عن العدالة لبني جلدته.

كان ظاهرُ الرسالة مدوَّنًا عليه عبارة «إلى جلاء»، قرأت العبارة وهي على الدَّرَج في طريقها لغرفتها، ثم دخلت الغرفة وفضَّت الرسالة بلهفة، وأخذت تقرأ:

العزيزة جلاء،

سلامي للجميع.

لا أدري لماذا أُصرُّ على أن أكتب إليكِ في هذه الظروف القاسية التي نمرُّ بها جميعًا..

أريد إعلامكِ بأنني أصبحتُ في الجبهة؛ أحمل السلاح وأقاتل جنبًا إلى جنب مع ثوَّار آخرين وجنود غير مدرَّبين جيدًا، ليس لديهم إلا الإيمان القوي بالقضية التي نحارب من أجلها. لقد اختار كثير من الشباب أن ينضمَّ للقتال، على الرغم من أنهم لم يكونوا قادرين حتى على تثبيت أقدامهم في الأرض عندما يطلقون رصاصة من فُوهة بنادقهم!

أكتب إليكِ ليس من أجل أخبار الغابة، ولكن أحيانًا أحتاج إلى التواصل معكِ لأن ذلك يُعيدني إلى نفسي.

كثيرًا ما أشكو من اختلاط الأمور لديَّ؛ أشعر بذاتي الحقيقية متقوقعةً في مكان ما، تختبئ مني ولا أجدها، لقد تغيَّرتُ كثيرًا،

أصبحتُ أكره، بل أحتاج إلى الكراهية؛ إنها وقودٌ جيِّد للحرب، وإلا فكيف سنستمرُّ؟ قد نتساءل أحيانًا: ما الذي يجعل شخصًا يخوض حربًا؟ الشجاعة وحدها لا تكفي لخوض أي حرب، ولا هذه الشعارات النبيلة المرفوعة، ولكنَّ الكراهية تُفيد كثيرًا في هذه الأحوال.

أحيانًا يملؤني الشكُّ وأحنُّ إلى كل ما بيننا وما بيني وبين زملاء كُثر يُقاتلون الآن في الجانب الآخر، وفي هذه اللحظات فقط أشعر بأنني أريد أن أُطلِق رصاصةً على صدغي وأُنهي الحرب التي أخوضها بداخلي.

لقد قلتُ إنني بحاجة إلى الكراهية، أُضرم نارَها في قلبي باستحضار كل ما يساعد على ذلك؛ فأرى حقيقة البؤس الذي نعيشه. لو كنتِ مكاني، لقاتلتِ حتى الرمق الأخير من أجل عدالةٍ ما.

من اللحظات النادرة التي أشعر فيها بأنني صادقٌ مع نفسي ومتوازن، هي اللحظة التي أكتب فيها إليكِ. لا أريد أن أسألكِ عن حال الثورة، فمِن غابتنا هذه نعلم أن الأمور سارت نحو الأسوأ. أتمنى أن تكوني اطَّلعتِ على بياننا، صدِّقيني لقد سُرقت الثورة، لقد وصلنا أيضًا سوءُ الظن الذي فُسِّر به بيانُنا، لن يصغِيَ لنا أحدٌ في هذه الأحوال؛ فنحن أعداء!

هل تظنّين أن الوقت قد فات على العودة للشارع واقتلاع الثورة من براثن هؤلاء المنتفعين؟ لا أدري لماذا أشعر بأننا نُهدِر فرصةً لن تتكرَّر بسهولة، وهذه الحرب ستكون طويلة وسيُحرَق كلُّ شيء، نحن عازمون على الانتصار بالسلاح، هذه هي اللغة الوحيدة التي تعرفها حكوماتُ المركز.

لا أريد أن أُخيفكِ ولا أن أُحبطكِ، ولكن الثورة سُرقت، والذين عُزلوا بالانتفاضة لا يزالون يُديرون دفَّة الأمور، والحكومةُ للأسف تستعين بهم للقضاء على ثورتنا.

على أي حال، سيطول الأمر...

كيف حال الإخوة والأم وحسن؟ ألا يزال يأمل في تغيير ما؟ أخبريه أن ينضم إلينا في الغابة؛ فنحن نحتاج إلى شخص مثله وأفكارًا مثل أفكاره.

تحية خاصة لصديقي ماركو وأسرته.

مع حبي واحترامي.

المخلص بيتر.

مكتبة ياسمين
telegram @
yasmeenbook

الفصل الخامس

ماركو

يدخل ماركو بيته عبر بابه المشرع دومًا، بعد يوم عمل طويل. يخطو حذِرًا.. في الحقيقة يقفز حذِرًا حسب الفراغات الظاهرة كرُقعات على الأرض، المشغول أغلبها بالمقاعد أو المفارش لاستيعاب كل تلك الأنفس النازحة. يخشى أن يطأ قدمًا أو يدًا ممدودةً في المكان. هذا غير الأحذية القديمة المبعثرة على امتداد الحوش، المخيطة بالأسلاك والحبال والمسامير بشكل مأساوي. حتى الممرات الملتوية الفارغة يَحبُو فيها الرُّضَّع مثل الجراء، مستغرقين في اللعب على التراب.

وقف هنيهة فوق الجموع، رافعًا يدَيه في الهواء، ملقيًا التحية، ثم انحنى فوق المرضى وكبار السن واحدًا واحدًا ليطمئنَّ على أحوالهم. هرع شابٌّ يقدم إليه كرسيًّا ليجلس. وهرولتْ صبيةٌ بكُوز ماء غرفته سريعًا من الأزيار الندية الضخمة المدفونة في الأرض. جثت على ركبتَيها لتقدم إليه الماء باحترام كالعادة، فأُحرج؛ فلقد نسي هذه العادات، كما أن لوسي لم تعد تُمارسها أو تفرضها على بناتها.

لقد تحول ماركو ذاك الوسيم المليء بالحياة إلى ما يشبه الخيالات المنصوبة وسط الحقول لإبعاد الطيور. قميصه معلق على كتفَين متهدلتَين. بنطاله مثبت بحزام قديم على خصر ناحل. بشرته شاحبة كمريض يتعافى. تناقصت كثافة شَعره المجعد، وبدأ الشيب يكتسحه. واحتل الغم عينَيه الضاحكتَين. انزوت ضحكاته المرحة المجلجلة مع أخبار الموت القادمة من الجنوب. تلك الأخبار المشؤومة الواصلة مع موجات النزوح الكبيرة المتدفقة نحو الشمال بسبب الحرب.

وبعد تجرعه الماء البارد، وجد أكثر من يد نحيلة تمدُ إليه رزمة من الرسائل، فتحها رسالة تلو أخرى بقلب منقبضٍ. يعلم تمامًا فحواها. أغلب الرسائل مؤرخة بتواريخ مر عليها وقتٌ طويل، يعود تاريخ بعضها إلى قبل عام كامل. وعندما انتهي من قراءتها، كان كمَن فتح قبرًا جماعيًّا؛ لمعرفة هوية الجثامين التي فيها وأسباب موتها الفظيعة. مات فلان بلغم، وأخرى تعسرت في الولادة فماتت وجنينها، وآخر كان مختفيًا ثم تأكد اغتياله بعد ظهور شاهد. رسالة تتحدث عن خبر انتحار بالشنق، واكتُشفت الجثة المتدلية من السقف بعد أيام، مسترشدين بطنين الذباب.

يلي تلك القراءة عويل النسوة؛ كل حسب قرابتها ومعرفتها بالمتوفى. بعدها يعلنون عن مأتم متواضع لأشخاص ماتوا قبل أشهر أو عام أو أكثر، يبكون بعد أن تحللت جثثهم، أو ربما أكلتهم الضواري في الغابات الموحشة. تتعدد أسباب الموت: حينًا بالرصاص والقذائف الجوية، وحينًا آخر بالأمراض أو الاختفاء،

وهناك أُسر تفرَّقت وضاع أفرادها عن بعضهم في الغابات المظلمة، يموتُ الراشدون بالأسى والأحزان التي تتراكم بعضها فوق بعض، ويموت الصغار جوعًا ومن صدمات العنف المتكرر والخوف.

***

يتكدَّس بيت ماركو عن آخره بأناسٍ يعرفُ بعضَهم، ولا يتذكر بعضَهم الآخر، أغلبهم معارف معارفه. ببساطةٍ فكل مَن يتحدث لهجته المحلية فهو قريب بحكم اللسان، وكل جنوبي هو قريب بحكم الأرض وعواقب الحرب الدائرة هناك. الحرب التي زلزلتهم من مسقط رأسهم في القرى البعيدة فاتخذوا منزله ملجأ، كل يوم يستقبل لاجئين جددًا، أصبح بيته منارة لهؤلاء البائسين، كأنهم يناجون بعضهم بإشارات غامضة يجذبون بها آخرين.

لقد اعتاد رؤية هؤلاء النسوة المتشحات بالسواد، تُزين أعناقهن عقود من السكسك الأسود حدادًا على الموتى والمفقودين، متقرفصات على التراب أو مُستلقيات على مفارش أرضية اتقاءَ لسعات النمل. أما الرِّجال؛ فيتجوَّلون كالظلال دون إبداء اهتمام بأي شيء. والشباب يقتلون الوقت بلعب الدومينو والليدو في الشارع أمام الباب المشرع، مستظلين بالشجرة، الأمر الذي جعل البيت يتمدد متجاوزًا حدوده. ترتفع -في لعبهم الذي يقتل الوقت ويطرد الهم- صيحاتهم، متناسين أنهم الآن يبعدون آلاف الكيلو مترات عن قراهم النائية.

للمسنات حكاية أخرى، بأصابعهن الخشنة التي تشبه إلى حد ما الأغصان المحطمة، يملأن بواكير الأيام بالنواح والأغاني الشجية حزنًا على فقدان الأنفس والاغتراب، يتجمعن في أكثر الزوايا عتمة، متنحيات عن الحياة نفسها، كأنهن تُهيِّئن الجميع على الرحيل. وفي إهمال تام لمظاهر التمسك بالعيش، تلخصت حياتهن في الأكل والنوم وندب حظهن العاثر بالعيش حتى تلك اللحظة، وكان ذلك كافيًا ليصيبهم بالسأم.

أما الصغار؛ فيعيشون في عالمهم الذي يلهيهم عن كل شيء، ما عدا التركيز على احتياجاتهم، يدفعون أمامهم بطونًا منتفخة بالبراز والديدان واقفين على أقدام نحيلة مرتجفة، جائعين دائمًا، بعد النجاة من التخبطات والتوهان في أثناء الفرار من قصف الطائرات الحربية لقراهم. يأكلون أي شيء ناضجًا أو نيئًا، لينًا أو جافًا، وتمتلئ الأجواء ببكائهم وصراخهم، كانوا في حالة شجار دائم يخطفون الطعام من أيادي بعضهم البعض ومن الأواني قبل أن يضعوها أرضًا، ثم يتكالبون عليها كالدجاج، يثيرون أعصاب أمهاتهم المتعبة الغارقة في الحداد، فيفرغن كل ذلك بضرب الصغار طوال الوقت لأسباب جمة كشجاراتهم التي لا تنتهي، وأحيانًا ما يتفاجئن بتغوطهم وقوفًا كالبهائم، كل ذلك يُعالجنه باللكم والركل والبصق في الوجوه الصغيرة المتسخة بالمخاط والدموع.

أما المراهقون المزعجون؛ فيضحكون ويبكون دون أن يعرف أحد ما يحدث بينهم ولهم، منعزلين مثل جماعة متطرفة منغلقة على نفسها، يُقصون الصغار ولا يتداخلون مع الأكبر منهم سنًّا إلا في

إطار قضاء ما يُطلب منهم من مهام. يخوضون معارك تارة بالصمت والخصومات، وتارة بضرواة لدرجة استخدام العصي وقطع الحديد وكل ما يقع أمام أعينهم من أدوات قد تقتل أو تسبب جروحًا بليغة.

لبعضهم نشاط جنسي مبكر ومخيف، يتلاعبون بأعضائهم، ويُمارسون الجنس واقفين كالكلاب في أكثر المناطق سرية وظلمة؛ مخافة أعين الكبار، يحتكون ببعض في مراقدهم الأرضية الفسيحة الممتدة تحت الأسرة. ومن مخابئهم تلك كان الكل مكشوف إلاهم، في أغلب الأحيان يتسترون على بعضهم. يعلمون تمامًا أنهم يخرقون قواعد الأدب ويسيئون السلوك، لأن تواجدهم تحت سقف واحد يفرض عليهم التعامل مع بعضهم مثل إخوة، ويجب على الأخ ألَّا يفكر في جسد أخته، لأن ذلك سيجلب الشؤم، وقد تكون النتيجة ميلاد كائنات لا تمت للبشر بصلة كما هو معتقد، ثم يشرع ذاك الكائن مباشرة في التهام مرتكبي الخطيئة أي الأم والأب. لكن جموح الهرمونات وجنون الرغبة المتأججة والفراغ فرضت عليهم أمرها، فليس هناك ما يفعلونه في هذه الأرض الغريبة، لا رحلات صيد في الغابة، لا نهر قريب للسباحة، ولا ساحات مصارعة لتبديد تلك الطاقات، ولا ساحات رقص، ليس أمامهم سوى الاستسلام وتفريغ الحالة باللهو المحرَّم.

ظهرت بعض حالات السرقة، بدأت الأغراض في الاختفاء مثل الأدوات المدرسية، والملابس الداخلية وحتى الأواني. انزعج أبناء ماركو وكانوا في غاية الحنق، تائهين تمامًا في هذا الوضع الفوضوي.

جاء هؤلاء القرويون فحوَّلوا المكان إلى ما يشبه ميناء بحريًّا مزدحمًا مختنقًا بأناس شديدي الاختلاف والنزوات ومستثارين دائمًا، ينفجرون غضبًا وعنفًا لأتفه الأسباب، لكل قصته ومعاركه الخاصة في أثناء الفرار من أتون الحرب، هربوا بلا عتاد أو زاد إلَّا من ثرثرتهم وحزنهم الذي يتناسل كالفطر؛ بحثًا عن أمان يقيهم شرور الاقتتال ومكائده.

الوحيدة التي كانت بمزاج جيد هي لوسي، تبدو كمَن وجدت ضالتها، لقد جاءتها قريتها، هي النازحة منذ سنين عديدة تاركة القرية وراءها، لتحقق نبوءة أمها وتعويضها عن إخوتها الذين ماتوا صغارًا في مهدهم، بإنجابها أطفالًا كثيرين، لم يخمد حنينها للقرية قط إلى أن جاء أهلها إليها. فاح منهم عبير الغابات والأنهار الضحلة وضواري الدغل، سمعت من خلالهم الحكايات التي فاتتها، لمست فيهم الأمكنة والأزمنة التي هجرتها قبل أعوام، كل ما ينقصها الآن قبر أمها ولكم تخيلت أنه هنا، على هيئته الراسخة دومًا، صليب ضخم من الإسمنت يقبع في الباحة، وربما يصبح سطحه مرقدًا لأكثر من شخص.

عادت طلاقة لسانها للتحدث بلغتها التي خزنت حروفها في الذاكرة، فعادت تنثرها من جديد بعد أن أصبحت تتحدث العربية المكسرة مع جيرانها وحتى مع أبنائها، فقط كانت تتهامس مع ماركو بتلك اللغة، فازدهر كل ما يمت بصلة لثقافتها، وعاد إليها الاعتداد بما لديها، حتى جسدها تحدث بطريقة مختلفة، أكثر حرية في التعبير، ولا تخاف رقابة أحد.. تتحدث بصوت مجلجل كأهلها،

ولكم جلب حديثهم العالي التائهين الذين يهيمون في الشوارع، مسترشدين بالكلمات التي لا يخطئونها، فيطرقون الباب المشرع في وجوه التائهين: «سمعنا أشخاصًا هنا يتحدثون بلغة الاتوهو*»، «نعم. تفضلوا»، وهكذا يصبحون جزءًا من المكان. يحتويهم البيت برفق ويتسع لكل قادم جديد، هناك مساحة للنوم ولقمة يتقاسمونها فيما بينهم.

لوسي المبتهجة، فرضت لوائح جديدة على أبنائها، أمرتهم بالتحدث بلغة القبيلة كالجميع، العربية مع الغرباء وفي المدارس والشارع، فلا يليق التحدث بالعربية في البيت.

تتمنى لو يأكلون مثلهم مقرفصين على الأرض ويمشون مثلهم بنشاط يطأون التراب بخفة، يتمتعون بأبدان صلبة اختبرت المصائب والمهمات الصعبة منذ الطفولة الباكرة، أطراف صقلتها المسؤوليات الجسام والأعمال الشاقة. الآن لديها قبيلة كاملة، تساعدها لخوض حربها ضد تدجين أبنائها الذين وُلدوا بعيدًا عن القرية، ولم يُمارس عليهم طقوس الميلاد ودفن السُّرر كما يجب. تخاف دومًا أن يتحولوا إلى عرب، فيضيعون إلى الأبد في ثقافة الغير، فلا تدركهم أرواح الأسلاف لمباركتهم. تقول إن أطفالها يعيشون في خدعة كبيرة متخيلين أن هذه الأرض الغريبة موطنهم، ويثرثرون بلغة تؤثر في تفكيرهم وقيمهم، لقد لاحظت أنهم أحيانًا يسخرون من معتقداتها، ويهزأون من تفسيرها للأشياء، ويرفضون أكل بعض الأطعمة المعدَّة بطريقة تقليدية.

---

* لغة قبيلة في جنوب السودان.

عندما جاء قومها، تحولت إلى واحدة منهم، هكذا فجأةً، لدرجة أنها انتقمت من أطفالها وبدأت تستهزئ بهم. خاصة في محاولاتهم التحدث بلغتهم المنسية التي فرضتها الأم عليهم ليتحدثوا بها، فتخرج الكلمات ملتوية ومكسورة، تمامًا كحالها عندما تتحدث العربية، سرعان ما أصبحت موجة السخرية عامة في البيت، لقد وجد الوافدون ضالتهم، السخرية والتهكم كانت طريقتهم الوحيدة لإظهار تفوقهم، فهم يجيدون لغة القبيلة ومتمسكون بتقاليدها الراسخة، ومحميون من التحول إلى عرب.

كثيرًا ما حرضت لوسي الأطفال والمراهقين الوافدين لخوض عراك بالبدن مع أبنائها وبناتها لتختبر قوتهم، وقبل أن يجدوا مهربًا من المواجهة، تشرع بسرعة في إخلاء مساحة من الأحذية والرضع الزاحفين، وتنشئ حلبة للصراع في لمح البصر. تبدأ في التصفيق والصياح ويتحول بقية الجمع لجمهور متفرج. لسوء الحظ كانت دائمًا تشجع أطفال الآخرين، وتصيح بصوت عالٍ عندما يُهزموا هزيمة نكراء مخاطبة أهلها: «أرأيتم؟ لقد تحولوا إلى أناس ضعفاء وليس لهم سوى اللسان ورأس كبير يحفظ الدروس، يا لخسارة الإنجاب، لا أصدق أنني أخرجت هؤلاء (الغالا)* من رحمي! يا أبناء بطني! لو كانت هذه الحرب الدائرة الآن بالعضلات لهزمناهم من أول عام، فاستخدام الآلة القاتلة والطائرات القاذفة جعل أعداءنا أقوياء.. هذا كل ما في الأمر».

---

* غرباء.

بعدها يتحول الأمر برمته إلى مزاح وضحك جماعي، بينما يكبح المغلوب دموعه متسحبًا في حنق، ولكن في النهاية تبرز إحدى الأمهات مُطيِّبة خاطره ومنادية إياه بـ(أونغيري)* قائلة: «هذا مجرد لعب لتقوية الأبدان، سوف تنتصر في المرة القادمة على أخيك، لا تبكِ، الرجل لا يبكي في مثل هذه المواقف، تقبَّل الهزيمة بشرف». تمسح دموعه بكف خشنة، كان الأمر كشطًا على الوجه أكثر من أي شيء آخر، وتربت على رأسه بضربات صلبة أقرب للعقاب، ليس هناك مفر من قبول هذا الحنان العنيف، ناظرًا إلى أمه عسى أن تشعر بالذنب لما لحق به من إهانة، ولكنها تُشيح بوجهها، مواصلة تحسرها على أن أطفالها أقل شأنًا فيما يخص أمور القبيلة، وتتمنى لو أنجبتهم في الجنوب إذنْ لأصبحوا أقوياء في بدنهم ولسانهم، كانت هذه المقارنة قاسية على أطفالها طبعًا، ولكنها في الوقت ذاته كأنها تُعاقب نفسها على الهجرة المبكرة من قريتها بحثًا عن الأمن والحياة. فكان نتيجة ذلك أن أصبح أطفالها بنصف هوية.

بالنسبة لماركو؛ كان إطعام كل تلك الأنفس أمرًا في غاية الصعوبة. تطلب الأمر أن يجري بعض التقشف، كالتنازل عن بعض الأطعمة، وتقليل عدد الوجبات، وإلغاء كل أنواع اللحوم من أسماك ودجاج، ولم يعد بالإمكان شراء الفواكه، لأنها لن تكفي قياسًا لعدد الأطفال الكبير. لم يعد في الإمكان شراء هدايا وملابس الجديدة. وكل ما يجنيه ماركو من مال يُنفق لشراء فحم الوقود وشوال الذرة وأكياس البقوليات التي تُخزَّن في البيت في تنافس مُضنٍ مع غلاء الأسعار.

---

* شجاع.

حتى الذهاب إلى الكنيسة بشكل جماعي أصبح من المستحيلات، لأن ذلك يعني جر قبيلة كاملة من مظاليم الرب عبر الشوارع والمحطات لغزو المعبد. أصبح شبه مقتنع بحديث لوسي، التي قالت ذات يوم: «الصلاة لن تساعد كثيرًا في دنيا مليئة بالأشرار، ولوقف الشر نحتاج لِمَن هم أكثر شرًّا من الموجودين حاليًا ليسحقوهم سحقًا. الصلاة تنفع في أوقات السلم والرخاء، لأننا حينها مغمورون بنعم تستحق أن نشكر الرب عليها، أما الآن فماذا سنقول له؟ شكرًا لهذا البؤس؟»، وختمت ذلك عاقدة حاجبَيها بغضب. رمى ماركو نظراته في اتجاه آخر كأنه يقول: لمَ تسألينني أنا؟ ثم انسحبت عائدة إلى مجموعة النساء النائحات تاركة إياه مفزوعًا من صراحتها الوقحة بشأن شكر الرب، وشعورها اليائس. العيش بهذه الطريقة يضيف عليها عبئًا إضافيًّا وبذل كثير من الجهد لإبقاء الأمور تحت السيطرة. أفسحت بيتها وقلبها لضيوفها، وقسمت كل شيء بينها وبينهم، حتى لو لم تكن الأشياء كافية، ولكن في النهاية لن تترك أحدًا يموت من الجوع أو يهيم في الأرجاء وبيتها موجود، محاولةً إرضاءَهم حتى ولو كان في ذلك ضرر. ذات يوم طلبت من ماركو ألَّا يذهب أطفالهم إلى المدارس بعد الآن، فرد ماركو فاغرًا فاه: «ليه؟»، قالت وهي تضم يدَيها فوق بطنها الرخو المترهل وفي وجهها شعور بالذنب:

- كدي عاين جوة في عيون العيال التانين ديل، لما أولادنا يلبسو ماشين المدرسة الصباح، يا رب، قلبي قاعد يوجعني يا ماركو.

- قلبك ما يوجع يا لوسي، يا ريت لو كان عندنا قدرة نساعد أكتر من كدا.

حاول تهدئتها بأن ليس في وسعهم فعل شيء أكثر من ذلك، وكيف أن الأمر يفوق إمكانياته. فقالت إنها تعلم، ولكنها فقط لم تستطع تحمل الحسد من الصغار والكبار على السواء، تشعر أن بعضهم ينتمون إلى أُسرٍ اشتُهرت بالسحر، ولديهم تحديقة تقتل الفيلة، ثم ترسم صليبًا في الهواء وتتفل على الأرض عدد مرات ضاربة فخذها بكفها ضربات متتالية.

تظن لوسي أن ضيوفها يحسدونها، ربما لأنهم لم يتعرضوا مثلهم للحرق بالقنابل والقصف بطائرات تي يو22- كما قالوا، ثقافتهم الحربية تحيرها عندما ينطقون ببساطة بأسماء الأسلحة والطائرات الحربية التي قتلت البشر والشجر والحيوانات وشردت الأحياء منهم وحرقت قراهم.

يذكرها ماركو بقاعدة بسيطة، بأنهم هنا مَن يقدم المساعدة، وبالتالي لا يمكن أن يُصيبهم حاسد بسوء إذا وُجد. وقبل أن يكمل حديثه تهرول خارجةً عند سماعها جلبة في الحوش. تلك الشجارات المتكررة لا تنتهي. تظل لوسي في حالة تأهب دائم لفض النزاعات وتطييب الخواطر، وهي تدير مجموعة من الساخطين والحزانى وفاقدي الأمل. كثيرًا ما تنسى نفسها وأسرتها. لم يعد ماركو يراها سوى في حالة انشغال دائم، تتعرق كعامل منجم. تطبخ، تغسل، تنظف، ترتب، تفض النزاعات، وتنام واقفة كالأشجار.

يفكر ماركو كيف تحول بيته في أشهر قلائل إلى ملجأ لضحايا الحرب اللعينة. لا يستطيع الجزم أنهم جميعًا أقاربه، ولكنه ملاذهم الآن. تثقل هذه المسؤولية كاهله. يظل مهمومًا بتفاصيلهم من انبلاج الفجر حتى يجد كل منهم موضع رأسه في الليل. ما يزعجه حقًا هو انتفاء الخصوصية. الجميع يدخل إلى كل مكان دون استئذان، ويستلقي كيفما يشاء، فوق الأسرة وتحتها، مستظلين بالشجرة، مبعثرين في الساحة أمام الباب، وأحيانًا متعدين على مساحات الجيران في مطاردة محمومة للظلال التي تلقيها الجدران التي تقصر وتطول مع دوران الشمس. أسوأ الكوابيس هي الطوابير أمام المرحاض التقليدي المشغول على دومًا.

المخيف أن بعضهم أخذ يفرض سيطرته، لدرجة الجرأة لطرد البعض من البيت في خضم مشاجراتهم الدائمة على أسخف الأمور، كأن يصفونهم بالغرباء وأنهم لا يمتون بصلة قرابة لأهل البيت، وأنهم يسكنون (البلاد البعيدة)؛ كناية عن أنهم من قرى بعيدة متخلفة. ثم يطالبونهم بإثبات قرابتهم لماركو أو لوسي أو حتى بيتر وزوجته الغائبين.

في هذه المواقف يفضل ماركو عدم التدخل، منسحًبا إلى غرفته الصغيرة وموارًبا بابه. بينه وبين نفسه كان مُعجبًا بالوقحين منهم الذين يهددون غيرهم بالطرد، كأنهم يظهرون ما يخفيه في لحظات ضيقه وانهيار أعصابه، فكثيرًا ما فكر أن يقول لهم اذهبوا إلى مكان آخر؛ لم أعد أحتمل. إدارة مجموعة من الناس المتنافرين المضطرين للعيش معًا تحت سقف واحد يحول البيت إلى قطعة من الجحيم.

ليس لديه قدرة لفض تلك الاشتباكات السخيفة، أو ربما لو تمتع بقليل من الوقاحة، لكفته للسيطرة على الجامحين ولو بطردهم دون أن يشعر بالذنب.

المكان الوحيد الذي ظل خاصًّا هو غرفة بيتر، الذي سُمِّي مؤخرًا بـ(غرفة الأب)، باب مغلق دائمًا عندما يكون في العمل أو موارب عندما يكون في البيت. يقضي فيها جل وقته، يستريح أو يختلي بنفسه مفكرًا في تدبير أمور ضيوفه. وأحيانًا يستدرج لوسي عندما يشتاق للحظات من الحب، وحتى هذا لم يكن متاحًا إلا في الخفاء، بحرص على عدم إصدار أصوات محرجة. يستعيد ذكرى ذاك اليوم، عندما شب شجار هائل بدأ بين طفلَين، فتدخلت الأمهات بعد أن صفعت إحداهما طفل الأخرى دفاعًا عن ابنها. مما أثار حفيظة أم الطفل المصفوع، فدخلتا في عراك حامي بالأيدى. أخذتا تدوران مثل إعصار غاضب. تتصارعان متدحرجتَين على الأرض، مزقتا ملابسهما، وتراشقتا بما يقع في أيدهما من حجارة وأوانٍ وأحذية. اندفع الجميع للتحجيز بينهما، ولكن سريعًا ما استسلموا، كانتا غاضبتَين وممتلئتَين بقوة يمكن أن تزيل قلعة عن وجه الأرض. الصغار يصرخون، والكبار يتصايحون، والأواني تقعقع، وأشياء تتطاير هنا وهناك، حتى أن بعضها طار وسقط في بيوت الجيران، فدفعهم الفضول للتفرج من فوق الجدران الفاصلة، يتصايحون لوقف هذا العراك، ولكن من بعيد. وإذا دُفع شيء من المقذوفات نحوهم، ينحنون فورًا ويعيدون الكرة.

وقف ماركو على عتبة غرفته، ينظر إلى ما يحدث كمَن يشاهد فيلمًا على شاشة تلفاز. يتتبع لوسي التي تجري هنا وهناك نازعة الأدوات القاتلة من الأيدي، متوسلة في محاولات يائسة لإنهاء المشاجرة، ولكن كان الأمر كانفجار مادة حارقة، لا بد أن يأخذ وقته حتى يتبدد وحده. الأمر الذي جعلها تستسلم كالجميع واقفة باتكاءة جانبية مستندة على الحائط. ظل ماركو ينظر بحنق لما يدور، وكادت شخصيته الوقحة أن تخرج لطرد الجميع دون استثناء. أخذ يقلب في ذهنه؛ فربما هذه فرصة سانحة لن تعوض، خاصة مع وجود شعور عام بارتكاب خطأ والتسبب في فوضى عارمة وإزعاج الجيران. ولكنه في النهاية ضبط نفسه. عيناه تتجولان بين لوسي وزوبعة العراك التي لا تزال في أوجها، لوسي يائسة تمامًا من السيطرة على ما يدور أمامها، كانت الجلبة عظيمة، الكل يصرخ بطريقته، رجال ونساء حتى المسنات اللائي لذن بالأركان، تركن استجداء المَنِيَّةِ، رافعات أصواتهن المحشرجة وعصيهن مهددات الجميع بالضرب. ولكن دون جدوى. تجمهر المارة أمام باب البيت في فضول، خبأت الأمهات أطفالهن بعيدًا عن مرمى المرأتَين، انقسم المراهقون المشاكسون إلى فريقَين كل يشجع واحدة، محولين الأمر برمته لمشاهدة ممتعة كللوها بالضحك والتصفيق وإصدار الألفاظ المشينة.

فضّلت لوسي الابتعاد وانتظار انتهاء هذا العبث. كانت تدلك ذراعها بعد أن أُصيبت في أثناء محاولتها فض العراك. لا يزال ماركو يتأملها، كأنه يستمد من وجهها الجلد وضبط النفس، يحط على وجهها بقع الضوء الهارب من بين أغصان الشجرة، تبدو هي الأخرى

في صراع مع ذاتها، هل تفكر في طردهم جميعًا كما يفكر؟ مد يده ساحبًا إياها برفق، قاومته قيلًا في تردد، ولكنه دفعها إلى الداخل بحزم، وأوصد الباب على كل تلك الضجة خلفهما.

عندما أُغلق الباب شعرت كأن هناك مَن أطفأ نور الكون، خفضت الأصوات الصارخة وقعقعة اصطدام الأشياء الناتجة عن التراشق تسقط مكتومة كأنه تقع على كومة رماد. ها هي الآن أمامه تحدق فيه عميقًا من خلال العتمة، شعرت فجأةً أنها تشتاقه، لقد تباعدا كثيرًا في أثناء زحمة الوافدين ومحاولة تدبير أمورهم. سرى التعب في كل أوصالها، وانهمرت دموعها دون شكوى، سحبها نحوه وضمها برفق، وأخذ يمرر يدَيه على ظهرها لتهدأ. أجلسها قربه على السرير، لفهما الصمت. واصل تمسيد أجزاء من جسمها، كادت تغفو، لمسات ماركو حملتها بعيدًا عن الصخب، لم تعد تسمع شيئًا سوى أنفاسه ودقات قلبه. وبلمسات خبيرة منه التهبت بين ذراعَيه كفتاة تتأهب للحب لأول مرة، التحم بها وأصبحا كائنًا واحدًا ينبض بقلب كبير ومجهد.

عادا من عالمهما الحميم ببطء، كطائر أخذ يحط نحو الأرض شيئًا فشيئًا، عائدًا من الفضاءات بعيدة. كم لبثا؟ لا يعلمان، ولكنهما غابا وقتًا كافيًا ليهدأ كل شيء بالخارج. ماذا حدث للشجار الهائل؟ ربما قتلت إحداهما الأخرى! يا للهول!

أخذت الأصوات تتسلل إلى خلوتهما شيئًا فشيئًا. ولكن ليست أصوات ساكني الدار، لقد كان صوت التلفاز. فتحت لوسي الباب بطيئًا، فاصطدمت بالظلام، سألت نفسها بدهشة: متى انسدل الليل؟

تسللت دون أن يشعر بها أحد، فالجميع مستغرق في متابعة مسلسل مصريّ شيّق يُعرض على التلفاز الصغير، الموضوع على منضدة على مسافة من الجميع، يومض ناثرًا ضوءَه على الوجوه التي تحملق ببلاهة. يتابع أغلبهم حركة الصورة ولغة جسد الممثلين، هؤلاء الناس الصغار المحشورون داخل ذاك الشيء ويثرثرون دون توقف. كانت حواراتهم صعبة وعصية على الفهم، فاكتفوا بالإيماءات ليفسرها كل حسب خياله.

استدارت لوسي متسترة بالظلال حول قبيلتها المنتشرة على الأرض والمقاعد والأسرة في ساحة الحوش الكبير. شكلت العجائز مجموعة صغيرة تقبع الوراء بعد أن قررن في وقت سابق أنهن لا يحبذن النوم تحت الشجرة الوارفة دون إبداء اسباب واضحة، ولكن لوسي سمعتهن يتهامسن فيما بينهن، قالت إحداهن: ثمة شيئ غريب في هذه الشجرة، وأكدت أخرى هذا الزعم، بينما زحفت مَن كانت بعيدة لتضع رأسها قريبًا من رفيقاتها وحكت كيف أنها استيقظت ذات يوم لتجد تلك الفروع تمتد كيدٍ عملاقة وتكاد أن تطبق على عنقها، بل شعرت بأنفاس حارة كريهة تلفح وجهها، ما جعلها تلوذ بالفرار، حتى كادت أن تقع على وجهها، متناسية ألم مفاصلها المتصلبة.

تبارين حينها في سرد المواقف في تشويق، باشرت أخرى تحكي أنها سمعت إيدو والدة لوسي اللعينة تناديها باسمها وتشتمها بأقذع الألفاظ. سألنها ضاحكات عن ردة فعلها حينئذٍ، قالت إنها ردت لها الشتيمة بأفضل مما شتمتها، فضحكن حتى دمعت أعينهن.

لوسي على علم بأن روح أمها إيدو تسكن الشجرة، وهي التي ترعب الضيوف. ولكنها تجاهلت الخوض في هذا الأمر، لكيلا يشيع الفزع في البيت، وإذا أذاعت العجائز الأمر فلن يخرج الأمر عن كونها حكايات لنساء خرفات.

سحبت لوسي إيانق لتعرف منها ما حدث، حكت لها كيف أن الشجار استمر حتى غلبت إحداهما الأخرى، كانتا في حالة مزرية، مزقن ملابسهن وتصارعن بصدور عارية، غطت الجروح والكدمات أجسادهن. في النهاية قررت واحدة منهن المغادرة بعد أن أسقطت الأخرى عدم قرابتها وطردتها، حملت حاجاتها القليلة، وغادرت دون أن يوقفها أحد.

من سرد إيانق علمت لوسي أن الجميع يتواطأ بشكل أو آخر في عدم إبقاء أحد، ليتم إخلاء مساحة ما. المساحة المذكورة هنا ليست مجرد مكان، إنما مجموعة من الأشياء منها الشعور بالانتماء لعائلة تحتويه في لحظات القلق والخوف والأحزان، يشاركونه البكاء على موتاه، فكل واحد منهم عبارة عن امتداد لأفراد أُسرته الذين تركهم لمصيرهم في الجنوب، من لم يستطع الفرار لأسباب عديدة، منها العناد، العناد المحض بعدم ترك بيوتهم؛ لأنهم يعتقدون أن الرحيل أيضًا نوع من الموت. أما مَن نزح، فبقيت روحه عالقة هناك، وجسده هنا ينتظر في توجس أخبار الموت المفجعة. انتظار مَن سيكون عليه الدور، في أي اتجاه تدور عجلة الموت، ولمن تشير عقارب ساعة الحزن!

لم تكن سلام تعير اهتمامًا لما يحدث. تنأى بنفسها عن المعارك اليومية لخطف اللقمة التي لم تمتد يد إليها في الوقت المناسب، أو سرقة دور أمام باب المرحاض. انشغلت بإحصاء أيامها على أصابع قلقة. توشك أن تكمل شهرين منذ أن جاءت. تنتظر أن يصحبها ماركو ويقدمها لأُسرتها التي لا تعرفهم ولا يعرفونها، تتشوق لزيارة بيت أبيها عبد السلام. ماركو منشغل بضيوفه، ولكنها استنتجت أنه ربما كان مترددًا بسبب هواجسه الخاصة. كلما حاولت فتح الأمر، يؤجله بحجة الانشغال بضيوفه الكُثر. انخرطت في الحالة البائسة للبيت لقتل الوقت، تقدم مساعدات طبية للمرضى منهم. ساعدت بعض النسوة في ولادة أطفالهن في البيت، لأنهن رفضن الذهاب إلى المشفى، وساعدتها الجدات ذوات الخبرة التي اكتسبنها بالتجربة، منهن مَن ولدت وحدها، ومنهن مَن ساعدت نساء أخريات، طبعًا ارتكبن بعض الأخطاء القاتلة، ولكن ذلك لم يمنعهن من تقديم يد العون لتخليص النساء من آلام المخاض، مع ذلك ظل بالها مشغولًا وقلقًا، لا تعرف ما سيؤول إليه أمرها. هي التي انبثقت من العدم فجأةً، ظهورها قد يتطلب رحلة نحو الماضي ومحاولة فهم تفاصيل غائبة عن الجميع. لو كان بيتر أخوها موجودًا لربما كانت الأمور أسهل، على الأقل هو حلقة الوصل من الأُسرتَين، ولكنه انضم للثورة المسلحة، ولا أحد يعلم في أي جبهة يقاتل الآن. ماركو في حيرة من أمره، ولا يعرف من أين يبدأ. قررت ذات يوم فتح أمر أُسرتها مع ماركو، لتحاول فهم موقفه بالضبط. سمح لها بالدخول بعد سماع طرقاتها الخفيفة على الباب. اصطدمت بالعتمة، وقفت ثوانيَ لتتبين ما بالداخل. دارت بعينَيها حول الغرفة الضيقة نوعًا ما،

لقد رُتِّبت بشكل مدهش، صورتان لبيتر في إطارَين مذهبَين معلقَين على الجدار بالإضافة للوحات أخرى، ورف عتيق اصطفت عليه كتب عديدة، ومنضدة كتابة رُصَّ عليها أوراق ومغلفات. هناك في الركن صندوق مكدس بقناني فارغة لخمور مستوردة يعلوها الغبار. نافذتان مستطيلتان مغلقتان منذ وقت، استغنى عن فتحهما لأنهما تطلان على مجلس النساء تحت الشجر حسب تحليلها السريع.

اعتادت عيناها الرؤية، كان هناك ما يكفي من الضوء لترى تفاصيل الغرفة، ثمة ضوء اخترق الشقوق الضيقة في النافذة الخشبية الصغيرة. تغلغل النور بين الظلال الكثيفة، صانعًا حزمًا مرئية تُغري باللمس والإمساك بذرات الغبار والأنسجة المتطايرة في الهواء.

هناك كرسي عتيق من خشب الماهوجني المتين راسخ كعرش، وجدت ماركو يجلس على سرير وحيد ملتصق بالجدار، عاقدًا يدَيه في جلسة متحفزة. دعاها للجلوس، فعلت ببطء على الكرسي الوحيد نفسه، أطالت الاستنشاق، ربما يتسرب إلى روحها عبق أخيها.

أطرق ماركو صامتًا، وأخذ يتأملها هادئًا. كانت ترتدي جلبابًا بيتيًّا أزرق بكم قصير، مطرزًا بخيوط حمراء، ثبتت شَعرها في كتلة تكومت خلف عنقها. كل منهما ينتظر أن يبدأ الآخر، بادرها بالحديث عن بيتر، ليكسر وطأة الترقب المتبادل، تحدث عن هذه الغرفة، وأنها كانت تخصه، فضل قضاء معظم وقته فيها. يقرأ ويكتب ويجتمع مع أصدقائه المقربين. وكيف أن بيتر أكثر من مجرد صديق، وأنه لا يستطيع تلخيص تلك العلاقة في عبارة تستوعب عمقها وكيف أن تواجده في هذه الغرفة ما هو إلا نوع من التقرب من بيتر. ثم سألها

هل تعرضت لتجربة فراق صديق أو شخص مقرب، شعور أن هناك شخصًا يتقاسم معك روحك وعقلك، ثم هكذا فجأةً يفرض القدر أن تفترقا دون إنذار ودون استعداد، إنه شيء يشبه الموت الفجائي!

أخبرها أن أخاها كان يعيش في خوف دائم، الخطر يتربص به ويعرف أنها مسألة وقت؛ فإما اعتقال بتلفيق تهمة، وإما اغتيال! وأنه لا يدري كيف تحمل هذا الوضع ردحًا من الزمان، إلى أن قرر الرحيل بمساعدة أختها جلاء.

وجدت سلام مدخلًا، وقالت إنها قادمة للتحدث بشأن أُسرتها، وتسأل هل يمكن ترتيب مقابلة!

قال ماركو معتذرًا: «عارف أنا أتأخرت شديد عشان نحسم الموضوع دا، أنا آسف، لكن دا كلو لاني خايف».

- خايف من شنو؟

حك ماركو جانب رأسه مستغرقًا: «عارف يعني شنو زول يكون ما موجود ولا في الخيال، فجاءة يظهر؟ دا كلام خطير أنا شايفه، خاصة بالنسبة لأُسرة زي أُسرتك».

- ليه؟ في شنو بيحصل يعني؟!

- أُسرتك أُسرة غنية، ناس عندهم قروش.

قلبت وجهها، ما يدل أنها لم تستوعب، فأخذ يشرح لها الأمر بروية، كيف يمكن أن يشكل ظهورها مراجعة دقيقة لكل شيء، واعادة تقسيم إرث أبيها، هذا طبعًا إذا اعترفوا بها.

قالت بسرعة: «أنا ما عايز قروش، أنا عايز أُسرة بس».

ولكن ماركو واصل شرحه لها أن الأمر أكثر تعقيدًا مما تتصور. وليس لها خيار غير قبول تلك التعقيدات، وهذا حال كل العائلات.

ولكنه استدرك قائلًا: «يمكن أنا خايف أكتر من اللازم، ويمكن الموضوع أسهل من كدا. دا السبب اللي خلاني أفكر كيف ممكن يكون أحسن طريقة عشان أوديك لأهلك بدون مشاكل، أنا خايف عليك».

أطرقت تفكر، تقلب مشاعرها المختلطة بين الخوف والفضول والحيرة، كيف لماركو أن يكون الأقرب إليها أكثر من أُسرتها التي تربطها بهم صلة الدم، صدقها من غير عناء، ولكنه يدرك أن الأمر مختلف مع أهلها. لا تعرف كيف تتعامل مع المشاعر المخزونة في أعماق قلبها، مشاعر حماسة وبهجة خفية، لقد أضحى الأمر برمته متعلقًا بالوقت وحسن اختيار التوقيت. على الأقل فهي الآن معهم في المدينة ذاتها وتتقاسم معهم الهواء ذاته، فابتسمت شاردة.

شعر ماركو بما يدور في ذهنها من أفكار، من تلك الغبطة التي تحاول مداراتها، كطفلة تلقت وعدًا بلعبة. لكنه طلب منها ألا تبحر كثيرًا نحو النهايات السعيدة، ولأن البشر غريبون، وقد لا يبادلها مَن تتوق لرؤيتهم المشاعر نفسها. وربما عليها أن تستعد للمشكلات الجادة منها والتافهة؛ فالأقارب لا يجيدون شيئًا كاختلاق المشكلات.

ران الصمت بينهما فترةً، كل غارق في أفكاره، وسرعان ما استدركت سلام أمرًا آخر، وطلبت من ماركو أن يساعدها في إيجاد عمل في أحد المستشفيات. توجس ماركو من طلبها، ووجه إليها

سؤالًا هل تحتاج إلى شيء أو أن هناك تقصيرًا من قِبله، ولكنها أخبرته أنها تريد أن تعمل لاكتساب خبرة إضافية من العمل في مشافي الخرطوم، كما أن مهنتها تحتاج للممارسة دائمًا. فطمأنها ماركو بأن هذا أمر سهل، وأنه سيفعل ما بوسعه للعثور على وظيفة، وعدها بالمرور على مكتب العمل لإلقاء نظرة على الوظائف المعلنة، ويتمنى أن يكون التمريض من ضمنها. نهضت شاكرة، وقبل أن تخرج قالت: «حسن عباس ما ممكن يكون الزول اللي بيساعدنا؟». قطب ماركو حاجبَيه كأنه يحاول اعتصار شيء من الذاكرة: «حسن؟».

ثم تهللت أساريره فاردًا يدَيه في الهواء: «صحيح كلامك، حسن عباس أنسب زول، شكرًا سلام، أيوا بحاول أتكلم مع حسن عباس في الأيام الجاية».

الفصل السَّادس

المذبحة

يطل جانب وجه حسن عباس من نافذة القطار الصغير، واضعًا نظارته ذات الإطار السميك فوق عينَيه، بشَعر كثيف على رأسه، ويزين وجهَه شاربٌ ضخم أسود ملتصق بفمه. يقرأ مستغرقًا كتابًا بين يدَيه، وبين حين وآخر يرفع رأسه عن الصفحات، ماسحًا الأفق المقفر الممتد بنظرة واحدة، ليس هناك أمر مثير، ما عدا تلك الشجيرات الشوكية المتناثرة هنا وهناك، تجري للخلف عكس اتجاه انطلاق القطار المنساب بطيئًا، ويُحدث ضجيج احتكاك الحديد ببعضه صوتًا مثيرًا للأعصاب.

كان في رحلة عودة من إحدى رحلاته إلى عمله مُعلِّمًا في المدارس الفقيرة في القرى والمدن البعيدة، ولكنه في الوقت ذاته يسعى للهرب من الخرطوم، المدينة التي لا يحتمل العيش فيها وقتًا طويلًا، لأنها -كما يقول- جاحدة وشرسة، وتدب في جوانبها كل وجوه السلطة القبيحة والنفوس الجشعة للنفوذ. يشمئزُّ من مظاهر كل السلطات المركزية بساستها الكذَّابين، وجيشها الذي يحارب مواطنيه، والشرطة الفاسدة، ورجال الأمن، والمخبرين اللزجين المختبئين في شوارعها حمايةً للدكتاتورية. يقشعر بدنه من فكرة وجود الزنازين وبيوت التعذيب والسجون المعلنة والسرية. لقد

عرف وجه الخرطوم الآخر ومدى وحشيتها. لديه ذاكرة مليئة بالاعتقالات والخطف والتعذيب إبَّان حكم الاستبداد العسكري. تم ذلك في أرجائها الموحية بالهدوء. وكم فقد من أصدقاء لا يعرف أهم أحياء أم أموات. خَبر ساستها الذين يتلونون كالحرباء، ضعفاء بأرواح مستكينة تعودت على الإذعان والحلول السهلة الخالية من التضحيات، يتمسحون في العسكر ويخشون الجماعات المتطرفة التي تُقحم الدين في مسائل الحكم. يمارسون النفاق مع أنفسهم ومع الشعب، هذه هي الخرطوم المدينة التي تنام ببراءة، بينما تساهم في غليان كل شيء حولها. لا يحبها على الرغم من كل الصلات الجميلة التي تربطه بها: زوجته، وأصدقاؤه، وأنضر أيام شبابه التي قضاها متجوِّلًا بين أحيائها، ودراسته الجامعية في جامعة الخرطوم، والحفلات والمسرحيات الفخمة على مسارحها، ومنتدياتها العامرة بالنقاشات الفنية والفلسفية. يفضل أن يأتي زائرًا مشتاقًا في الإجازات القصيرة، ليبقى قليلًا مع جلاء يسندها بعض الشيء لرعاية أمها المسنة حبيسة الذكريات.

يواصل قراءته بصمت مستسلمًا لهزهزة القطار الخفيف، معزولًا بشكل متعمد عن الركاب الذين يثرثرون في مواضيع شتى. لاحظ أن سيرة الحرب تغلب على حكاياتهم، ثم الهلع من العوز. اتضح على محياهم وبؤس أمتعتهم المتكونة من الحشائش لإطعام حيواناتهم وشوالات الخبز الجاف اتقاء جوع الأيام الصعبة التي يرددون أنها قادمة لا محالة.

يبتلع القطار كل هذا في جوفه، شاقًّا طريقه كحيوان زاحف هائل. يتوقف في المدن الرئيسة، بينزل أناسًا، ويستقله أناس جدد. تغادرُ أمتعة، لتحتل أخرى أماكنها. وبعد كل محطة تتغير خارطة السحنات والألسن كما تتنوع المحاصيل، لكن ظلت حكاية الحرب سائدة كلما توغلت الرحلة غربًا، كأنهم ماضون إلى عمقها وحقيقتها، وتكثف هذا الشعور بشكل يثقل معه الهواء.

غطست الشمس، وتناقص محيط دائرتها قليلًا قليلًا، كأن القطار ينطلق نحو بؤرة مشتعلة بدأت حرارتها تصله.

قلَّب الصحيفة التي اشتراها من المحطة السابقة مستغلًّا الأضواء الأخيرة لنهار مُودَّع؛ عساه يجد فيها ما لمسه من قلق وتوتر في حياة الناس على متن هذا القطار، فوجدها مكدسة بالإعلانات والأعمدة التي تبث الكراهية، وبيان طويل من الجيش، فقرأه دون أي اهتمام، لرفضه فكرة الحرب أساسًا، ولأنه لا يهمه سوى هل دعمت الحكومة الجيش أم لا. ثم طوى الصحيفة في سخط، وحشرها في تجويف بين المقعدَين أمامه.

أخذ يفكر فيما ستقودهم هذه الحكومة إليه! حزمة من سوء التصرف والتخبط وصب الزيت على النار المشتعلة سلفًا. وفي أثناء استغراقه في تلك الأفكار، لاحظ شابًّا يجلس بجواره طوال الوقت دون أن ينطق شيئًا. كان مطرقًا. وعندما يرفع رأسه، تهرب عيناه من النافذة بعيدًا، كأنه لا يرى حسن عباس أو لا يسمع ضجيج الركاب.

لاحظ حسن - من خلال الإنارة الخافتة لمصباح فوق مقعدَيهما - احمرار عينَيه بدموع متجمدة عصية على الانحدار، وأنه يجز على أسنانه غارقًا في تفكير عميق.

«أنت كويس؟»، سأله حسن. فهز رأسه بعنف: «لا». «لو ممكن أساعد؟»، أردف حسن، وقبل أن يكمل جملته قال الشاب: «تقدر تقتل؟»، قال ذلك وعيناه تخترقان جمجمته.

- أقتل؟!

- شفت؟ يلَّا ما كدا حتقدر تساعدني.

- اللي حصل شنو؟

فسرد الشاب ما حدث، وكيف أن الجنوبيين قتلوا أربعةً من أشقائه،كانوا رعاة يسرحون مع أبقارهم على تخوم الجنوب، فسُرقت، وقتلوهم ومثلوا بجثثهم. عندما وصل هنا، أخذ يرتجف من الغضب، وأقسم قسمًا غليظًا أنه سيقتل أي جنقاوي في مدينته وسيقتص لإخوته بقتل الجنوبيين. تسمر حسن، لقد أرعبه ما تلفَّظ به الشاب.

حاول تبديد غضبه بمزيد من الحوار ربما يفلح في تهدئته، فسأله: «هل أنت عارف منو اللي كتل إخوانك؟ يعني اللي ارتكب الجريمة دي منو بالضبط؟». أجاب الشاب بحسم: «الجانقي، حاكتلهم كلهم، ديل كتلوا إخواني ياخ، ما حاخلي العبيد ديل». وعض إصبعه، وبكى كاتمًا صوته في صدره. فوجد حسن نفسه في مأزق، كيف يمكنه تحييد شخص فقد أشقاءه؟ فأي محاولة للتهدئة في هذا الموقف أمر سخيف حقًّا.

لفهما السكون، لكن كان ذهنه منشغلًا، هو يجلس الآن جوار قاتل محتمَل، ولا يدري كيف يتصرف في مثل هذه الحالات، لماذا سأله أساسًا؟ شعر بمسؤولية كبيرة تجاه تلك المعلومة؛ فمصير شخص أو أشخاص متعلقة به، بين الموت والنجاة. يتمنى أن يصل بسرعة لمعرفة ما يدور على الأرض، وقرر بينه وبين نفسه أن يذهب فورًا إلى الشرطة؛ لتنبيههم بتلك المعلومة الخطيرة لحماية الضحايا المحتملين إذا تمكن هذا الشاب من تنفيذ وعيده.

راقبه مسترقًا نظرات جانبية إليه، عساه أن يهدأ قليلًا في حواره مرة أخرى ويثنيه عما ينوي فعله. وكلما اقترب القطار من مدينته، قدح هذا حزنه، وأجج غضبه، واتسعت الفجيعة في عينَيه. سيعود لبيته دون أن يجد أشقاءَه في استقباله. انشغل حسن بمراقبته طوال الرحلة، كان يهمهم بكلمات غير واضحة كمجنون يحادث أناسًا غير مرئيين. وعندما أراد إشراك حسن، يرفع صوته قليلًا. سمعه حسن وهو يعلن عن عدم صبره لحمل السلاح وإطلاق النار على قتلة إخوته.

قال حسن: «سلاح؟ ووين حتلقاه؟».

الشاب بخبث: «أسهل حاجة تلقى سلاح في البلد دي، وعندنا كتير، نحنا رجال وبنعرف كيف نجيب التار».

أشاح بوجهه بعيدًا، متجاهلًا حسنًا، كأنه ألغاه من الوجود. وعندما طال صمت الشاب الغاضب، مد حسن يده نازعًا الصحيفة المغروزة في تجويف المقعدَين، كأنه يريد أن يتأكد من شيء قاله الشاب قبلَ قليل عن وفرة السلاح لديهم. لكن مَن ملَّك هؤلاء

المواطنين أسلحة؟ قرأ فقرة وردت في بيان الجيش المنشور في الصفحة الأولى على الجريدة. وفيه يطلب الجيش من الحكومة تزويده بالعتاد والمؤن لمجابهة الحرب وإيقاف التمرد الذي سيطر على مدن كثيرة، بالإضافة لتحذير الحكومة من خطورة تسليح المواطنين وزجّهم في حرب.

ينقل عينَيه بين الشاب والصحيفة. غلى الدم في رأسه عندما ربط الخيوط ببعضها. تنهار البلاد حقًّا على كل المستويات: «دي كارثة!»، همس في يأس. فرقعة الحرب تتسع وتكبر كل يوم، ويدخل فيها مقاتلون جدد، شيء مثل وحش لعين يتغذَّى على دمائهم وعلى اختلافاتهم.

واصل القطار سيره غير عابئ بشقاء الناس الذين يبتلعهم من المحطات المكتزة بالمنتظرين، لا يعنيه غضبهم أو مخاوفهم أو خططهم الجهنمية لارتكاب الحماقات، عليه حمل هؤلاء الركاب إلى مدنهم المبعثرة في تلك الفيافي الواسعة على امتداد مدنهم المسكينة هنا وهناك كحبات خرز انقطع خيطها. القطار هو الخيط الوحيد الذي يصلهم معًا بحركته الدؤوبة ذهابًا وإيابًا. يتقيؤهم في محطات الوصول الأخيرة، ويتركهم هناك لمواجهة مصائرهم الخيرة والشريرة، منهم القاتل ومنهم المقتول، منهم مَن سيُزف عريسًا لبنت عمه، ومنهم مَن سيربح تجارة، ومنهم مَن سيبذر جنينًا في رحم زوجة عانت من غياب حبيبها ردحًا من الزمان.

يشدُّ الليل غطاءَه القاتم على أركان هذا الجزء من العالم، ويتلوى القطار في طريقه في مطاردات فاشلة لإدراك الشمس التي تنحدر خلف الأفق.

نامت الحياة داخل القطار، وانزوت الثرثرة قليلًا، ما عدا بكاء طفل في الثالثة يصرخ بعناد ويشد ثوب أمه بغضب ويلكمها حينًا، والأم تحاول يائسة تهدئته ولكن بعصبية بائنة، تغريه بالحلوى والبسكويت ليصمت، ولكنه يرفضها مواصلًا الصراخ. فجأةً انبرى أحد الركاب ونهر الطفل بزمجرة جعلت النيام ينتفضون من سباتهم، ونزع سكينًا من أعلى ذراعه ولوح بها في وجه الصغير مهددًا إيَّاه بالذبح إذا سمع صوته. أُصيب الطفل بالخرس، وطفق يحملق في الرجل الغريب مرعوبًا، فلم يستطع الصمود أمام شرارة عينَيه المتوعدتَين بالذبح، ودفن رأسه في حضن أمه منسحبًا كاتمًا أنفاسه.

لم يستطع حسن النوم؛ فذهنه يلوك تلك الكلمات المتوعدة التي تفوَّه بها القاتل المحتمَل الذي ينام الآن مُلقيًا رأسه على كتفه كشخص بريء، يختلس إليه النظر من حين لآخر، يا للطيبة والوسامة التي تحطَّان على تلك القسمات النائمة، فسأل نفسه: كيف سيقتل هذا شخصًا ما؟ تمنَّى في تلك اللحظة أن يمتلك سحرًا يبقيه نائمًا حتى يصل. ثم حدَّث نفسه أنه يحب السفر بالقطار، لأنه يوفر له بيئة التعرف على الناس، ويجعله يقع في جُب الحكايات والشائعات، ويتورط في مشاعر الركاب.

أخيرًا وصلوا محطتهم، إلى مدينة صغيرة هادئة في أقصى غرب البلاد متاخمة للجنوب، يسكنها خليط من المواطنين، جمعتهم الأرض والتجارة والنزوحات القسرية بسبب الحروب والمجاعات.

ذهب حسن من فوره إلى مقر الشرطة، لإطلاعهم على ما سمع في القطار، فوجدهم على علم بما يُحاك ويراقبون الوضع جيدًا. اطمأن حسن، كأنه أنزل شوالًا من الرمل عن كتفَيه للتو، ثم اتجه إلى مقر سكن المعلِّمين. ولأنه كان متعبًا، نام في الحال.

***

في اليوم التالي قرر الذهاب إلى سوق المدينة، ليتأكد من بعض الأخبار، وقد يجد شخصًا يتشارك معه مخاوفه.

قابل أصدقاءَه من المثقفين والموظفين والتجار والمعلمين، وتحقق من أشياء كثيرة. عرف أنه في مدينة تجلس على فوهة فتنة عظيمة، تنتشر شائعة قوية تقول بتدبير هجوم على مواطنين جنوبيين يسكنون المدينة قبل سنوات عديدة بعد أن نزحوا إلى هذه المنطقة، فارين من بؤس الحروب المتكررة في الجنوب. هذا الهجوم سببه أن رعاة لقوا حتفهم ببشاعة ومُثِّل بجثثهم على أيدي قوات جنوبية متمردة طاردتهم حتى حدود مدينتهم. امتلأت الأجواء بالحزن والغضب، وانتشرت لغة عنيفة وعنصرية ضد الجنوبيين الذين يمارسون أنشطة متعددة في المدينة. لقد نالهم الغضب والازدراء والوعيد بدفع الثمن.

لحسن صديق يُدعى دينق بول، معلم أيضًا، تزاملا في مهنة التدريس. قرر البحث عنه، ومعرفة مدى تأثير ما يجري عليهم. وجده يتوسط ثلة من أبناء جلدته يتجادلون في أمر ما، على وجوههم الغم والقلق، ويتحدثون بصوت منخفض أقرب إلى الهمس يعلو أحيانًا من قِبل أحد فقد أعصابه، فتمتد الأيادي لإسكاته أو لخفض

صوته، بينما يلتفتون يمنة ويسرة. مر بعض الأطفال بقربهم وهتفوا: «الجانقي..الجانقي».

لاحظ حسن أن هناك جماعات أخرى متفرقة هنا وهناك منهمكة في جدال أيضًا، بملامح متحدية وإيماءات توحي بالوعيد والتهديد، تعلو نبراتهم في جراءة، كأنهم يلقون تلك الكلمات المهددة نحو مجموعة دينق لتحرقهم.

في تلك الأثناء، علم حسن أن الأمور تكاد تخرج عن السيطرة، تكفي نظرة واحدة من مجموعة دينق للمجموعة الأخرى لاندلاع عراك حالًا. اقترب من مجموعة دينق ملقيًا السلام، فرحب به دينق ببال منشغل وقلق، ثم جذبه جانبًا قائلًا بمباشرة أدهشت دينق:

- اسمع يا دينق، لازم تطلعوا من المدينة الليلة قبل بكرة.

تنهد دينق زافرًا كل خوفه دفعة واحدة: «نمشي وين يا حسن؟ لينا عايشين هنا من سنين. كنا عايشين كويسين مع بعض، فجاءة الناس بقوا بيكرهونا. ما عندنا ذنب في اللي حصل، دا شغل عساكر.. نحن مواطنين ساكت».

قال حسن كأنه لم يسمع تبريرات دينق التي لن يسمعها أحد الآن: «اسمع كل ساعة بتمر وانتو هنا، دا خطر على حياتكم، انت ما شامي ريحة الموت؟ أنا خايف شديد أي حاجة ممكن تحصل. في نية ما كويسة ضدكم».

دينق بيأس: «أنا برضو عارف اللي قاعدين يدبروا ضدنا، لكن نمشي وين؟».

حسن بنفاد صبر حتى علا صوته في وجه دينق: «أرض الله واسعة يا دينق، اسمع الكلام يا اخي ما في زمن».

حاول حسن إيصال مخاوفه كاملة لدينق الذي سبّب له الأمر هزة كبيرة لدرجة شُل تفكيره، لقد ظل يفصل بين الحرب الدائرة في الجنوب التي تلتهم قراهم قرية تلو أخرى وبين ما يحدث في المدن الآمنة، ولم يتصور أن تتجول الحرب في المدن وتبث سمومها في عقول الناس. جعلهم هذا في مواجهة وشيكة، واصطف كلٌّ خلف إثنيته*.

أخذ دينق يردد جملة واحدة كأنه يفكر بصوت في مخاوفه: «نمشي وين نحن تاني؟ جرينا من الجنوب لهنا، وكمان تاني مفروض نمشي قدام؟ دا ما بلدنا ولا شنو؟ نحن تعبنا يا حسن، خلاص كان الموت أحسن ما نجري، ننتظره بس عشان نرتاح للأبد».

- دينق، أنا فاهم شعورك تمام، لكن أنت ما مجبور تنتظر الموت، لأن ما في زول عندو حق يسرق منك حياتك، اللي بيحصل دا جنون، لكن المفروض نقاومه وننجو منه بأي طريقة. عارف الوضع كعبو محبط بس لازم نكون مسؤولين تجاه حياتنا وتجاه ذاتنا. اسمعني كويس يا خوي، امشي وكلم أهلك يطلعوا. السودان دا كبير وواسع، ولما الأمور تهدا، تعالوا راجعين.. ما في مشكلة.

---

* فئة من الناس الذين يُعَرِّفون بعضهم البعض على أساس أوجه الشبه مثل السلف أو اللغة أو المجتمع أو الثقافة أو الأمة. عادة ما تكون الإثنية حالة موروثة على أساس المجتمع الذي يعيش فيه الفرد

يقاوم دينق شعور الخطر الذي يلمس جلده بخشونة، يقلب أفكارًا في ذهنه مقنعًا نفسه بالبقاء، يقول على الرغم من شعوره بالسوء أنه لا يستطيع تخيل أن جيرانه ومعارفه في هذه المدينة سيتجرأون على أذيتهم، ويتمنى من قلبه أن تشفع سنوات المساكنة الطويلة في كبح جماح الغضب المتفشي كغاز سامّ.

وصل حسن إلى حد الغيظ من تبريرات دينق، فأمطره بسيل من الكلمات التي تجعله يرى الحقيقة كما هي، وأخبره أنه ما إن يحتشد البشر لارتكاب حماقة حتى يفعلوها، وعليه الإقلاع فورًا عن هذه الترهات التي تحكي عن المعاشرة الطويلة. الدم البشري المسفوك ملعون طالما بدأ القتل في مكان سيستمر ولن نستطيع منع حشد المنتقمين الغاضبين، ليس ضروريًّا البتة مَن بدأ أولًا، إنها شرارة بدأت ولن تتوقف بيسر، فالحرب تنشر الجنون، وتحرك أسوأ ما في النفوس، ولن تهدأ أبدًا.

قاطعة دينق: «لكن نحن ما كتلنا زول».

تنهد حسن في نفاد صبر: «أكون صريح معاك، انتو هسه بتمثلوا القاتل، انتو صورة القاتل القاعد حاليًا قدام الناس ديل، انتو اللي حتتحاسبوا بدل الجناة الحقيقيين».

ربت حسن على كتف دينق المُطرِق، وكرَّر كلماته محذرًا بوجوب الرحيل الفوري قبل حدوث ما لا تُحمد عقباه.

انسحبت المجموعة بطيئًا، تبعهم حسن وهم يمشون متقاربين ليحموا بعضهم بالكثرة، ويتجهون حيث يسكنون في حيهم المعزول في طرف المدينة. بيوتهم المبنية من مواد غير ثابتة، أسقف من

خشب وشوالات، كأنهم هنا بشكل مؤقت، ولكن طال هذا المؤقت ليكون وضعًا ممتدًّالسنوات. أحياء طارئة توحي بالعودة، ولكن لم يعد أحد؛ فالحروب المتكررة لا تسمح بذلك، فصار المؤقت أبديًّا.

دعا حسن دينق لقضاء الليلة عنده، يعرف أنه متردد وحائر وخائف في الوقت ذاته، ولكنه عاجز عن اتخاذ قرار الهروب. استمر في التحدث معه إلى أن أصابه النعاس. واستلقى دينق على سرير يجاور سرير حسن، ووجهه إلى الحائط، كأنه يحاول محاورته بمنطقه نفسه أنه لا يتوقع أن يسوء الأمر، كأنه يناجي القدر لتغيير وجهته.

لم ينم طوال الليل، يتقلب في سريره قلِقًا، خاصة بعد الهجوم الأول الذي حدث في الكنيسة التي يرتادها بانتظام لتعليم شباب المنطقة اللغة الإنجليزية. صحيح أنه الاضطراب أُخمد، ولكن كانت تلك إشارة التقطها بعضهم للإسراع في المغادرة والهروب تحت جنح الليل إلى مدن أخرى مجاورة. عند الفجر غلبه النوم، فمضى في غفوة لا يعلم كم استغرقت، ولكنه رأى أطول وأقسى كابوس في حياته، لقد شعر بثقل في أطرافه كأنه يتحول تدريجيًّا إلى كتلة من الحديد، عجز تمامًا عن تحريك حتى جفنَيه، وخزته ومضات مؤلمة سرت في عموده الفقري وشلت حركته تمامًا. سمع صوتًا يخرج من قرار نفسه يقول: «ما هذا؟ لا بد أن أهرب كما قال حسن! أي عجز هذا الذي يقيدني؟». كان يفكر من مكان صار محبوسًا داخله، كيف ومتى انحشر هنا؟ وهل هذا زمان أم مكان؟ يأتي الصوت مكتومًا من داخل جسده المثقل، ولا ينفذ عبر فمه أبدًا. جحظت عيناه، وبدأت غمامة داكنة تتشكل أمام عينَيه التي لا يعلم الآن هل

هما مغمضتان أم مفتوحتان، ولكن الظلام هبط على كل شيء، بعدها رأى نقطة ضوء بعيدًا، كشرارة متحركة نحوه، يزداد حجمها كلما اقتربت، وها هي الآن بحجم لهب عود ثقاب، ثم كشمعة، ثم بحجم عشبة يلتهمها النار، ثم بحجم إنسان مشتعل وهو يمشي، ثم يصير الإنسان المحترق بحجم شجرة ملتهبة تصل ألسنتها عنان السماء.

دينق يستميت ليرمش فقط، ليتأكد أنه في دهاليز كابوس، ولكن دون فائدة. في حالته تلك رأى قومًا يمشون واحدًا وراء آخر، عمالقة مسلوبو الإرادة، يمرون مشتعلين من أخمص أقدامهم حتى رؤوسهم، يتنفسون لهبًا، يتقيَّؤون لهبًا، ينطلق من أعينهم ومن خطوط شلوخهم التي تزين جباههم ضوء قوي نقي، كأنما تحولت أدمغتهم إلى سُرج تنير جماجمهم من الداخل. يحمل بعضهم رأسه في يده. سمع الحكّامة تغني أغنية الحرب بينما تلوِّح يدها بأعضاء ذكرية كبيرة بحجم رضيع، كأنها نزعتها بقبضة واحدة، وانساب الدم على طول ساعدها في اتجاه الإبط الذي انفتحت فيه أشداق بأنياب مسننة تلعق الدم.

«أين سينتهي هذا؟»، سأل دينق بول نفسه، كأنه يتوسل شخصًا ما أو ربما قدرًا ما ليتوقف هذا الشريط المرعب الذي يمر أمامه، وقبل انتهاء رجائه، انبثقت نار من حفرة في الأرض، مستديرة بلون قرص الشمس عند المغيب. رأى قومه يسقطون فيها واحدًا تلو آخر، وكلما سقط واحد انطلقت زغاريد من أفواه النساء، وعلت هتافات الرجال الحماسية، وأصمَّت أصوات الدفوف الآذان، ورقصوا بجنون كأنهم في حالة جذب.

رأى الأطفال منقادين في سلسلة بشرية طويلة من دون نهاية، مقيدين من رقابهم بجنازير محماة حتى تحول حديدها إلى جمر، يدخلون إلى كوخ من خلال باب وحيد دون توقف، ويبتلعهم الكوخ جميعًا، كأنهم يذوبون في عمقه.

نجح أخيرًا في فتح عينَيه بصعوبة، على الرغم من أنهما كانتا جاحظتَين في كابوسه الذي لا يدري كم استغرق من وقت. ألفى نفسه مستلقيًا في غرفة حسن عباس، والآخر يجلس قربه قلِقًا. حدق عميقًا في عينَي حسن ليتأكد من شيء، أومأ حسن بأسف. وصلته إشارة أن الأمور ساءت بالخارج، وبدأ الأهالي الغاضبون الهجوم على قومه.

قفز دينق من مرقده راكضًا نحو الباب، ولكن حسن أحاطه من خصره ليمنعه من الخروج، شدَّد حسن قبضته حوله، كان مثل الحلم الذي تحرر منه قبل قليل، دينق يحاول نزع ذراعَي حسن من وسطه متقدمًا نحو الأمام، وحسن يجذبه للخلف، تنازعا عدة دقائق، كان عراكًا صامتًا، حسن يتوسل: «دينق ما حتقدر تعمل حاجة، الجماعة ديل كتار ومسلحين، ما تتهور وترمي نفسك للموت».

دينق يحاول فك يدَي حسن من حوله متوسلًا: «خليني يا حسن، لو ما قدرت أعمل حاجة على الأقل أموت مع أهلي سوا».

تشبث به حسن قويًّا، العرق يتصبب منهما غزيرًا، أوشك دينق على الإفلات، ولكن أحكم حسن ذراعَيه حوله أكثر، فما كان منه إلا أن سدد لكمة على وجهه، فسقط واضعًا يده على أنفه الذي بدأ النزف.

وقف دينق يلتقط أنفاسه بصوت مسموع، ويلوح بيدَيه في الهواء ساخطًا، أخذ يبحث في جيوبه، فأخرج ورقة فيها قائمة من الأسماء، وجثا قرب حسن الذي يحاول إيقاف نزيف أنفه، حشر الورقة في جيب قميصه: «اسمع يا حسن ما في زمن، خلي الورقة دي معاك».

شرح له على عجل أنها أسماء نساء وأطفال اختُطفوا من قرى في الجنوب خلال الأعوام السابقة، بواسطة المسعورين الآن في الخارج، وقد تكون هذه أيضًا واحدة من ردود الأفعال العنيفة التي أدت لقتل الرعاة، يخبئونهم في هذه البيوت، النساء والفتيات يعملن خادمات، السادة يتبادلون بيعهن واستغلالهن، هن وأطفالهن، وطلب منه أن يبحث عنهم ويكتب عما يحدث، عسى أن يجد طريقة لتحريرهم.

سأل حسن كأن قلبه انشطر نصفَين: «يعني شنو خطفوهم وباعوهم؟».

ابتسم دينق بمرارة بائنة وهو في طريقه للمغادرة: «تجارة الرقيق يا أستاذ.. لسَّه شغالة، تتخيل؟».

تأملا بعضهما ثوانيَ، ولسان حالهما يقول: «أهذا وداع؟». تهدج صوت دينق: «أنت طيب جدًّا يا حسن، لازم تعرف أنه الحاصل زي الطوفان أكبر منا وحيغرقنا كلنا، اكتب عننا، الناس محتاجين يعرفوا أنه نحن ممكن نوصل لياتو درجة من الوحشية والظلم، وما بنفكر مرتين لما ننوي نذل بعض أو ندبح بعض». ثم انسرب من الباب ليواجه قدره الذي آن أوانه.

فرد حسن الورقة بأصابع دامية، ألقى نظرة سريعة على قائمة الأسماء التي لا يستطيع نطقها، كانت أسماء غارقة في المحلية. وفي أثناء ذلك انسحب دينق يجري في الطرقات، ولم يجد اعتراضًا، فانطلق إلى محطة القطار، ووجد الأهالي المسعورين مجتمعين تحت شجرة ظليلة قرب المحطة كأنهم يدرسون خطة ما، وعثر على أهله موزعين في مركز الشرطة وعربات القطارات التي امتلأت عن آخرها، حتى أنهم تكدسوا في العربات المخصصة للبهائم، متلاصقين ومترادفين فوق بعضهم في انتظار تحرك القطار. أما الأهالي فعلى الرغم من أنه عاشرهم وحفظ وجوههم المألوفة له، إلا أنهم أصبحوا كالغرباء، كأنه يراهم للمرة الأولى، فقد حولهم الحقد وشعور الانتقام إلى أناس آخرين.

أطلق القطار صفيرًا استعدادًا للمغادرة لإجلائهم، تنفسوا الصعداء، ولكن حدث ما لم يخطر في الحسبان، إذ سمعوا هديرًا غاضبًا يقترب، كانوا فرسانًا يمتطون أحصنة، وبعضهم كان مترجِّلين، يطلقون أعيرة في الهواء، كأن صفير القطار جعلهم يستشيطون غضبًا، فركضوا يطوقون القطار من كل جانب، ويحملون العصي والسيوف والبنادق، وأطلقوا النار، واعتدوا بالعصي والسيوف مرددين: «اقتلوا الجانقي..اقتلوا العبيد».

هرول بعضهم واضعًا حواجز على قضيب السكة الحديدية معطلين انطلاقه، رأى حسن الشاب الغاضب الذي ينام على كتفه في خلال السفر، يدحرج برميلًا ثقيلًا أوقفه على مقربة من الجنوبيين المكدسين في حوش مركز الشرطة، فتحه وأخذ يفرغ

الجازولين بخرطوش، ثم يسكب منه في أواني أخرى أصغر. التُقطت إشارته، فتكالب الأهالي يحملون الأواني، ويتلقون فيها الجازولين، ويهرولون ليرشوه على الناس المكدسين في مركز الشرطة وعربات القطار المكشوفة، وازدادت نوبة السعار لمجرد اكتمال العملية في خيالهم: «أحرقوا الجنقاي.. اقتلوا العبيد».

بعد أن بللوهم بالمادة الحارقة، شرع رفيق القطار في ربط حجر بطرف خرقة يحملها معه وأشعلها، ثم طوحها كأنه يلهو، وقذفها تجاه الجماعة المستهدفة متشفِّيًا. شخصت الأبصار تراقب الخرقة وهي تحلق في السماء كطائر شؤم يحمل الموت في مخالبه. احتضنت الأمهات أطفالهن، واحتوى الرجال النساء، وأحاط الشيوخ الرجال، يرهفون السمع لفحيح الخرقة المشتعلة التي ستهوي فوقهم خلال ثوانٍ. وأحالهم ذلك لتذكر المقذوفات التي تنهال عليهم من الطائرات المميتة التي حلقت فوق قراهم النائية في الجنوب.

انفجر اللهب وزحفت ألسنة النار فوقهم، غير عابئين بالصراخ والعويل الذي يصم الآذان، بعضهم قفز خارج دائرة النار متدحرجًا على الأرض في محاولات يائسة ليطفئ النار بالتراب، لكن أُجهز عليهم بالرصاص أو بالسيوف. آخرون بدوا كأنهم يبحثون عن ميتة سريعة ترحمهم من التقلب على النار حتى التفحم.

وصل دينق بول المحطة، ووقف مذهولًا، تلقفه رجال الشرطة القليلون الذين عجزوا عن حماية الجميع، حشروه حشرًا في إحدى عربات القطار مع قومه، وأوصدوا الباب الحديدي خلفه، ووقف هناك شرطي متأهب ببندقية يحرس الباب، ومن خلال ثقب صغير

شاهد دينق كل شيء كأنه دخل مرة أخرى في نوبة كابوس مزعج، والآن يرى قومه يتقلبون في اللهب ويتساقط بعضهم فوق بعضهم، فتستعر النار أكثر وأكثر في رقصة جنونية لا تهدأ.

اختلطت أصوات المستغيثين بأصوات المعتدين التي تزمجر مسعورةً.

لم تكن الأجواء داخل المقطورة أفضل من خارجها؛ فانتظار المصير المجهول أمر رهيب، وكل لحظة كانت عبارة عن ميتة صغيرة. بدأ الهواء ينفد، وثقلت الأنفاس، وارتفعت درجة الحرارة داخل عربة الحديد، وشعروا بالحديد نفسه ساخنًا من تحتهم ومن فوقهم وعلى الجوانب..كأنهم داخل فرن. انتبهوا أن الأهالي الذين أعماهم السعار قد أشعلوا النار تحت العربة لإجبارهم على الخروج بعد أن وضعوا الحواجز على القضيب، يا لذكاء البشر في الشر! بعضهم لم يحتمل الاختناق، وعندما خرجوا طمعًا في جرعة هواء، استقبلتهم رصاصة أو ضربة سيف أو الموت سحقًا بضربات متتالية بالهراوات تمامًا، كما يفعلون بالكلاب المريضة التي أصابها السعار.

تمكن الدخان من النفاذ إلى داخل القطار من خلال فتحات ضيقة بين الحديد لاعقة جلودهم، الدخان يتمدد ليخنقهم، يسعل الناس. «كتلونا خلاص»، صرخ أحدهم باكيًا.

أخذ الأهالي يرمون الجازولين على منافذ القطار، حينما وقف دينق على الباب، فبلله السائل كاملًا، التقط أول اللهب وبدأ كله يحترق، ازداد الصراخ، ظل يخاطب الناس ليبتعدوا عنه لكيلا تمسكهم النار، وقف في مكانه جازًا على أسنانه مغمضًا عينَيه بشدة،

والنار تأكله بشراهة، إلى أن رمت إحدى النساء إليه ثوبًا، وتلا ذلك رميه بأقمشة عديدة إلى أن غُطِّي تمامًا، فأخذ يفقد الإحساس بلسعة النار، وتباعدت الأصوات إلى أن اختفت تمامًا، وكان آخر شيء مر على ذهنه أن هناك مَن أطفأ الشمس.

تواصل إجلاء الضحايا أيامًا، وظل الموت يتبختر في الشوارع والأزقة، تبعثرت الجثث المتفحمة والمقتولة بالرصاص هنا وهناك، وأخرى داخل البيوت لم يكتشفها أحد بعد.

سيطرت حالة من الرعب العام على أهالي المدينة. وسرى الخوف في أوصالهم كما تفعل الرياح الباردة. يترقبون بجزع، ربما يترتب على فعلتهم هجوم انتقامي مضاد من المتمردين الذين يجوبون على مقربة من حدود مدينتهم منتقمين لبني جلدتهم الذين ماتوا حرقًا. الشيء الأكثر رعبًا أنهم سمعوا عويل المحروقين يتردد في دهاليز آذانهم باستمرار. وسرت شائعة أخرى تقول إنهم رأوا الموتى يتجولون في الظلام ينادون القتلة بالاسم، وتلك الأشباح المحروقة ومقطوعة الأعضاء تفاجئ المارة في أكثر الأزقة حلكة. وتبحث الأمهات الميتات عن أطفالهن المختطفين، ويطرقن الأبواب بشدة، ولكن لم يجرؤ أحد على فتح بابه، خاصة بعد غروب الشمس. كانوا يتنفسون الخوف، ويخشون النوم خشية انقضاض مفاجئ من أشباح الليل. وبقي الرجال مترقبين أصابعهم على الزناد في انتظار هجمة مجهولة.

***

دخلت المدينة في حالة طوارئ، ما جعل حسنًا يقرر العودة إلى الخرطوم. حتى أن جلاء اندهشت لعودته السريعة على الرغم من عدم مرور أسبوعَين على سفره، لاحظت أنه شاخ فجأةً، صار أكثر نحافةً وغارت عيناه، وشعره أشعث، وشارد الذهن، ربما تعرض لاعتقال جديد وعُذب، لكن لماذا؟

سألت في قلق ممرِّرةً يدَيها على جسمه: «ما لك يا حسن؟ اللي حصل ليك شنو؟».

لكأن سؤالها فجَّر وجعه. أسند رأسه على كتفها مرددًا: «نحن كعبين شديد يا جلاء»، بينما جرت دموع ثخينة على خدَّيه.

تركته يذرف عبراته بين ذراعَيها، وجرى دمعها هي الأخرى قبل أن تعرف ما يعنيه، حسن لا يميل إلى التعميم بوصف الجميع بالسوء ما لم يحطم أمر جلل قلبه، لدرجة عدم قدرته على الكلام. انسحب منها متوجهًا إلى غرفتهما، ليرمي ثقله متكورًا فوق السرير كجنين. أطبق جفنَيه فوق تلك العينَين اللتَين رأتا أكثر مما يجب. ففي الأيام الفائتة تعرف على الوجه المخيف للريف الذي أحبه، لقد شهد ظلمه وقدرته على الإبادة أيضًا.

أشفقت جلاء على حالته. تمرر كفها على جبينه خشية أن يكون مريضًا، وتسأله أسئلة كثيرة قلقة، وكانت الإجابة الوحيدة مزيدًا من الدموع، فكفت عن طرح الأسئلة حتى يهدأ. وبقيت قربه، تناجي الله في سرها من بين دموعها: «الله يكسر اللي كسر قلبك يا ود عباس».

لم ينوِ حسن النوم، أراد إغلاق عينَيه على المشاهد الفظيعة التي رآها، عساه أن يمحوها، ولكن تتابعت الصور، وبدأت أصوات

الاستغاثة تعلو وأصوات المسعورين ترتفع متوعدة بالموت. غرز إصبعَيه داخل أذنَيه لكيلا يسمع صراخ الضحايا وبكاء الأطفال، لكن فشلت المحاولة لأنها تأتي من داخل عقله. أخذ ينكمش على ذاته حتى صار بحجم الوسادة.

بعد ساعات من القرفصة، أحضر دفترًا وشرع يكتب. راقبته جلاء طول الوقت دون أن تنطق كلمة. كان يضغط على القلم بعصبية، يمزق بعض الصفحات بعنف، ولكنه استمر يكتب ساعات دون توقف، كأنه يسابق انطفاء ذاكرته. وعندما انتهى، كان الفجر على وشك الانبلاج، فغفا على كرسيه ورأسه على المنضدة.

في الصباح أيقظته جلاء لينام على السرير، خلعت حذاءه، وبدأت تفك أزرار قميصه ليرتدي شيئًا مريحًا. عندما أصبح في السرير، نظر عميقًا في عينَيها قائلًا: «عايزك»!

ذُهلت جلاء لطلبه ممارسة الحب هكذا فجأةً، قالت في تردد: «ولكن..».

قال حسن بصوت حازم ممزوج برجاء: «تعالي أرجوكِ».

فما كان منها سوى الاستسلام. مارس معها الحب بعنف غير معهود، وانتهى كل شيء سريعًا، بدأها وحده، وأنهاها وحده. قام من فوقها، وارتدى ملابسه، ونام حالًا، ووجهه على الحائط. شعرت بإهانة تتنامى في صدرها، ولكنها فضلت الصمت، لأنه في وضع يُرثى له. فاستغرق في نوم عميق.

***

لم يستيقظ إلا بهزة عنيفة من جلاء التي تخبره بصوت متوتر كأن مصيبة حلت بالبيت قائلة إن أمها ليست بخير، فقفز حسن، واستبدل ملابسه سريعًا. ساعدها في نقل الأم التي تخور كالثور بوعي غائب، وقاد السيارة بجنون، وبين حين وآخر يلقي نظرة عبر المرآة الأمامية نحو جلاء المنشغلة تمامًا بفرك أطراف العجوز والدموع تملأ وجهها. وحين وصلوا، أُدخلت الأم العناية المركزة حالًا، وبقيا في الرواق، بينما يعمل الأطباء على إنقاذ المريضة.

حدثت جلبة بعد قليل، وساعد الممرضون في إنزال عدد من الجرحى بإصابات عديدة، محروقين ومطعونين ومجدوعي الآذان والأنوف بوجوه متورمة.

من هيئتهم عرف حسن أنهم الناجون من المذبحة، كان أحدهم في حالة حرجة ملفوفًا كاملًا بالشاش، ورائحة لحمه العفنة فائحة، حتى غطى الناس أنوفهم. وسريعًا ما بدأ الناس يثرثرون عما حدث، همس حسن في أذن جلاء: «دا اللي ما قدرت أكلمك عنه، أنا عشت اللحظات دي، وشفت كل حاجة، برضو ما قدرت أعمل حاجة، كنت عاجز!». وضعت جلاء يدها على فمها وهي تحدق في الجرحى، وترى الأطباء يتجمعون حولهم.

وفي أثناء انشغالهم بمشهد الجرحى، وقفت أمامهم ممرضة ممتلئة الجسم بشعر معقوص للخلف ملامحها مريحة كنسمة تتسلل عبر كوة في أثناء نهار قائظ.

قالت بعربي مكسر: «انتو مع المريضة فوزية؟».

هبت جلاء واقفة: «أيوه، أمي كويسة؟»، سألت وهي تخترق عينَي الممرضة، لتقرأ ما وراءهما.

أخبرتهما أنها بحاجة للأدوية المكتوبة في الوصفة. فخطف حسن الورقة من يدها، وركض خارجًا. همت بالعودة، ولكنها سمعت صوت جلاء القلق يسألها: «أمي كويسة؟».

ابتسمت الممرضة مربتةً على كتفها: «إن شاء الله خير».

بعد ذلك أخبرتها الممرضة بأنه لكي تتجاوز أمها مرحلة الخطر تحتاج بعض الوقت، فخاصة في حالة الجلطة الدماغية يصبح الأمر بطيئًا. فُوجئت جلاء بذلك، لكن الممرضة طمأنتها بأن الأطباء يبذلون ما في وسعهم، وعليها أن تصبر.

شكرتها جلاء، وجلست على مقعدها برأس مثقل بالهواجس. وغمرها شعور بالألفة تجاه الممرضة لا تدري مصدره. عاد حسن بالعلاج المطلوب، وجاءت الممرضة مرة أخرى لاستلامها. سحرتهما بابتسامتها الهادئة دون أن تنطق كلمة.

شكرت حسن بإيماءة من رأسها، وعندما استدارت لتعود، سألتها جلاء: «ما اسمكِ حتى إذا احتجتُ أن أسأل عن أمي؟».

- اسمي سلام.

مدت جلاء يدها لتصافحها: «أنا اسمي جلاء».

تجمدت سلام، أخذت تنظر إلى جلاء ضامة أصابعها بقوة، ثم مدت يدًا مرتجفة نحوها، وطالت المصافحة، كأنها تريد أن يتعرف الدم على الدم. سرى في أوصالها شيء من الفرح، فرح اللقاء غير

المتوقع. ها هي أختها أمامها. جلاء أيضًا لم ترد إنهاء تلك المصافحة التي أشعرتها بالطمأنينة. بقيتا تتبادلان النظرات، إلى أن قاطعهما حسن بلطف معرفًا نفسه، نزعت يدها من كف جلاء، وصافحته عجلى، وهرولت راسمة ابتسامة مرتبكة على وجهها. راقبت جلاء خطواتها المسرعة، وعلقت بعد أن اختفت سلام بالداخل: «البت دي ودودة». لم تتلقَّ رد فعل من حسن. وانتبهت أنه ابتعد عنها، وأخذ يتجول هناك وسط الجرحى، يتفقدهم واحدًا واحدًا، ويسأل عن أسماء بعينها. عرف أنه قُتل مئات، وقليلون جدًّا مَن نجوا من المذبحة. وبعد تردد سأل عن دينق بول مقاومًا رغبة الهرب قبل سماع الإجابة، لدرجة أنه ندم على طرح السؤال أساسًا. في بعض الأحيان يصبح الشك أكثر رحمة من اليقين بوقوع الفاجعة. أراد حسن أن يحمل ذاك الوَهم إلى الأبد، وَهم أن صديقه لا يزال حيًّا ونجا بطريقة ما.

رد جريح بوهن: «دينق بول ياهو داك، الملفوف بشاش، هو حرقوا حريق شين، احتمال ما يعيش زاتو».

نظر حسن تجاه ما أشار إليه الرجل، فرأى جسمًا ملفوفًا، مستلقيًا دون حراك. ورأى سلام تهرول أمامه مفسحة الطريق لعبور ذاك الجسد المضمَّد كمومياء عائد من ظلامات التاريخ.

الفصل السّابع

النّاجي

عادت سلام إلى البيت من عملها متأخرة عن المعتاد. تفاجأت به شبه خالٍ إلّا من أُسرة ماركو. الأشياء مبعثرة هناك، كأن عاصفة هوجاء مرت، ونفضت الناس إلى مكان ما. اختفى نزلاء الحرب، ولف الصمتُ المكان، سكتت دمدمة النساء العصبيات، وصراخ الأطفال الغاضبين. اختفت ظلال المراهقين المزعجين معطوبي الأمزجة، الذين يجوبون أرجاء البيت بنشاط زائد دون سبب واضح. اختفى الرجال الساخطون من تحت الشجرة الذين يتتبعون ظلها الذي يميد مغيرًا موقعه مؤتمرًا بأمر الشمس. حتى العجائز والمرضى المُخترَقون بالدود والسل اختفوا.. اختفى الجميع بغتةً ودون سابق إنذار.

وقفت سلام في الحوش الذي صار فسيحًا ومكشوفًا، تلفتت حولها تقلب كفَّيها متسائلة. ثم سمعت نحيبًا يأتي من ركن ما، وصوت لوسي الباكي يقول: «مشوا المعسكر».

سلام بدهشة: «معسكر وين؟».

شرع أطفال لوسي يتحدثون دفعة واحدة كعادتهم عندما يتحمسون. عرفت سلام أن تلك المرأة -المطرودة بعد عراك عظيم- قد عادت وأخبرتهم أنها تسكن في مخيم أُنشئ تحديدًا للنازحين. وباستطاعة

الجميع الحصول على قطعة من الأرض لبناء بيته الخاص، بالإضافة لمساعدات جمة من الخواجات.

على أثر ذلك تبعها الجميع كالعميان؛ رغبة منهم في وضع أفضل من هذا الاكتظاظ. كان بعض أطفال لوسي المشاغبين يرفعون أيديهم للسماء ويحمدون الله من وراء ظهر أمهم لأن بيتهم عاد إليهم أخيرًا، لقد انتهى عهد الزحمة فجأةً. علمت سلام أن لوسي حزينة لرحيل أهلها من البيت. بذلت إيانق وسلام جهدهما للتخفيف عنها، ولكن دون جدوى، إلى أن وعدتها سلام بمرافقتها كل أسبوع لزيارتهم في المخيم لتهدأ قليلًا.

حينما دلف ماركو إلى البيت، تفاجأ من خلوّ المكان كما حدث مع سلام. وقبل أن يسأل، بدأ أطفاله في سرد الحكاية مرة أخرى، يخطفون الكلام من ألسنة بعضهم، ويرفع كل واحد عقيرته حتى يطغى صوته فوق الجميع، بعضهم بهزة عنيفة في أنحاء جسمه، أو يلف رأسه يمنةً ويسرةً، وبعضهم يربت على ردفَيه ويشده من بنطاله، المهم وصلته خلاصة الأمر. ضحك عندما ركز مع إيدو الصغيرة وهي تلوح بيدَيها النحيلتَين لإضافة تفاصيل نسيها إخوتها، كانت تقلد الحوارات وحركات الجسد بدقة، جعلت الجميع يغرقون في الضحك. تنفَّس ماركو الصعداء، ويجب ألَّا تلاحظ لوسي علامات الارتياح على وجهه؛ فلن تتفهم كم كان العبء ثقيلًا عليه. هي لا تدرك كيف قضى لياليَه مفكرًا في توفير الاحتياجات اليومية لمجموعة من البؤساء الذين فقدوا كل شيء خلال موجة الحرب المجنونة.

صرف أطفاله طالبًا منهم تنظيف البيت وإعادة كل شيءٍ إلى ما كان عليه. بسرعة انتشروا في الحوش والغرف وتحت الشجرة، منفذين أمر أبيهم.

دخل ماركو غرفته، بعد أن عرف انشغال لوسي وسلام في ثرثرة هامسة في الداخل.

فتح جهاز الراديو المكسوَّ في جراب من الجلد، يلف القرص البارز بحثًا عن الموجة المناسبة، جاءت الأخبار مبتذلة مما يعني أنها منقحة بعناية، والهدف منها الإثارة وتعبئة المواطنين لتبني موقف الحرب. وسمع أخبار المذبحة التي جاءت مقتضبة كخبر حادث مرور عابر، وكيف سيطرت الحكومة على الأمر، وتتكفل بعلاج الجرحى الذين وُزِّعوا على عدد من المشافي، بعضها في الخرطوم.

ولمعرفة الحقيقة حوَّل الموجة إلى إذاعة البي بي سي البريطانية ذات المصداقية العالية بالنسبة لعدد كبير من المواطنين. استمع إلى ما ورد فيها، كان الأمر مختلفًا، وعلم تفاصيل المذبحة التي وقعت، مما جعله يمتلئ غضبًا. ولتبديد غضبه حوَّل موجة الإذاعة إلى إذاعة المقاومة المسلحة. هنا أيضًا يسمع الوجه الآخر للقصة، يشعر بالتشفي عندما تفضح مواقف الحكومية التي تريد تشويه الحركة الثورية. بعد انتهاء الأخبار التي حقنت فيه الحماسة وشعور الفخر بسبب الانتصارات المتكررة لثوار، بدأت فقرة ترديد الأغنيات الحماسية بلغات محلية عديدة، كان هدير الأصوات ينفذ إلى قلبه مباشرة، مصحوبة بإيقاعات مهيبة مصدرها آلاف الأكف التي تصفع البنادق، بينما أرجلهم تدك الأرض دكًّا. شعر بقربهم كأنهم

على مرمى حجر، الأمر الذي جعله يشتعل حماسًا، مد يده متناوِلًا ذاك السيف المعلق على الجدار، كان ضمن مقتنيات بيتر التي تركها خلفه. واستقام واقفًا وأخذ يردد الهتافات، ضامًّا صوته لجوقة المحاربين في الغابات البعيدة، صافعًا الغمد السميك كما يفعلون بالبنادق، مضيفًا إيقاعه الخاص معبرًا عن احتجاج يعتمل في صدره. خُيِّل أنه سمع طرقًا خفيفًا على الباب، ولكنه تجاهله، كان غائصًا في أحلام يقظته النضالية يصوب السيف في زوايا غرفته الصغيرة، ثم فجأةً انفتح الباب بعنف، واقتحمت لوسي عزلته.. الأمر الذي جعله ينتفض وصوَّب نحوها السيف كبندقية متخذًا وضع القتال. صرخت وهي تحمي جسمها بيدَين تضربان الهواء. ارتبك ماركو أكثر محاولًا إسكاتها، اتجه نحو الجدار معلقًا السيف في مكانه. كان متذمرًا من عدم استئذانها قبل الدخول. نبهته بخفض الصوت، محذرة من خطورة الاستماع لهذه الإذاعة: «يكفي ما حدث لبيتر، نحن في غنى عن مصادمة الحكومة الآن». خفض الصوت إلى أقل درجة. ثم أوقف الجدل عندما رأى ظل سلام خلف لوسي.

نظر إليهما مليًّا، ينتظر معرفة سبب اقتحامهما خلوته بهذه الطريقة التي تشبه مداهمات رجال الأمن المخيفين.

في كلمات قليلة عرف أن سلام التقت جلاء، وكيف خدمتهما الصدفة في هذا اللقاء. وكيف أن الخوف منعها من أن تفشي سرها لأختها، وكذلك عدم تناسب الظرف. حاول ماركو أن يهدِّئ انفعالهما قائلًا إن لكل حدثٍ وقته المناسب. ثم أخرج مبلغًا من المال من محفظته، وناوله للوسي لتجهز نفسها وتعد طعامًا لزيارة المستشفى غدًا.

لم تنم سلام تلك الليلة، كانت لحظة لقائها جلاء تُعاد أمام عينَيها، كان حضورها قويًّا في ذاكرتها، كأنها تتشبث بها حتى لا تفقدها مرة أخرى. تعد الساعات حتى تعود إلى عملها غدًا لتكون قريبة منهم، حتى ولو كان قربًا غير مكتمل الأركان.

***

انطلقت أصوات منخفضة من الأجهزة التي تقيس الوظائف الحيوية للمريضة، لقد استقرَّت حالتها، ولكنها ظلت مغمضة العينَين غارقة في السُّبات. أخذت تتأمل وجهها المستدير الخالي من التجاعيد، وتلك الشلوخ العريضة تحط على خدَّيها كخطوط القدر، تتأملها بصمت وذهنها يلوك الحوارات والأسئلة مع هذا الجسد المسجَّى أمامها.

كانت الغرفة ضيقة بحيث فرضت التقارب، تجول بنظراتها بين وجه فوزية والأجهزة التي تصدر صفيرًا دون توقف.. كان اللون الأخضر الباهت يعطي إشارة أن كل شيء بخير. اقتربت أكثر، وضعتْ يدها فوق يد المريضة كأنها تقيس حرارتها. عندما فعلت ذلك، قفز سؤال إلى ذهنها: هل تعرفها؟ وهل أسر إليها زوجها يومًا بأن لديه ابنة من امرأة أخرى؟ فتح كل سؤال فيها جرحًا، شعرت بعبرة تخنقها، انهمرت دموعها، تعلم أن الشجاعة التي تشعر بها بسبب أن كلًّا منهما في عالم آخر، هي في الواقع والحاجة فوزية في غيبوبتها. هكذا هي دائمًا تفصلها العوالم عن كل شيء. فجأةً أخذت الخطوط الهرمية لإشارات القلب تتقارب من بعضها وتختلط، وعلا صفير من جهاز الأُكسجين. تملكها الرعب، لم تدرِ ماذا حدث. حدقت

بعينَين جاحظتَين في تلك الإشارات التي تتعارك في خضم دموعها. اتجهت إلى هاتف الطوارئ الموجود أمامها، طلبت الطبيب، وسريعًا جاء الفريق راكضًا. سألوها عما حدث. تحدثت بارتباك ولسانها يتعثر بلهجة الجنوب العربية، لم يفهمها الطبيب الذي قاطعها بنفاد صبر وحزم: «اتكلمي بالإنجليزي، ممكن؟».

استعادت سيطرتها على نفسها ومشاعرها التي تتلاطم ضاربة أفكارها التي تشتت في كل حدب وصوب من هول ما حدث، شعرت بوخز في ضميرها كأنها السبب في تدهور حالة الأم. ورسمت مظهرًا رسميًّا على وجهها، أخذت تتلو ما حدث مع المريضة بلغة طبية جامدة، كأنها تقرأ تلك المعلومات من كتاب مفتوح أمامها. وشعور الرفض يتصاعد داخلها ويملأ قلبها بالمرارة. إنها لا تخطئ في وصفه، لقد اختبرته مرارًا وتكرارًا عندما كانت طفلة في قرى الجنوب البعيدة، تدفع عنها وصمة الغُربة؛ فالضيق الذي أبده الطبيب من لهجتها، أعادها إلى الماضي.. وقفت جامدة وتقي نفسها بالصمت، لكأن سكونها يساعدها على التلاشي. هنا في مكان عملها الجديد ابتكرت طريقة أُخرى وهي التمترس خلف تلك الشخصية الآلية الجادة.

طلب الطبيب دواء لحقن المريضة، وكان معه مساعدان آخران، تراجعت سلام للخلف، ألصقت ظهرَها على الجدار، واعتصرت أصابعها قلِقةً، أبقت نظراتها على وجه المريضة، من فوق أكتاف الأطباء، أو من خلال الفتحات التي تتبيَّن مع حركات أجسادهم المتجاورة وهم منكبون على إنعاشها، لم تستطع السيطرة على نبضات قلبها، وهي تناجي في سرها ألَّا تموت الآن.

بعد دقائق من المحاولات، استقرت حالة العجوز، عادت كل القراءات طبيعية إعلانًا عن استقرار الحالة، حينها تنفست سلام الصعداء.

شكرها الطبيب بابتسامة مضيئة طمأنت قلبها الواجف، مراقبتها اللصيقة للمريضة كانت سببًا من أسباب نجاتها.

صافحها الفريق بامتنان على يقظتها وكفاءتها. تتحاشى سلام تبادل الحديث مع زملائها الأطباء والممرضين، لا تحتمل مدى دهشتهم وهم يستمعون إليها وهي تحطم اللغة العربية تحطيمًا، ففضلت الصمت أو التواصل بالإنجليزية إذا لزم الأمر.

تذكرت أمها، عندما كانت تستميتُ في حمايتها لإخفاء انتمائها الذي يمتد شمالًا بحلق شَعرها، والآن ها هو لسانها يفضحها، هي في الشمال، ولكن سهم لسانها يشير جنوبًا، وهي مرهقة تمامًا من تفسر كل شيء.

أخذت تفكر هل شعرت الحاجة فوزية بها؟ هل سمعتها وتفاعلت معها بهذه الكيفية المرعبة؟! انسحبت من قربها، تُلقي نظرة عبر النافذة، وترنو نحو الأرض، لمحت جلاء تنظر بعيدًا ويعلو وجهها الغم، ويحتضن حسن يدها بين كفَّيه. لا يعلمان بعد ما حدث!

وفجأةً سمعت صوتًا خشنًا ينخر رأسها من الخلف: «روزا.. اللي جابك من الجنوب شنو؟».

التفتت لتصطدم بنظرات الحاجة المتحفزة الغاضبة كأنها على وشك أن تنهض وتضربها، غلبها الكلام وتحركت حذرةً نحو هاتف الطوارئ مرةً أخرى، وأخبرت الطبيب بأن المريضة استفاقت من الغيبوبة.

وضعت السماعة بطيئًا، وكانت مستعدة للقفز من النافذة إذا ما بدر من العجوز شيء. جف ريقها كأنها ابتلعت حفنة من الدقيق، تحاول تهدئه نفسها قبل وصول الطاقم الطبي.

جاء الأطباء أخيرًا، امتلأ المكان بهم، شرعوا في إجراء فحوصات كثيرة للتأكد من استفاقة الحالة تارةً بتسليط الضوء على حدقتَي العين، وتارةً بطرح الأسئلة على المريضة، تجيبهم بنظرات غاضبة تصفع بها وجوه الجميع. تحاشت سلام أن تلتقي أعينهما، ووقفت على مسافة كافية. إلى أن أمرها الطبيب بمناداة مرافقتها، جاء طلب الطبيب سانحًا للهرب.

وقفتْ على بعد مسافة، ونادت جلاء، تردد صوتها في المكان، فتراجعت همهمات الزوار لثوانٍ. لأول مرة تنطق اسم جلاء. غمرتها متعة ما، وأخذت تردد الاسم بينها وبين نفسها. هبت جلاء واقفة، وحاولت قراءة ما تحمله سلام من أخبار غلفتها بمظهرها الودود. سددت نظرات مليئة بالأسئلة التي لم تستطع النطق بها. ولكن سلام طمأنتها بابتسامة تقول بأن الام بخير قبل أن تغرق في الأفكار المتشائمة. فما كان منها إلَّا أن هرولت نحو سلام وعانقتها طويلًا. مرة أخرى ها هي الفرصة تأتيها، وتضعها على حافة إفشاء سرها. هذا التلامس يصيبها بالوهن، تتمسك بخيط واهٍ يُبقيها على قيد الصبر.

تريد أن تصرخ الآن هنا أمام الجميع: «أنا أختكِ ابنة أبيكِ، أنا سلام محمد عبد السلام». كادت تنجرف مع مشاعرها المضربة وتقول كل شيء دفعة واحدة. ولكنها نجحت في مقاومة تلك المشاعر، انتزعت نفسها برفق من بين يدَي جلاء، وأشارت إليها لتتابع طريقها لأن الطبيب في انتظارها.

بقي سلام وحسن يحدقان في بعضهما لثوانٍ، حاولت سلام الابتسام، ولكن وجهها تجمد دون حراك. ثم لمحت ماركو ولوسي يدخلان من البوابة ويجوبان المكان بحثًا عن جلاء وحسن. استأذنت من حسن على عجل وعادت من حيث أتت. كانت غرفة فوزية تحاذي غرفة ثانية، وهي الغرفة التي يرقد فيها دينق بول. دلفت دون صوت، اخترقت رائحة المعقمات أنفها.

دينق بول مسجّى دون حراك مغمض العينَين يلوك ألمًا بجلد نادر، عندما اقتربت أكثر شمت رائحة جسد يتعفن معروضًا كاملًا للهواء بلا جلد يغطيه، يتراءى لحمه المسلوخ المحمر تحت الضمادات التي التصقت بالقيح.

جلست هناك تفكر في الحجة فوزية التي خاطبتها باسم أمها روزا، هل تعرف كل منها الأخرى؟ هل التقتا من قبل؟ وهل سمعت عنها؟ على الرغم من ردة فعلها المخيفة إلا أن ذلك يمنحها بصيص أمل بأنها أو أمها لم تكونا سرًّا دُفن في قبر مع الأب، على الأقل هناك مَن يعلم عنها شيئًا، حتى لو كانت في شخصية العجوز الحاضرة والغائبة في آن واحدٍ.

أسندت رأسها بين يدَيها مستغرقة في التفكير. سمعت نحنحة ثم بصوت واهن قائلًا: «شكرًا لاهتمامك».

أشارت واضعة إصبعًا فوق شفتَيها بأن اصمت مردفة: «ما تشكرني، دا واجب حقي».

حاول دينق الابتسام، ولكن لحم وجهه انكمش بطريقة مزعجة، لقد ذابت أنسجته معًا، أي حركة منه كان يعني أنه سيمزق أنسجة بدأت في الالتئام فتنز دمًا وسوائل لزجة.

كان يحاول فتح عينَيه التي أكلت النار رموشهما، وبقيتا جفنَين عاريَين، سألها بإعياء: «اسمك منو؟».

أجابت بسرعة كأنها تبصق شيئًا مرًّا: «سلام».

اهتز دينق في ضحكات مكتومة: «سلام عديل كدا؟ كويس عشنا وشفنا سلام بلحم ودم».

تنهدت مرددة في سرها: «حتى أنت يا دينق تريد أن تسخر مني». تحملت مزاحه الممزوج بالمرارة على مضض، لم تخبره أن لها اسمًا آخر مرادفًا للحرب، اسمًا صادقًا ومعبرًا عما يحدث منذ الأزل، وتشعر به الأقرب إلى ذاتها ووعيها المحفور بالرصاص والكراهية.

تجاهلته، لبست القفازات المطاطية بعصبية، أخذت تزيل الضمادات المشبعة بالفازلين والإفرازات، كشفت جسمه المحروق، وبدأت عملية التعقيم بكتل القطن المثبتة على مقص معقوف، تحك وتكشط لإزالة الخلايا الميتة المتقيحة حتى النزف. تغير قطعة القطن، وتواصل التعقيم بصبر وتأنٍ، محاولةً ألَّا تُسبب له الألم.

تابعت عملها، أسندته في وضع الجلوس، الجروح متضررة بسبب الاستلقاء الطويل، سألته هل هناك ما يؤلمه. «روحي!»، أجاب بهمس، كمن يتكلم في أثناء الحلم. «روحك؟!»، رددت في دَهِشةً، قال: «ليه أنا حي لحدي هسه؟». ردت: «نحن بنموت لو زمن الموت جا». لم يجبها، راقبت وجهه، عيناه تجولان تحت جفنَيه كأنه يطارد أخيلة ما. يجز على أسنانه.. ولم تعرف هل هو غاضب أم متألم أم نادم على شيء!

ربما النجاة، لعبته الوحيدة التي يجيدها على الرغم من الاعتداءات الكثيرة على مجموعته، ها هو لا يزال حيًّا، وقد ينجو. كما يحدث في كل مرة بمعجزة. يتذكر كيف حُرر بواسطة رجال قبيلته الأشداء في أثناء إحدى الغارات على قريته، ومرة ثانية أُطلق سراحه بعد اتفاقيات المصالحة التي تتم بين القبائل المتناحرة. في إحدى الغارات المباغتة من قِبل العرب، اختطفت أمه وأخته. هام بحثًا عنهما، مشى أيامًا على قدمَيه متاخمًا لقرى الرعاة المعتدين، عساه يلمح أمه. وخلال ذلك أُسر أيضًا. ولحسن حظه سُلِّم ليخدم في دار ناظر القبيلة. عندما تصالحت القبائل لوضع حد للاقتتال، كان نتيجة ذلك أنه عاد مرة أخرى إلى حضن القبيلة، ولكن دون أمه وأختَيه.

في النهاية قرر عمه إبعاده عن هذه الفوضى، فألحقه بمدرسة ليتعلم. فلم يجلب له التعليم غير مزيد من الشقاء، بفتح نافذة جديدة ليفهم ما يدور حوله، فامتلأ بالغبن والكراهية، وظل غياب أهله جرحًا مفتوحًا ينزف دومًا.

حرص أن يعمل معلمًا في مدارس في تلك المنطقة المتاخمة لحدود الجنوب، يتبع حدسه الذي يلح عليه أن أمه وأختَيه محبوسات في أحد البيوت، تغلي الدماء في رأسه عندما يتخيل فقط كيف يُعاملن. في النهاية فهن مجرد إماء، عليهن الطاعة كخادمات، ويصلحن أيضًا لإخماد شهوات الرجال. ربما أنجبن أطفالًا منبوذين لا يعرفن مَن آباؤهم، تلك حكاية أخرى. لم تنجين من كل ذلك، ولكن دينق ينجو مرارًا وتكرارًا، وبقعة من العار تتسع في قلبه وعقله. يخطئه الموت عمدًا إمعانًا في تعذيبه.

وقفت سلام عاقدة يدَيها فوق صدرها، تتأمله بقلب مفطور. لقد سمعت ما حدث في تلك المدينة البعيدة التي تقع في غرب البلاد. وكيف اهتاج بعض الناس وارتكبوا مجزرة في حق قومه العُزَّل.

فتح عينَيه لحظة، لمح دموعها المنهمرة قال: «لو بكينا سنين الحزن ما ح يفارقنا، أنا لحدي هسه ما مصدق اللي حصل، كأني محبوس في كابوس عايز أصحا منه وما قادر، داير أبكي زيك لكن ما قادر».

أجهشت كأنها تذرف دموعها نيابةً عنه. سمعا طرقًا خفيفًا على الباب، انتبها بغتة، ردت سلام وهي تمسح دموعها بظهر يدها: «نعم؟».

«أنا حسن عباس، عايز أشوف دينق»، ارتسم طيف انزعاج على وجه دينق، تجاهلته سلام؛ رغبة في أن يتدخل شخص آخر ربما يفلح في مواساته؛ لأنها فشلت في ذلك. وطلبت من حسن الانتظار قليلًا ريثما تكمل عملها.

فتحت الباب ووقفت خلفه، دلف حسن بطيئًا، لم يتعرف على دينق مغمض العينَين، كأنه يخفي ما يجول في رأسه من أفكار، وما يعتمل في قلبه من مشاعر. رؤية صديقه بهذا الحال كأن آخر حصونه تنهار أمامه، جثا على الأرض يبكي ويعض على قبضة يده، سحبت سلام كرسيًّا وساعدته ليجلس، همست في أذنه: «خليك قوي؛ عشان هو محتاج ليك».

مَن يحتاج إلى مَن؟ الكل مثقل بآلام جمة وشعور عام بالخزي.. فمن أين يستمدون القوة؟ كلُّهم يتكئ على جدار هش قد ينهار ليكشف ضعفه. لم يستجب حسن لرجاء سلام بالتجلد. لا يمكنه التظاهر بالقوة أمام صديق يعرف عنه كثيرًا. استمر في البكاء وهو يغطي وجهه بكفَّيه. انسحبت سلام لتتكئ على النافذة الموصدة بإحكام. لم تستطع هي الأخرى إمساك دموعها، تركت عبراتها تنساب بصمت.

ضمتهم غرفة العناية الصغيرة هم وحزنهم الكبير على كل شيء، حزن للعجز الذي يكبلهم، مستسلمين لمصيرهم المجهول في هذه البلاد التي تجتر عنفها في كل حين.

دينق مغمض العينَين يتنفس بصعوبة: «ما تبكي يا حسن، خلاص الدم والموت بقى مصير البلد دي، ما معروف ح ينتهي متين، ح نحلم بالسلام طول عمرنا».

ثم أشار نحو سلام قائلًا: «قالت اسمها سلام»، وضحك مرة أخرى، «مضحك جدًّا ح نحتاج نسمي الاسم دا كتير؛ لأنه بيذكرنا بحوجتنا للسلام».

لكن سلام قالت بحنق كأنها تدفع عما التصق بها من افتراء، كاشفة عن اسمها الآخر، الأكثر التصاقًا بالحرب: «إيريم»؛ اسم صادق مستمد من معنى الحرب نفسه، يخترق السمع كرمح يعرف تمامًا أين يُسدِّد طعناته الغادرة.

الفصل الثَّامن

دينق بول

نُقلت الحاجة فوزية إلى غرفة العناية المتوسطة، وكان هذا مريحًا لسلام لتتفادى نظراتها الغاضبة التي يعلوها ضجيج صامت. حتى بعد أن لاحظت أنها تصوب تلك النظرة للجميع؛ جلاء وحسن والأطباء أيضًا. تطل من ذاكرتها بهذا الوجه الساخط، فالحاضر بالنسبة لها عالم طارئ، تقتات عليه لتغذية ماضيها. وتساءلتْ سلام في أعماقها: إلى أيِّ مدى تستطيع هذه العجوز الإبحار في الماضي؟ وهل باستطاعتها كشف الأسرار المدفونة بعناية في تلافيف الزمان؟! ترغب بشدة في أن تظل قربها، تتلصص عليها كما تفعل الساحرة في مرآة بلورية؛ ربما أفلتت سرًّها على حين غرة. رُبما اعترف لها عبد السلام بأن لديه عائلةً أخرى. هل غضبت حينها؟ هل شعرت بالمهانة لوجود امراة أخرى في حياة زوجها؟ سلام متيقنة من أن الحاجة فوزية تعرف شيئًا، لا يمكن أن تنطق اسمًا غير مألوفٍ ويكون هذا الاسم هو اسم أمها روزا، هذا أكثر من مجرد صدفة! ربما كانت على وشك إفشاء سرها، ولكن بدلًا من ذلك كانت تلك النظرة العصبية المصوَّبة إلى ما وراء الأشياء.

عندما يزور ماركو وعائلته المشفى، يقضون وقتًا مع حسن وجلاء، يلتفون في حلقة مثرثرين في أمور شتى أبرزها أخبار المذبحة، وأبدوا انزعاجهم مما حدث. تسترق سلام النظر إليهم من خلال انثناءة صغيرة في ستار نافذة الطابق الأول؛ لا تستطيع الاقتراب لكيلا يحدث خطأ لا تُحمد عقباه. ترى جلاء تلف ذراعَيها حول رقبة أحد أبناء ماركو، كأنها تشجعه على إنجاز شيء ما، فيرد عليها بابتسامة ناصعة جميلة. وها هي سلام تقاوم مرةً أُخرى، ليتها تركض وتحتضنهم جميعًا. لا يزال دينق مستلقيًا خلفها يجتر أحزانه وآلامه، ولا تستطيع مشاركته هذه الهواجس. سيقول لها: ما يمنعكِ؟! اذهبي وألقي نفسكِ بينهم، كما ألقى هو نفسه في النار الملتهبة، الأمر برمته يحتاج إلى إرادة.. إرادة مواجهة، ومن ثم تحمل العواقب.

سمعتْ تنهيدةً قويةً من دينق، كأنه يعلن أنه لم يمت بعدُ، لأنه يرفض التعبير عن احتياجاته وما يشعر به، كانت تحلل فقط تلك التنهيدات وحركة مقلتَيه اللتَين تجولان تحت الجفن. هذه التنهيدة تعني أنه يتألم، ولكنها لا تعلم هل الألم في جسده أم روحه!

تقترب منه ملقية نظرة على ملف التعليمات العلاجية، أحضرت دواء ثم رجَّته دون أن تنطق كلمة واحدة. تخوض معه حوارًا صامتًا، سألته في سرها هل جرَّب أن يكون طفلًا لأُسرة ولكنهم لا يعلمون عنه شيئًا.. ألَّا تكون موجودًا بالنسبة لهم أصلًا؟

«هذا يحدث كثيرًا.. ثم ماذا؟!»، هكذا تخيلت رده. اغتاظت مما لم يتفوه به بعدُ. ليتها تصل إلى هذه المرحلة من اللا مبالاة وقبول ما يحدث، لم يعد هناك ما يدهش دينق أو ما يصيبه بالحسرة. لقد ذاق كل صنوف العذاب.

تنهد دينق مرة أخرى، فتح عينَيه ليراها من الجانب، كانت عصبيتها ظاهرةً، فقال: «ما لك؟ لو عندك مشكلة ممكن أساعد. الناس اللي شافوا الموت بعيونهم، بيكون عندهم حكمة ورأي محترم»، ابتسم بعدها هازئًا.

اقتربت منه، أزالت قفل الجهاز الصغير شبيه بحشرة اليعسوب المثبتة في عمق وريده، حقنت الدواء بطيئًا وهي تراقب قسماته، وتنقل نظراتها بين وجهه وبين يده التي التوت فيها بعض الأصابع وصارت مشوهة كاملةً.

كان يائسًا من نجاته، لنكن أكثر دقة هو لا يرغب في الحياة. سلام تعلم أنه ينزعج إذا أخبرته بأنه يستجيب للعلاج، لذا لا تخبره بذلك، ولكن غمرها الارتياح. وقررت أن تغيظه، فتحت كفه وتظاهرت بقراءته وقالت: «حتعيش لحد تبقى عجوز، ما حتموت قريب». فسحب يده حانقًا، وأشاح بوجهه رافضًا مزاحها. حتى الآن لا يعلم كيف نجا، عندما يراجع كل تلك الأحداث، يجد أن كل ساعة مرت كان يجب أن يُقتل خلالها. لماذا تجاهله الموت؟ كيف يتعافى من فكرة النجاة نفسها بينما قُتل الجميع؟ لقد احترقوا لدرجة التفحم! كيف سيعيش مع ذاكرة مليئة بالألم إلى هذا الحد؟ الشفاء يعني أن يتحول كل جسده إلى ندبةكبيرة تُعيده كل يوم إلى الوراء. ستغدو الحياة عذابًا. لقد لاك هذه الأفكار بصمت، لكنها واصلت المزاح: «إنت محظوظ».

رد بسرعة: «عشان شووني في النار زي الخروف؟»، ارتسمت ابتسامة هازئة على طرف فمه المعوج. لكنه ينجح دائمًا في العودة سريعًا إلى حزنه ومرارته. إنه مثل قطعة مطاطية مهما حاولت شدها بعيدًا، ترتد بقوة لحالتها.

خيم الصمت بينهما. عادت هي إلى النافذة ترنو لأسرتها، يضحكون ويمزحون والارتياح بادٍ على محياهم بعد استفاقة حجة فوزية من غيبوبتها، ماركو وحسن ينسحبان بين حين وآخر وينضمان لمجموعات كبيرة من الجنوبيين الذين توافدوا للمشفى للاطمئنان على أقربائهم الذين نجوا بأعجوبة.

في الأيام التالية، كان الجرحى محل اهتمام، يلتف الفضوليون حولهم لسماع ما حدث ومن ثم معجزة نجاتهم. جاء الصحفيون لإجراء التحقيقات، واعتُقل عدد منهم أمام أعين الجميع.

شعرت سلام بالخطر، خاصة عندما تلقوا أمرًا بوجوب خروج كل المصابين من المستشفى ليكملوا العلاج في بيوتهم. تشعر أنها مُراقبة ودينق أيضًا. عندما لمحت حسنًا مقبلًا من بعيد، نزلت الدرج بسرعة، وقادته من خلال الممرات بعيدًا عن غرفة دينق. تساءل حسن بقلق عما يحدث، ولكنها لم تنطق، وظلت تقوده إلى أن انزوت به داخل ممر ضيق. أخذ يسأل توتر: «دينق ما له؟ دينق كويس؟».

ردت وهي تتنفس بصعوبة: «دينق كويس». ثم أخبرته بوجود مخبرين، وعليه أخذ حذره.

عض أصابعه كاظمًا غضبه وردد: «الكلاب.. الكلاب.. الكلاب».

أسكتته بوضع إصبعها المرتجف على شفتَيها، ثم شعرت بشخص يقترب من موقعهما، ما جعلها تدفع حسن ليخرج من باب خلفي موارب في نهاية الممر، ليجد نفسه في حوش خلفي، وعليه أن يقوم باستدارة كاملة، ليجد المخرج. اتجهت هي إلى مكتبها دون محاولة معرفة مَن حاول التلصُّص عليهما. حطت على ملامحها مظهرًا جادًّا، تبذل جهدًا مضاعفًا لإخفاء توترها. شعرت كأنها تعبر أطول مسافة قطعتها إطلاقًا، كأن ممرات المستشفى تتمدد بشكل لا نهائي. وعندما دخلت مكتبها أخيرًا، كانت مبللة بالعرق. لا تزال تشعر أن هُناك مَن يراقبها ويتبع خطواتها، ليست واثقة هل استطاعت الإفلات منه أم أنه لا يزال قريبًا. سمعتْ طرقًا على الباب، فانقطعت أنفاسها، وجحظت عيناها متسائلةً هل حان دور اعتقالها.

عاشت لحظات رعب أبدية، حتى أنها لا تعلم لماذا هي خائفة، ولماذا هي مراقَبة، وهل مجرد اعتنائهم بالمرضى أصبح نوعًا من الجرم! وعندما أوصلت إليها زميلتها رسالة المدير التي يطالبها فيها بإحضار كل ملفات المصابين، وأن تأتي إلى مكتبه فورًا، فهمت تمامًا ماذا سيحدث. وضعت الملفات على منضدة المدير، وخرجت صامتةً. لم تستطع سؤاله أو مجادلته، هو أيضًا يبدو خائفًا، وبدا أن هناك مَن يحرك كل شيء لإخفاء الأدلة وإرهاب الشهود.

في اليوم الثاني التقت حسنًا، فحاولت تجاهله والتظاهر بأنها لا تراه، ولكنه مشى بجوارها بعناد وتحدٍّ، وهمس قرب أذنها ألَّا تخاف.

ذهبا إلى غرفة دينق، كان هناك مريض آخر مكانه. تبادلا النظرات، واتجها بخطوات غاضبة إلى مكتب المدير لمعرفة ما حدث. أخبرهما أن الجميع أُخرج مساء أمس إلى بيوتهم بعد التأكد من أنهم جميعًا تماثلوا للشفاء، وفي إمكانهم متابعة بقية علاجاتهم في البيت، وجودهم يحرض على التجمهر، وهناك كثير من أهاليهم غاضبون، ويخشى أن يقود ذلك لعنف داخل المستشفى، بالإضافة إلى أن هناك حاجة لأَسرَّةٍ شاغرة لاستيعاب مرضى حالتهم أكثر سوءًا، ويحتاجون إلى الرعاية بشكل عاجل. كان يتحدث وعيناه تحطان في مكان آخر بعيد.

خرج حسن ونزل الدرج بخطوات واسعة، قابل شبابًا في بوابة المستشفى، سألهم هل يعرفون دينق بول. لحسن الحظ كان ردهم إيجابًا، وأيضًا يعلمون أنه اتجه إلى أحد المعسكرات البعيدة. فطلب منهم أن يدلوه على المكان. وفي الحال كانوا جميعًا داخل السيارة. حسن يقود بعصبية يتتبع الاتجاهات التي يشير إليه الشباب أن يسلكها.

أخذت السيارة تطوي الطريق الترابي الوعر إلى خارج المدينة، ناثرة سحابة من الغبار حولها، فيدخل من خلال النوافذ، وتستقر ذراته على ملابسهم وشعرهم وأهدابهم. لفَّهم الصمت، ووصلتهم أصوات احتكاك الإطارات بحبات الرمل والحصى في أثناء انطلاق

العربة نحو الأفق البعيد. اختلس حسن نظرات إلى وجوههم من خلال المرآة الأمامية. كلهم متجهمون، بشفاه مطبقة، ما عدا ذاك الذي يجلس على اليمين، عجزت شفتاه على احتواء تلك الأسنان البارزة، فظلت أشبه بابتسامة دائمة على وجهه المتجهم كالبقية.

اختفت آخر معالم المدينة من خلفهم، ولم يظهر شيء أمامهم بعد، محض سراب سريعًا ما يبددونه بالاقتراب. الطقس ساخن، لا أشجار ولا ماء، مجرد أرض جرداء ممتدة إلى ما لا نهاية كأنهم مسافرون برًّا إلى أحد الأقاليم البعيدة. بعد ساعة تقريبًا، بانت معالم المعسكر، بدا كبقعة صغيرة، ثم أخذ يكبر مع اقترابهم، إلى أن أصبحوا داخله.

النازحون بالمئات بل بالآلاف، تحلق الأطفال حول السيارة، وأخذوا يهتفون: «عرب.. عرب.. عرب»، رشق بعض المراهقين الغاضبين السيارة بالحجارة. نهرهم ذو الأسنان البارزة ملتقطًا عصا من الأرض وهددهم بالضرب.

بقي اثنان منهم لحراسة السيارة، بينما ذهب حسن مع آخرين للبحث عن دينق بول.

كان المعسكر عبارة عن جنوب مصغر.. الجنوب المهجَّر غصبًا عنه، اتقاءً لشر الحرب الدائرة منذ سنوات. حملت التجمعات السكنية أسماء المدن والقرى التي هاجروا منها: حي ملكال، وبحر الغزال، وحي جوبا، وحي واو، وحي الناصر، وحي النوبة.. كعملية احتيال صغيرة لإبقاء مدنهم قريبة من الذاكرة.

في أثناء بحثهم التقطت آذانهم لغات مختلفة. بدأوا بالأندايات التي تضج بالسكارى ومختلف أنواع المشروبات التقليدية، وكانت همهمات الرجال والنساء تتصاعد محدثةً ضجيجًا كلما اقتربوا.

يقف حسن بالخارج، بينما يدخل أحد الشباب يسأل ويعود خائبًا.

دلهم أحدهم للذهاب إلى حي الدينكا الذي يقع في طرف المعكسر، شقوا طريقهم عبر البيوت الطارئة التي أنشئت من الخيزران ومشمعات الإغاثة الدولية، انفلتت بعضها من أعوادها، فتلوت مع هبوب الرياح مثل فستان فتاة ترقص.

الهواء ساخن ومحمل بروائح الخمور البلدية وفضلات البشر التي تزكم الأنوف، تصبب منهم العرق مظهرًا بقعًا كبيرة على قمصانهم في مواضع الآباط.

ترمق الأعين حسنًا شزرًا، ولكن طالما أنه برفقة هؤلاء الشباب، فإنه في أمان من الاعتداء.

تعبوا ونال منهم العطش، بان على حسن خيبة أمل كبيرة، لأنه حتى الآن لم يعثر على صديقه المفقود ولا يعرف إلى أين ذهب!

طلبوا من إحدى النساء ماء للشرب، فجلبت إليهم قصعة كبيرة، لم يكن الماء باردًا، لقد غُرف من البرميل مباشرةً، كان دافئًا ومتسخًا ومالحًا بعض الشيء، وتفوح منه رائحة الدخان وبقايا الخمور، شرب حسن على الرغم منه، يجب ألَّا يبدي نفورًا، فهؤلاء الناس يشربون هذا الماء، وها هم أحياء يرزقون. أغمض عينَيه لكيلا يرى الأشياء السابحة نحو فمه، وعطل لسانه ليتجاوز الطعوم الغريبة.

بعد أن خاب أملهم، عادوا إلى مكان السيارة بصعوبة، كان المعسكر كبيرًا ويبتلع الداخلين إليه. دخلوا في متاهات لا نهائية حول دروب قصيرة ملتوية، وكثيرًا ما سُدَّت في نهايتها بكوخ أحدهم. يدلونهم على الطريق بإشارات غاضبة حينًا، وحينًا لطيفة. وقد تمكنوا أخيرًا من الوصول إلى مكانهم المنشود. استقبلتهم نظرات الآخرَين اللذَين طال انتظارهما، مليئة بالرجاء، وخابت عندما هز العائدون رؤوسهم أن (لاشيء).

استقل ثلاثتهم السيارة، بينما بقي واحد منهم لأنه يسكن في هذا المعسكر، وتواعدوا أن يلتقوا في المكان نفسه غدًا لمواصلة البحث في بقية المعسكرات.

عادت السيارة، تسير في اتجاه المدينة، وأخذ المعسكر يختفي شيئًا فشيئًا خلف الأتربة المثارة خلفهم، كما تختفي العوالم الساحرة في الضباب...

مكتبة ياسمين
telegram @
yasmeenbook

الفصل التّاسع

مآلات الحرب

مرت ستة أعوام حتى الآن على بداية الحرب دون أن ينتصر أحد.. لكن كل الأدلة تشير إلى هزيمة المواطنين منذ لحظة الاندلاع الأولى، فالحروب لا تبدأ لتتوقف.. إنها آلة ذات أسنان عديدة ومعقدة، وحالما تُشعل لا تتوقف، كما نُشعل فتيلًا مُشبعًا بمادة حارقة، لا يفتأ يأكل نفسه بكل عنفوانٍ، ويلتهم ما حوله حتى النهاية.كل يوم يمر كان بمثابة خطوة واسعة نحو مستقبل قاتم، يتغافل الناس عنه طالما أنهم لا يسمعون القذائف، ولا يرون الحرائق التي تسببها في عمق الغابات القصية.. لكنها جاءتهم ترتدي أقنعتها الكالحة المتعددة. دخلت كل بيت، وتمددت راسمةً ظلالًا من الجوع والغلاء ونُدرة السلع. تفاجأ سكّان المدن بأنفسهم بين مخالبها، وانقضت بكُليَّتها تلتهم يومهم وتسرق ضحكاتهم وتستبدلها بالغم والأسى.

شاخت البيوت وتشققت جدرانها، وأصبح تجديد طلاء المنازل آخر هموم الناس، فعليهم تدبر أمرهم طالما أن الحكومة - التي أعلنت التقشف- مشغولة بحربها. تحولت المناسبات السعيدة كالأعياد إلى عبءٍ. وما يجنيه رَبُّ كل أُسرة لا يتناسبُ مع احتياجاتها، وعليهم ضبط المصروفات قبل التورُّط في إهدار الأموال، فلا بدَّ من مناقشة الأمر: ما مدى أهمية ذلك الشيء؟ ذوو الدُّخول المرتفعة نسبيًّا

تنحصر خياراتهم بين طلاء البيت وبين شراء ملابس العيد للأطفال. ويُخيَّر متوسطو الدخل أنفسهم بين شراء ملابس العيد وبين توفير الطعام. أما الأُسر الفقيرة.. فلأول مرة تخرج نساؤها وأطفالها يمدون أيديَهم للمارة سائلين ما يسد رمقًا أو يعالج مرضًا.

طبعًا كان الأمر كارثيًّا لماركو، فعلى الرغم من أن أُسرته الكبيرة، لم يمر عليه وقت شعر فيه بعجزه عن توفير احتياجات أطفاله الذين اعتادوا أن الأعياد جميعها -على اختلاف جذورها الدينية والمدنية- مُناسِبة للمشاركة والتعبير عن القبول والاحترام. الأطفال هم مَن يجعلون للأعياد معنى، والحرب قتلت كل المعاني، حتى أن ماركو رفضَ أن يُشارك أطفالَه في أعياد المسلمين، لأنهم ببساطة لم يعودوا يُشاركونهم أعياد الكريسماس كالسابق. ولكنَّ الصغار عنيدون، يحطمون بعنادهم الجُدران التي أقامتها الحرب لتعزل بين الناس.. يخترقون الأسوار، يطيرون فوقها مستعينين بأجنحة البراءة، لم يسمحوا للحرب أن تُصادر فرحتهم.. تلك الفرحة الخاصة التي تمنحهم إياها الأعيادُ لا علاقة لها بطقوس الصيام أو الذبائح أو الصلوات الطويلة المملة. اللعب بالملابس الجديدة الأنيقة، والحلويات، والكعك المبذول في كل بيت، وتلك النقود التي يدسُّها الكبار في أيديهم.. هذه أمور لا تحدث كل يوم. إنهم ينتظرون شهورًا حتى تأتي هذه الأيام المفرحة، قبل أن يعودوا لارتداء ملابسهم القديمة الباهتة والزي المدرسي الممل. تأتي هذه الأعياد على الرغم من رأي ماركو الجديد في كل شيء، لقد جعلتْه أخبار الحرب المؤذية يرسم حدودًا حادة وواضحة لكل شيء، للشمال دِينه

وانتماؤه، وللجنوب أديان وانتماء مختلف، ولن تفلح المحاولات البائسة في جعل هذَين القُطبَين يقتربان دون أن يتطاير الشرر. سيظل الجنوبيُّون جنوبيِّين والشماليُّون شماليِّين. لقد قالتها الحرب، وأكدتها المذابح.. والأمر محسوم! ولكن قلبه يلين في النهاية، ويجب ألَّا يدفع الصغار ثمنَ ما يحدث. وعندما يراهم مستعدين كبقية أطفال الحي، مصحوبين بحماس مُعدٍ يجعلهم مستعدين لخوض حرب من أجل الملابس الجديدة والكعك، يستسلم ماركو بخضوع، ولكن بعد إجراء اتفاق وافق عليه الجميع، وهو أن يشتروا ملابس جديدة للأكبر سنًّا، بينما يرث الآخرون -الأصغر منهم سنًّا والأقصر قامةً- ملابسهم وأحذيتهم. لذا حرصتْ لوسي بعد انتهاء أسبوع العيد أن تغسل الملابس وتكويها بمكواة الحديد وترصها في حالتها الجديدة الجيدة في الحقيبة الحديدية الكبيرة، بعد أن تُوزِّع عليها كرات النفتالين التي تحميها من حشرات العثة آكلة الأنسجة؛ لتبقى جديدة محتفظة برائحة نظيفة لأمد طويل.

قبل أن تسبب الحرب لهم هذا الهلع، كانت تُرسل الملابس المخزَّنة إلى الجنوب كل عام، وقتها استطاعوا شراء الجديد، وتوزيعه كيفما تشاء على أطفال قريتها الذين لا تزال الملابس بالنسبة لهم واحدة من أعظم الهدايا التي يحصلون عليها. لكن لم يعد ذلك ممكنًا، أطفالها الآن أكثر حاجةً، رغم أنهم في قلب أكبر مدينة في البلاد. لولا تدبيرها وإعادة تدوير مقتنياتهم لأصبحوا عُراةً مثل أطفال القرى البعيدة المهمَلين.. وربما قضت عليهم الحرب والمجاعة في هذه اللحظة، فما أهمية الملابس في هذه الحالة!

عندما يضغط الأطفال على ماركو، تنقذه لوسي، فتُبادر بقول كل شيء بصراحتها المعهودة، مصطحبة معها مخاوفها من أحداث سابقة، وتسألهم هل سيتحملون تبعات دفع أبيهم إلى السرقة إذا أصروا على طلب ملابس جديدة! حينها ستقبض عليه الشرطة، ويدخل السجن ويقطعوا يدَه وربما يُشنق.. وتذكرهم إذا رأوا ذلك في التلفاز الذي عرض فيما مضى مجموعة من اللصوص مقطوعي الكفوف حتى يكونوا عظةً. كان هذا أمرًا مرعبًا للصغار بأن يروا أباهم يتجول مبتور الذِراع. فوافقوا سريعًا على اتفاق أن يرث كل منهم ملابس غيره.

هكذا مضت الأمور، ولكن لم يُخلوا أي عيد من المفاجآت، فنمو الأطفال المطَّرِد لا يُلبي توقعات لوسي مع ما خزَّنته طيلة العام من ملابس وأحذية وجوارب، كأنها كانت تنكمش لتصير أصغر داخل ظلام الصندوق. كثيرًا ما ضاق فستان أو قصر بنطال أو خرج حذاء من الخدمة بسبب المقاس الذي لم يعد يناسب أحدًا. ولكن لوسي تتحايل على كل شيء، فأحيانًا تكبس تلك الأحذية كبسًا في قدمَي أحدهم، وفي النهاية يعود إلى البيت والحذاء محمول على الأيدي. أو يصادف أن الحذاء أكبر بشكل لا يُصدَّق، مما يفرض على صاحب الحظ التعيس أن يمشي زاحفًا، يسحب الحذاء سحبًا، راسمًا أُخدودًا وراءه، بمشية مكللة بهالة من الغبار المثار. تحل لوسي هذه المعضلة بحشر الخرق فيه لتكملة ما نقص مِن لحم وعظم.

قبل سنوات قليلة، كان بمقدور ماركو استئجار حافلة لعائلته وهم في طريقهم إلى الكنيسة أو الحدائق أو مناسبات الأهل. لكن الآن تبدل كل شيء، وتراكمت فوقه مشكلات المعيشة، لدرجة اضطراره لركوب المواصلات العامة سائقًا أُسرته أمامه كقطيع، وغالبًا يحتاجون إلى أكثر من صف من صفوف مقاعد الباص، ويحاولون تقليص عددها بأن يجلس أطفالهم فوق بعضهم، ويحمل الكبار الصغار في حجرهم، وبهذا يوفرون للأب، فيدفع مقابل عدد مقاعد أقل على الرغم من امتعاض الـمُحصِّل الذي يقارن بين كمية النقود وعدد الأنفس المحشورة في المقاعد. ترمقه لوسي مردِّدةً تعويذة في سرها حتى لا يحسدهم، بينما يُحدث أطفالها ضجةً بصرخات غاضبة في أثناء محاولتهم إيجاد أوضاع مريحة لأطرافهم فيستوعبهم المكان، ثم أخيرًا تنهرهم ليصمتوا؛ لأن هذه السيارة ليست مِلكهم.

في عيد من الأعياد كانوا في طريقهم إلى حديقة الحيوان، يستقلون الباص المكتز بركاب كثر، خرج أحد الأطفال من الزحمة بلا بنطال لأنه كان واسعًا طبعًا، وتكوم ساقطًا، ونزع قدمَيه، وواصل طريقه نحو المخرج للّحاق بعائلته. كانت لوسي منشغلة بالاطمئنان أنها لم تنسَ أحدًا منهم داخل الباص، ترعبُها فكرة ضياع أحد أبنائها في زحمة المدينة. تنشغل بعدِّهم واحدًا واحدًا. لا تعدهم بالأرقام طبعًا، بل تنادي عليهم بصوت عالٍ واحدًا واحدًا، مثل قائد يتمم على جنوده. بعدها انتبهت أن واحدًا منهم يقف وسطهم بكامل أناقته، ولكن من دون بنطال! كان الباص قد انطلق إلى محطات أخرى. غرق إخوته في الضحك، وانزعجت لوسي التي أخذت تسب

السائق، واتهمت الركاب بالسرقة، ولم تنسَ أن تصفع الصغير أيضًا، لكيلا يُعيد فعلته مرة أخرى. تدخل ماركو أخيرًا حاسمًا تلك الفوضى، طالبًا أن يمسك كل واحد يد الآخر، حسب التوزيع المعهود؛ فكل واحد مسؤول عن واحد أصغر منه. ولا يزال فاقد البنطال يبكي، إلى أن هددته لوسي بتركه في مكانه إذا لم يسكت، فابتلع عبراته متشبثًا بثوب أمه وتبعها مُذعنًا.

الفرحة الطاغية بالعيد، وعرض الحلويات والكعك، والخروج الجماعي إلى حديقة الحيوان والمنتزهات.. كثيرًا ما امتص تلك المواقف المحرجة لأُسرة تتجول كقطيعٍ بتلك الملابس والأحذية غير المناسبة.

***

اختفت أخبار المذبحة من كل مكان، أصبحت شأنًا يخص مَن ذُبحوا وحدهم. نجحت الحكومة وأجهزتها في تحجيمها إلى مجرد حادثة لم يتجاوز عدد ضحاياها عشرات، وليس هناك أمر فوق العادة؛ فالاعتداءات العنيفة التي تنشب بين القبائل أمر طبيعي ويحدث منذ الأزل. وقد أُرهب واعتُقل كلُّ مَن يقول غير ذلك.

لم تنسَ سلام قط ما حدث خاصة بعد إجبار المرضى على الخروج من المستشفى في جنح الليل، ولا تزال رغبتها في معرفة سر اختفاء دينق ومعرفة مصيره تحفر رأسها دون هوادة. استمرت في العمل بالمستشفى، ولكن دون حماس كالسابق. وتتحول في البيت إلى مُعاوِنة للوسي، تساعد الأطفال في مراجعة الدروس. نمت علاقة مميزة بينها وبين إموتا الطفلة الصامتة التي تحب العزلة وتتحاور مع

خيالاتها وروح جدتها التي تسكن فروع الشجرة، وعانت من صعوبة في التعلم. ونجحت سلام في جعلها تتعلم الحروف والأرقام، وأصبحت تمسك القلم بشكل صحيح. أظهرت الصَّغيرة اهتمامًا بالقصص المروية في الكتب أو مشافهة، كأنها عثرت ضالتها على أن تجد ما تتخيله مكتوبًا بشكلٍ ما، لم تعد تذكر قصة العين التى تُغريها بالغوص في أعماق ماء البرميل للولوج عبرها وهي تتنفس كسمكة تحت الماء، ولم تعد تتخيل الغرائب كأن تنقل أخبارًا تقول إن جدتها أخبرتها بها، وجميعها أخبار مشؤومة مرتبطة بالموت أو المرض والاختفاء. وحين تتفوه بتلك الأشياء المخيفة، تُسكتها لوسي بالقوة، كأنها بذلك ستمنع القدر قائلة: «اسكت يا سحارْ*».

لا يمضي يومان أو ثلاثة حتى يطرق أحدهم الباب ناقلًا أنباء المصائب. وحينها يلتفت الجميع ناحيتها كأنهم يؤنِّبونها بشكل خفي، ترفع كتفَيها وتلوي شفتَيها كأنها تقول: «لقد أخبرتكم من قبلُ!»، وتنسحب بطيئةً بخطوات ناعمة غير مسموعة، وتجلس تحت الشجرة مداعبةً دُميتها التي صنعتها لها سلام، مرهفة السمع لهمسات طيف الجدة المتوارية بين الأغصان.

في البداية أرعبت هذه الأشياء سلام، ولكنها قبلت الأمر، حتى أصبحت تأمل أن تسمع عبر إموتا أخبار دينق بول. لم تنسَ ذات يوم وهي مندسة في حضنها تقاوم النعاس، ثم طوقتها فجأةً لتخبرها بأن جدتها طلبت منها أن تقول لها إن صديقها الذي بلا جلد لا يزال حيًّا. فاقشعرت، وأخذت ترتجف، وكادت تدفع إموتا بعيدًا

---

* ساحرة.

عنها، ولكن الصغيرة أدخلت أصابعها في شَعرها الكثيف، وتشبثت بها بشدة. تصببتا عرقًا، وعندما هدأت الطفلة وأخذت أطرافها تلين وارتخت أصابعها، تأكدت سلام أنها غرقت في النوم، ولكنَّ سلام جفاها النوم حتى شروق الشمس.

ومن يومها تقاربتا، وصارت سلام في بعض الأحيان تستدرجها لتتحدث عما تفكر فيه، وربما تفوهت بمعلومات غائبة عن الجميع عن صديقها الذي بلا جلد كما وصفته من قبلُ، ولكن إموتا تظاهرت في أحيان كثير أنها لم تسمع شيئًا، مواصلةً الثرثرة في أمور طفولية أخرى؛ فهي مَن تحدد متى تتكلم وفي ماذا.

في بعض الأحيان تشعر سلام بسذاجتها، كيف لها أن تعتمد على خيال جامح لطفلة غريبة الأطوار!

ظل دينق حاضرًا بضماداته ورائحته الكريهة وآلامه السحيقة التي لم يعبر عنها بأي طريقة.. يائسًا تمامًا من أن يفهمه أحد.. إغماضة عينَيه الدائمة ووسامة وجهه الذي أبرزها الحزن. صوته العميق الذي يُذيب قلبها كأنه يُهمس لها فقط. تمسك ذلك الصوت وتغوص في غياهب نفسه المعذبة التي تلجم الغضب وتمنع إفلاته. تجوس بخيالها في تفاصيل جسمه الذي مزعته ألسنة اللهب. وفي أثناء تمريرها القطن المعقم عليه، تكتشف مساحات تعافٍ جديدة، جروحه التي تلتئم بطريقة مشوهة بندوب بارزة، بينما الأنسجة الجديدة تلوي معها المفاصل. أصابعه التي تبتعد عن بعضها ليقع كل منها في مستوى مختلف عن الآخر.

تسأل نفسها: أين هو؟ هل تخلصوا منه؟ هل مات متأثرًا بجراحه؟ هل يختبئ في مكان ما أم أُخفي قسرًا؟

وفي أحد الأيام لمحت إموتا سلام من بعيد مقبلة من اتجاه المحطة القريبة، فجرت نحوها فاردة يدَيها، بادلتها سلام العناق، لاحظت التماع عينَيها، واتساع حدقتَي عينَيها، هامسة في أذنها أن جدتها أخبرتها بألَّا تبحث عنه سيظهر وحده عندما يحين الوقت. اغرورقت عينا سلام بالدموع وهي تغطي فمها بكفَّيها، ثم عانقت الصغيرة مرةً أخرى دون أن تنبس بكلمة. اتجهتا بصمت نحو دكان قريب، واشترت لها الحلوى التي تحب، وفي لحظة تحولت إلى طفلة عادية تتقافز حولها فَرِحةً بما لديها، تلقي نظرات متكررة إلى الكيس المعبَّأ بالحلوى لبقية أخواتها.

***

انتشرت المعسكرات، واتخذت أسماء عديدة، وقد حرصت الحكومة على أن تُسميها أسماء تحوي طموحاتها السياسية، كالسلام والوحدة، بينما سمَّاها الناس أسماء مدنهم بالجنوب أو أسماء ساخرة، كـبانتيو جوبا وطردونا وجبرونا. ظلت لوسي تتردد على أحدها وهو (معسكر الوحدة) وذلك لزيارة أقاربها، وأحيانًا ترافقها سلام. وكثيرًا ما تتفاجأ بقدوم نازحين جدد دون أن يمروا ببيتها كمحطة مؤقتة. أشعرهم المعسكر بالانتماء ووحدة المصير، فهنا باستطاعتهم الانتظار معًا حتى تنتهي الحرب ويعودوا إلى الجنوب. لم تنتهِ الحرب، وظلوا متأهِّبين للرحيل، حتى بعدما أخبرهم القادمون حديثًا بأنه لم يبقَ شيءٌ هناك، وكل ما خلفوه وراءهم صار يحمل بذرة

تدمير ذاتية. يموت الناس قبل حتى أن تقصفهم الطائرات، وقبل أن تنفجر تحتهم الألغام. ويموت كثيرون دون أسباب واضحة. حتى في المعسكر الذي لجأوا إليه بعد رحلات مضنية مشيًا على الأقدام، ناجين من الجوع والافتراس بواسطة وحوش الغابة، وبعد وصولهم بأشهر قليلة بدأوا يموتون من الأسى وفقدان الأمل والحنين. كأنهم يبحثون عن أماكن يموتون فيها بسلام. الموت أيضًا كالحياة.. يحتاج إلى السلام لئلَّا تُعاني الأرواح.

أصبحت زيارة المعسكر واجبةً لا بد من أدائها؛ لتقديم العزاء للأسر المكلومة بموت الأقرباء ممن نعاهم الناعي أو ممن ماتوا أمامهم. نمتْ مقبرة بالجوار، وأخذت تتسع بامتداد بيوتهم المؤقتة إلى الأبد. أكثر ما يؤلم الأحياء هو دفن أحبابهم في أرض غريبة. أصبحت مناسبات التأبين -التي لا تتوقف- مناسبات لقاءات وتجمعات يحرصون جميعًا على حضورها. يمارسون حياتهم بكل حرية طالما أنهم لا يزعجون المدينة.

كان من الممكن أن تظل الحدود واضحةً بين أكواخ النازحين في (معسكر الوحدة) وبين بيوت سكان المدينة، لكن ميول النازحين للانفجارات والإتيان بردود أفعال احتجاجية تجعل الحكومة متوترةً ومستنفرةً دائمًا لإخماد تلك الفورات بعنف مبالغ فيه، ولا ضير فهم ينتمون إلى المتمردين الذين يقلقون مضاجعها في غابات وقرى الجنوب. ويتوجس أيضًا سكان المدنية منهم خيفة؛ بسبب بعض الانفلاتات هنا وهنا.

ولم يمنع هذا كله أن يختلط الناس، على الرغم من الاختلافات التي بينهم؛ فتبادل المنافع يجعل عجلة البحث عن الرزق تدور. وقد احتشدت المحطات الأخيرة في كل اتجاهات المدينة بعربات الحمير التي تربط المعسكرات بأحياء المدينة الأخرى، يعمل فيها سكان المدينة وسكان المعسكرات، وكانت وسيلة لتوفير مصادر دخل ثابت لكثير من الأُسر المعدمة. كان الحمار هو الكائن الوحيد الذي تحمَّل أن يكون حلقة الوصل بين المعسكرات والمدن. ناقلًا الناس الأصحاء منهم والمرضى والموتى والأحياء والسكارى والباحثين عن المُسكرات، يقرب المسافات التي تُقطع على الأقدام مِن المعسكر وإليه.

كانت المدن معابر بالنسبة للنازحين، يعبرون من خلالها إلى المعسكرات الأخرى الموزعة في الأصقاع، ليست لهم مصالح داخل المدينة إلَّا إذا اضطروا لذلك اضطرارًا. لقد وفرت لهم المنظمات الدولية مشافيَ ومصادر مياه ومؤنًا غذائية، وأقاموا وحدهم أسواقًا طارئة يتبايعون فيها احتياجاتهم الضرورية.

ولم يحتاروا فيمَن يعتدي ويتجاوز حدوده مع أي كان، لديهم نظامهم القضائي المحلي التقليدي الذي نزح معهم أيضًا، وذلك بتنصيب كبار القوم قادةً وقضاةً. هذه المهام الجديدة التي أُلقيت على عاتق عدد ممن سُموا سلاطين المعسكر، لم يكن ليحظوا بها لو بقوا في قراهم البعيدة؛ لأن طقوس التنصيب تختلف، وليس من السهولة أن يصبح أي كائن سلطانًا. هذه حاجة مؤقتة زائلة، على الرغم من عدم تمتع بعض سلاطين الصدفة هؤلاء بالحكمة اللازمة

لإدارة خلافات الناس؛ ففي بعض الأحيان يُعقِدون المشكلة بشكل أكبر. لم تكن تلك المحاكمات سريةً، وإنما علنية في ساحة وسط الأحياء الكرتونية تلك، وكثيرًا ما أُذيعت الحياة الخاصة للناس على الملأ. كانت المحكمة العلنية عقابًا في حد ذاته، فلا أحد يتمنَّى أن يُفضح بتلك الطريقة المهينة أمام القبائل.

راجت تجارة الخمور المقطرة منزليًّا، وكان بعض السكارى -المفلسين من فقراء المدينة- يقايضون الملابس ومقتنيات أخرى مقابل زجاجات العرق، وكثيرًا ما قايضوا ملابس يرتدونها لتلبية حاجتهم إلى الشرب، وينزعون مقتنياتهم قطعةً قطعةً ابتداءً من ساعة اليد ثم القميص وانتهاءً إلى الحذاء. وفي الأمسيات يعودون حفاةً شبه عراةٍ مترنِّحين يقطعون الحدود الفاصلة الجرداء بين المدينة والمعسكر متسترين بالظلام.

تبدد غضب المراهقين الذين يرشقون الغرباء بالحجارة بعد اعتيادهم البيئة الجديدة؛ لقد أدركوا أهمية عدم إرعاب الزبائن الذين يشترون بضاعة أمهاتهم. وبدل الاعتداء أصبحوا يحمون زبائنهم ويحرسون مَن يأتي بسيارة. لم يعد الصغار يهتفون «عرب عرب» بعد أن أصبح الجميع جزءًا من المعسكر بطريقة ما، واعتادوا على رؤيتهم كل يوم. ولكن بعضهم ارتكب الجرائم في المساحة الفاصلة بين المعسكر والمدينة، يتصيدون ضَحاياهم السكارى، ويضربونهم وينهبونهم، وفي بعض الأحيان تصل الجريمة إلى القتل. لم تنجُ نساء المعسكر ولا الفتيات من عمليات الاغتصاب والمطاردات الليلية في أثناء قضائهن الحاجة في العراء المفتوح، أو وهن يتخلصن من

فضلات التقطير. تقع سيئة الحظ في براثن هؤلاء، فلا يترددون في اغتصابها. فصارت تلك العصابات المُنَفلِتة عدوًّا للجميع.

تلك الاعتداءات لفتت انتباه الحكومة إلى معرفة ما يحدث داخل المعسكر، فأصبحت تنظم حملات تفتيش مباغِتةً، وغالبًا يُقبض على السكارى وبائعات الخمور.

بعيدًا عن هذه المنغصات، اتسمت الأجواء بالبهجة. تناسى الناس مأساتهم مع الحرب واقتلاعهم من قراهم، وتقبلوا الحياة الجديدة بمزاج مُنتشٍ وروح صامدة. بددوا أحزانهم بالسُّكْر والرقص وإنجاب الأطفال الذين يسرحون كالنمل، مُتَّسخين بأنوف سائلة. إحدى الأسواق الرائجة في تلك الأرجاء كانت لبيع لحوم البهائم الميتة بواسطة جزارين. يقولون إن تلك البهائم وُجدت ميتة بالجوار، ولكنها كانت تُقتل عمدًا من قِبل هؤلاء الباعة أنفسهم، وذلك عندما يمرُّ راعٍ ببهائمه قرب المعسكر، فيغافلونه بينما يغرس أحدهم سيخًا طويلًا ساخنًا في دبر البقرة، فينفذ إلى أحشاء البهيمة، وبعد مسافة تقع رافسة التراب، وتهمد في النهاية بطريقة لا يستطيع الراعي معها تفسيرًا، فيتركها متحسرًا دون معرفة سبب هذه الميتة المفاجئة. وعندما يختفي الراعي عن الأنظار، يتكالب هؤلاء على البهيمة كالضباع، حاملين سكاكين طويلة، تعكس نصالها الأضواء البعيدة، فيسلخونها في مكانها، ويقطعونها أجزاء ليسهل حملها إلى داخل المعسكر، وعرفت هذه اللحوم فيما بعد بـ(ـالله كتلا(، أما الجلد فيصنعون من منه طبولًا تُسمع إيقاعاتها ليلَ نهارَ.

تناقصت المساحة الفاصلة بين المعسكر والمدينة مع استمرار تدفق الوافدين، وأقلق ذلك مضاجع الحكومة، التي عجزت عن السيطرة على أكواخ النازحين التي أصبحت على تخوم بيوت ساكني المدينة، لم يكف بعضهم من التذمر والتشكي بسبب الإزعاج العام الذي يسببه المعسكر وتهديد أمنهم. وذات يوم تفاجأ قاطنو (معسكر الوحدة) بجرارات ثقيلة تحفر قناة تفصل بين المعسكر والجزء الآخر للمدينة؛ قيل إنها من أجل ري أحد المشاريع الزراعية، سُميت بـ(قناة السلام). تراكمت أتربة القناة حتى حجبت المعكسر. الأمر الذي أدَّى إلى احتجاجات محدودة قادها المتضررون من الجهتَين. وجاء تفسير قاطني (معكسر الوحدة) أن الحكومة تعزلهم عزلًا متعمدًا. ومن ناحية المدينة، نُظِّمَ احتجاج من قِبل صغار التجار الذين يمارسون التجارة في المعسكر، ويبيعون الحطب والفحم والتمور والبضائع التي شارفت صلاحيتها على الانتهاء، بالإضافة لسائقي عربات الكارو التي تجرها الحمير، ولم يفت الأمر السكارى أيضًا، وكان حشدًا على الرغم من توزعهم على كل الجهات، ولكنهم تمكنوا من إيصال أصواتهم مطالبين بجسر للعبور.

اعتلوا تلال الأتربة التي نمت بغتة تحتضن قناة عميقة، يتصايحون منادين ملوِّحين في الهواء يحيي بعضُهم بعضًا، كأنهم يتحدون كل محاولات التفريق بينهم. وطبعًا انزعجت السلطات وجاءت الشرطة تطلق الغاز المسيل للدموع وتجلد الجموع بالسياط، وتقبض على بعض السكارى الذين أسمتهم مثيري الشغب. وعلى الرغم من ذلك استمر الاحتجاج، وتجمعوا كل يوم على ضفتَي قناة السلام مطالبين

بجسرٍ يصل بين معسكر الوحدة والمدينة. وتدخلت المنظمات الدوليّة التي تأثرت أيضًا؛ لأنها لا تستطيع توصيل المساعدات اللازمة للنازحين. وانتهى كل ذلك ببناء جسر ربط بين أناسٍ شديدي الاختلاف، كل ما يطمحون إليه هو منحهم فرصة لمحاولة العيش معًا.

وفرت القناةُ -التي رفضها الجميع في البدء- المياه، وتحولت إلى مسبح للصغار والكبار. وصنعوا من تلال التراب المتراكم الطوب اللبن الذي يحتاج إلى كثيرٍ من الجهد، يبدأ بخلط الطين بالماء، ومن ثم كبس كتل الطين في قوالب، ثم يتركونها تجف تحت الشمس الحارقة. هكذا ظهرت حرفة جديدة تكالب عليها الجميع حتى النساء والأطفال. وبدأ الناس يبنون الغرف بالطوب بدلًا من أكواخ المشمعات المعرضة للاقتلاع بالرياح. أحاطوا أنفسهم بجُدر الطين السميك كيفما اتفق، دون الاهتمام باستقامة المباني، وأصبحت لكل أُسرة مساحة محددة تُبنى بالتراضي مع الجيران الملاصقين. وفي شهور قليلة أصبح حيًّا عصيًّا على الإزالة، وقبلت الحكومة الأمر على مضض.

جذبت المعسكرات فقراء المدن الذين لا يقدرون على مجاراة متطلبات المدينة بعد التضخم الذي يضرب البلاد بسبب الحرب وجشع تجار الأزمات الذين احتكروا كل شيءٍ. كانت تلك الأراضي الممتدة رحبةً بحيث كان بإمكان الجميع إيجاد أمتار لبناء بيوتهم دون أعباء مالية تثقل كواهلهم. يشترون من أسواقها الخضروات غير الطازجة التي بارت في المدينة، لتُباع هنا بأسعار متاحة للجميع، بالإضافة إلى اللحوم السمينة مجهولة المصدر، والأسماك التي تُصطاد بالأيدي من القناة.

بعد أعوام قليلة تمددت أحياء كاملة من الطين بشوارعها وأشجارها، تحيط بالمدينة من كل ناحية كسوار، لها نظامها ودوائر مصالحها، ويدير دولاب اقتصادها نساء يُقطِّرن العرق ليلًا ويبيعنه نهارًا. استطاعت بعضهن إلحاق أطفالهن بالمدارس القريبة أو البعيدة في المدينة. ولكن ظلت الحكومة تتربص بهن، لأن توجهها الإسلامي المحرِّم للخمور أقلق ضميرها، فقامت الشرطة بحملات شرسة ضد هؤلاء النسوة مع تشديد العقوبات التي تبدأ بالجلد مرورًا بالغرامة، وقد يصل الأمر إلى السجن، هذا حسب كمية العرق التي تُضبط في بيتها أو بحوزتها. وأخذ الزبائن أيضًا نصيبهم من الجلد لتطهيرهم من الذنوب. ولكن باءت كل تلك المحاولات بالفشل. ووجد رجال الشرطة الفاسدون أنفسهم متورطين في أخذ الرِّشى من بائعات الخمور، فأصبحوا يخبرونهن بجدول حملات التفتيش؛ ليشرعن في تخبئة كل شيء داخل براميل مدفونة تحت الأرض في أماكن بعيدة خارج البيوت، وأحيانًا وسط الموتى في المقبرة المجاورة. وكانت الحكومة تغضُّ الطرف عن تلك المنظومة التي استفادت من الظروف المحيطة لخلق أسباب البقاء والاستفادة من تواجدها معًا. وعلى الرغم من ذلك لم يخلُ التقارب من نوبات العنف التي تبلغ حدتها لدرجة أن يتسلح سكان المعسكرات بالعصي والهراوات لمقاومة الشرطة، عندما تقوم بحملات مصحوبة بلوثة دينية بحتمية تنظيف المدينة من الخمور ومعاقبة متداوليها، فتقبض على النساء وتُذلهن بالجلد والسجن. ولكن سريعًا ما تنطفئ فورة هذا الهبات الغاضبة، لتندس في تلافيف النفس، بينما تظل الألفاظ العنصرية

المتبادَلة عالقةً في الهواء كذرات غاز سامٍ غير مرئية، ولكنها تصيب الجميع بالمرض.

تكررت هذه الحوادث مرارًا، وفي كل مرة تزداد درجة الاحتقان ويشتد العنف من الجانبَين، كأنما هي الحرب نفسها، ولكن بأسلحة أكثر فتكًا، فالقهر والإذلال يقتلان الإنسان ببطءٍ. هم أيضًا يمارسون القهر على السلطات بنفوسهم الثائرة، لا يخافون المواجهة وقد يتجه بعضهم مباشرة أمام شاحنة مسرعة، فيحدث ما لا يُحمد عقباه إذا لم يكبح السائق عربته لتقف فجأةً، ضاربًا المقود ويسبهم حتى جدهم الأخير؛ فهؤلاء قوم لم يعد يهمهم شيء البتة، فهم يكرهون الدولة ولا يحترمونها حتى ولو قتلتهم جميعًا.

***

واظبت لوسي على زيارة أهلها على الرغم من تلك المخاطر، بل إن تلك المخاطر جعلتها قلِقةً دائمًا لمعرفة ماذا جرى ولمن. فتلك الأجواء المقاوِمة للسلطة تعجبها سرًّا، وأحيانًا تصطحب معها أطفالها ليتعرفوا على حقيقة الأشياء عن قرب، وليدركوا أن المثالية التي يتمتعون بها في حيهم مجرد حسن حظ ليس إلَّا. كما اعتبرت تواجدهم وسط الجنوبيِّين نوعًا من التعويض؛ فلن تستطيع وحدها تعريضهم لكل الممارسات الثقافية التي تخصهم. توفر المعسكرات لأطفالها فرصة التعرف على ثقافتهم وممارسة كل شيء بأنفسهم، لقد جاءهم الجنوب محمولًا على لسان الناس وأجسادهم وعاداتهم، لكيلا ينخدعوا بانتمائهم إلى ثقافات أخرى لمجرد أنهم وُلدوا فيها. وسريعًا ما اندمجوا وأصبحوا يتحدثون بلغتة أمهم، في البدء كان

صعبًا عليهم نطق الجمل بطريقة صحيحة كما يفعل النازحون باللغة العربية، ولكنهم وجدوا تشجيعًا على مواصلة التحدث بها حتى أتقنوها أخيرًا، كما أتقنوا الرقص.

في هذه المرة اصطحبوا إموتا معهم على الرغم من أنها لا تحبذ الخروج أبدًا، ولكنها طلبت فجأةً مرافقتهن. فرحت بها سلام، زاد طولها إنشًا واحدًا، بعينَيها الواسعتين اللتين تقولان كثيرًا دون أن تنطق شيئًا. هادئة كالبالغين، وبريئة الملامح كالرُّضَّع.

لم تترك يد سلام في أثناء تجوالهما، حتى ظنها بعض الناس ابنتها، ولم تنكر، وابتسمت إموتا واضعة كفَّها على فمها ناظرةً إليها بتواطؤ.

وفي طريق العودة، جذبت إموتا ثوب سلام مبدية رغبتها في شراء حلوى، مشيرة نحو كشك بالجوار، فناولتها النقود، فخطفتها راكضة في اتجاه الدكانة الصغيرة، التي واجهتها من الحديد، مشدود على إطارها مشمع خِيط بدقة حتى لا يترك منفذًا، كانت هناك نافذة صغيرة مربعة تكفي لتبادل النقود والمشتريات، ناولت النقود عبر تلك النافذة دون أن ترى أحدًا وطلبت نوعًا من الحلوى الملونة التي تحبها، فخطفت يدٌ النقود سريعًا، أحست بملمس قاسٍ على كفها، وبفضول طفولي حاولت استراق النظر إلى الداخل، ولكن اصطدمت بقامة مديدة متجاوزة حد بصرها، اكتفت برؤية فانلة مخططة بلونَي الحمار الوحشي أمامها. وفجاءةً ظهرت يد متصلبة الأصابع عليها بقع وردية كأنها اغتسلت للتو بماء مغلي، وضعت تلك اليد حفنة كرات من الحلوى الملونة في كفها المفتوحة المنتظرة،

وبدأت الحلوى تسقط على كفها واحدة واحدة حسب ما تسمح بها تلك اليد للتدحرج عبر الفراغات، كان بطيئًا لدرجة أنها شعرت بأن الوقت قد توقف، وأتى صوت يأمرها بنفاد صبر: «افتحي يدك كويس يا بت!».

حملقت في اليد التي أكلتها اللهب. تلك الأصابع الملتوية أيقظت فيها الرعب، انتابتها خيالات وحوش القصص المأثورة عن الأشخاص الذين ينقلبون إلى مسوخ ويأكلون الأطفال الذين لا يسمعون كلام أمهاتهم... ارتعبت، خطفت الحلوى وركضت بأقصى سرعة صارخةً مستغيثة بسلام. تشبثت بقدمَيها، وأخفت وجهها بين طيات ملابسها، مرتجفة كلها، جَثت سلام تسألها بقلق عما بها، ولم تجب سوى بإشارة بإصبع مرتجفة نحو الدكان. رفعتها لوسي عن الأرض واحتضنتها وهي تنظر نحو ما أشارت إليه، وارتسم على وجهها ألف سؤال. انطلقت سلام نحو الكشك بخطوات غاضبة، وأخذت تضرب على الحاجز المنصوب، وحشرت يدها عبر النافذة الضيقة تضرب المنضدة بعنف.

- هاي.. فيه منو هنا؟ عملتو شنو للبت؟!

جاء صوته هادئًا: «بت منو؟».

بصوت حاسم مرتفع، وبنبرة شخص مستعد للقتال: «بتي اللي اشترت حلاوة منكم هسه، اطلع خليني أشوف وشك دا لما أتكلم معاك».

- صدقيني يا أختي ما عملت حاجة، هي خطفت الحلاوة وجرت بتبكي، أنا ذاتي ما فاهم حاجة، ودا باقي القروش، امسكي.

أطلت اليد من خلال الفتحة.. اليد التي أخافت إموتا. تعرف سلام هذه اليد جيدًا. هذه كف شخص تعرفه، فمَن غيره سيحمل كل هذا التشوه! اختنقت بصوتها، وخفق قلبها، وثبَّتت عينَيها على تلك الكف، ومدت أصابعها المرتجفة فلامسته بحنوٍ، وقصدت أن تتحسَّس تلك الأصابع، كما فعلت عندما عالجته، ونطقت اسمه بصوت مخنوق بالمفاجأة والظن: «دينق بول؟!».

انسحبت اليد إلى الداخل سريعًا كأنها لُدغت. وران صمت خالته دهرًا. لم يجب. تسمرت سلام مكانها تحدق في الحاجز الذي يفصل بينهما بكامل اتساع عينَيها. وليتها تستطيع النفاذ بنظراتها عبره لتبدد شكوكها، وتسارعت نبضاتها. الآن تشك في كل شيء، ربما لم يخرج صوتها بذاك النداء المغلف بالسؤال.

اختلس دينق بول النظر من خلال ثقب صغير ودقيق كعين سحرية، يستخدمها للتعرف على وجوه زبائنه. سدت سلام عليه الأفق بملامحها الهادئة المريحة للنفس، وحبست شعراتها المنفلتة أنفاسه، وشعر بتيار يسري في كامل جسمه من ملامسة أصابعها المكتنزة الرقيقة التي خففت آلامه كثيرًا. لم يعترف لها بذلك يومًا. لم يخبرها بأنها كانت حارسته اليقِظة، ليس من الموت الذي ظل يحدق فيه دون أن يقترب، وإنما من ذاته الغاضبة التي تنظر إلى كل شيء بكراهية شديد، كراهية نالت الحياة نفسها!

لم تدر سلام كم مرَّ من الوقت وهي تقف هناك، وتلك الحواجز تتراكم بينهما. ربما يرغب في النسيان. يمكن للإنسان أن يموت بالنسيان أيضًا. ظلت كفها تنتظر فوق المنضدة تتوسل بصيص أمل

للتواصل، ولكن دينق أوصد كل المنافذ التي تقود إليه. لقد نجح في الاختباء كل تلك المدة، الاختباء منها ومن حسن، وبذل جهدًا لكي ينساه الجميع، اختار العيش في دوائر لا يعرفه فيها أحد. لا يزال إحساس الذنب بنجاته ينخر ضميره، وهذا ألم رهيب لا يمكن مشاركته مع أي كان.

الفصل العاشر

متاهة

استمر التدهور الذهني للحاجة فوزية، لم تعد تحدق صامتةً غاضبةً فحسب، بل أصبحت عنيفة تتلفظ بالبذاءات بصوت عالٍ. وجلاء تراقب ذلك كله بدهشة حقيقة، فلم تتوقع أن لأمها كل تلك الأقنعة التي تخلعها الآن أمامها واحدًا تلو الآخر.

تحولت فترات التغذية وأخذ الدواء والنظافة إلى مهام صعبة، تتخللها الرجاءات والتوسلات من امرأة لم تعد تسمع أو تشعر بمَن حولها. وكل يوم يعني مزيدًا من الغوص في ذاتها، ومزيدًا من التوغل في الماضي. يتجلى الغضب والسخط في قسماتها، وتشهر الرفض في غير موعده، وتقتص من عمرٍ لم تعشه برضًى تام. تنتفض وتبصق الطعام من فمها وتتفل الحبوب قاذفة إياها في الهواء، كأنها تحررت من قيد أمضت فيه حياتها السابقة، وها هي الآن تتقيَّأ كل جنونها الذي حبسته مرة واحدة. لا تنام لأيام، بل تصرخ وتنخرط في عويل كأن أمامها جنازة.

واجهت جلاء كل هذا وحدها. هي أيضًا لا تنام لأيام، تحرسها لكيلا تؤذي نفسها. أحاطت الهالات الغامقة عينَيها، وأهملت نفسها، ولم يتخلل شعرَها الأشعثَ مشط منذ أيام.

يتمزق قلبها، ولا تعرف كيف ستمضي الأمور. وعندما تتعمق في عينَي أمها التي سكنهما الرعب تحتويها وتبكي، على الرغم من أن الأم كانت تدفعها بعيدًا وهي تحملق في وجهها. لم تكن نظراتها تعني أنه مجرد وجه نسيته، بل هناك شيءٌ يُرعبها. لقد تحولت إلى واحدة من الخيالات التي تفزعها. وعلى الرغم من ذلك تضمها بقوة، باحثة عن لغة أخرى للحوار تبث الطمأنينة في أمها. ولكنها تظل ترتعد كطفلة معذبة. تشعر بخيبة كبيرة، لأنها لم تستطع احتواء خوف أمها. وكيف تفعل وهي لا تعلم ما يُخيفها ولا تفهم ما يدور في أفكارها؟! فقدت جلاء شهيتها ولم تعد تهتم بشيء. قد يُفقدك شخص واحد الرغبة في الحياة إذا شعرتَ بعجزك حيال ما يُعاني؛ فلم يعد لأحوال السياسة وأنشطة التغيير التي كانت عصب حياتها أي معنى؛ كأنَّ معاني الأشياء في حياتنا تتجلى إذا كان أحبابنا بخير.

شعر حسن بالعجز ذاته حيالها، ولم يستطيع سوى مجاراة صمتها ووقوفه جوارها وهي تعاني كل ذلك الإرهاق والتعب. يهرب من عينَيها اللتَين تُظهران ما تشعر به من ألم يمزق قلبها. عاش ثلاثتهم تحت سقف واحد، وقضوا أغلب الوقت في الغرفة نفسها، وكان كلٌّ منهم معزولًا داخل تعاسته الخاصة.

ولا يزال حسن يشعر بذنب دينق وقومه، الذين تعرضوا للسحل أمامه دون أن يفعل شيئًا. اختفى دينق الآن، وربما لا يرغب في لقائه! وفضَّل قطع كل علاقة تربطه بالشمال الذي أذاقه الويلات.. لقد فقده إلى الأبد. وها هي جلاء تنزوي داخل همومها فاقدة الرغبة في كل شيء. كيف يحدث تحول كهذا لشخص ما لم يهشم شيء عظيم قلبه؟!

يحدثها عن اقتراب الحرب من تخوم الشمال، وأن هناك ملايين الأُسر فقدوا كل شيء، وأن الحكومة فقدت البوصلة تمامًا، وأن البلاد يتلاعب بها حزب متطرف يعمل باجتهاد على عودة الجيش للحكم، متحججًا بضعف الديموقراطية وعجزها عن القضاء على التمرد، فنَشط الحزب المتطرف مفتعلًا الأزمات، خاصة وبعضهم يسيطر على السوق. تقول بعض المصادر إنهم يشترون السلع الضرورية من زيت وسكر ودقيق ووقود، ويلقونها في النيل، ما يسبب ندرة السلع وغلاءَها، فثار سخط الشعب، وانتشرت الجريمة بشكل مُلفِت.

ولكن جلاء أطرقت بأجفان مسدلة إلى الأرض، كأن ما يحدث خارجًا لا يهمها. تشير أحيانًا إلى حسن أن يتوقف عن الكلام، فلم تعد تحتمل هذه الأخبار طالما ليس في يدها فعل شيء، وتعود إلى الصمت والاعتكاف على رعاية الأم التي تتداعى بشكل مريع.

في بعض الأحيان يرجوها حسن لتنام قليلًا، بينما يقوم هو بدور الرعاية، لكنها تظل يقظة حتى في غفوتها تلك. وعندما تشعر بأنين الأم واضطرب تنفسها، تقفز راكضة نحوها، فيقف حسن في طريقها، ويطمئِنها أن كل شيء على ما يرام، وأن عليها العودة إلى فراشها، وتنام أخيرًا بوجه موسوم بالهالات، ويبدو الإرهاق حتى في تنفسها.

خطرت له فكرة، وانتظر حتى تستيقظ جلاء من نومها، وأخبرها بأنه يفكر في إيجاد شخص يساعدها في رعاية الأم؛ لأنها إذا واصلت على هذه الوتيرة فستنهار في النهاية لا محالة.. وكان هذا الشخص سلام.

فورًا اتجه إلى المستشفى، وقف بباب مكتبها ملقيًا السلام، بينما تنكبُّ بتركيز عالٍ على ملفات أمامها. مازحها: «لسه ما ودوك السجن؟».

فرحت برؤيته، وردت المزاح وهي تستدير حول المنضدة لتصافحه: «أنا ولا أنت! ما تذكري الأيام ديك. اتفضل اقعد، وحالًا نجهز الشاي بالنعناع اللي بتحبه».

جلس حسن بينما ذهبت لتطلب الشاي. ثم جاءت وجلست قابلته. لا يزال الحزن جاثمًا على وجهه، فقالت حذِرةً: «عندي ليك خبر»، فسكت منتظرًا، ومضى ذهنه يقلب أكثر الأفكار شؤمًا، خاصة بعد شعوره بحضور طيف دينق في المكان فجأةً. ولم تُطل سلام صمتها وهي تراه يتعذب: «لقد وجدتُ دينق».

مال برأسه في اتجاهها، وضاقت عيناه كأنه يخفي ألـمًا، ثم ابتلع لُعابه قبل أن يخرج صوته بصعوبة: «وين؟». فحدقت عميقًا في وجهه كأنها تستمد منه اليقين: «في المعسكر، ولكن..».

هب واقفًا، طالبًا منها وصفًا دقيقًا لمكانه. حاولت تهدئته وإقناعه أن يكمل كوب الشاي، ولم تخبره بأنهما لم يتحدثا، فقط ملامسة عابرة قالت كل شيء، وجدار من الصمت حبس كل منهما في عالم مغاير، لم تخبره بأنهما فقدا دينق للأبد، ليس بسبب الموت ولكن لسوء الحياة. يرغب دينق في النسيان، ومَن يرغب في النسيان، يهرب من مستودعات الذاكرة: الأمكنة والناس.

ألحَّ عليها أن تصف له مكانه ليذهب إليه حالًا. ففعلت، ولكن ليس بحماسة كبيرة، خائفةً عليه من الصد كما فعل دينق معها.

بعد أن اتجه إلى الباب متعجلًا، ضرب على جبينه متذكرًا سبب زيارته إياها، وأنه جاء طالبًا المساعدة باسمه وباسم جلاء، إذا أمكنها رعاية الأم مع جلاء كعمل جزئي آخر، فقطبت جبينها مندهشة، فأشار إليها أن تصبر: «اقعدي دقيقة». جلس مقابلها، وشرح لها بالتفصيل أحوال الأم فوزية، وأن جلاء لم تعد تستطيع رعايتها وحدها، بل تحتاج إلى رعاية صحية ومتابعة دقيقة.

أخذ قلب سلام ينبض سريعًا، وتسارعت أنفاسها، وتجولت بخطوات مرتبكة في المساحة الصغيرة بين أثاث المكتب المكتظ بملفات المرضى، وفجأةً عاد المشهد أمامها عندما نادتها فوزية باسم أمها دون سابق معرفة وتلك التحديقة الغاضبة التي تجمد الأوصال، حتى الآن لا تعلم هل هي المقصودة أم كانت غارقة في إحدى ذكرياتها؟ وهل قصدت أمها، أم روزا أخرى تعثرت بها العجوز في مسيرة حياتها الطويلة؟

ظهر عليها التردد، وكادت تعتذر، ولكن أشار إليها حسن ألَّا تتسرع: «لا تستعجلي في الرد، رتبي أولوياتك، بالتأكيد سندفع لكِ ما تطلبين مقابل أتعابكِ».

هزت رأسها بعنف قائلة: «ما عشان القروش..»، وها هي تقاوم مرة أخرى، هل تخبر حسنًا بحقيقتها، خاصة أن ماركو حتى الآن لم يجد الشجاعة ليفعل؟ هل تخبره مَن هي؟ بالتأكيد سيتفهم الأمر. لاحظ حسن حيرتها وترددها، لكنه مشغول الآن بالذهاب للقاء

دينق، فرمى إليها جملة أخيرة وهو على الباب: «لو انت مشغولة ما مشكلة، بس رشحي لينا واحدة من زميلاتك، طيبة وصبورة، ويا حبذا لو اسمها سلام برضو». فابتسمت من خلف توترها، وحاولت أن تستبقيه، لكنه هرول مبتعدًا، كأن دقيقة واحدة من التأخير قد تتسبب في تبخر دينق.

بقيت سلام في كرسيها تغلفها الحيرة، وتسيطر عليها مشاعر مختلطة من الفرح والتوجس والخوف، لكنها كانت تنتظر فرصة كهذه، وها هو القدر يدفع الكرة ناحيتها أخيرًا، وعليها اغتنامها للتقرب من أختها، وبعدها ربما سيلعب القدر لعبة تساعدها لتكشف لهم حقيقتها. اتجهت نحو حقيبتها القابعة في الخزانة، وأخرجت الصور التي لا تفارقها أبدًا، تأملت أباها الذي يبتسم لها بنظراته العميقة، وغاصت في عينَيه الدافئتين، كأنه يقول لها: «آن الآون لتنهي حالة الرحيل والغربة يا سلام يا ابنة الحرب، واذهبي إلى البيت».

***

لم يستطع حسن نسيان تحديقة دينق بول في لحظاته التي يمكن أن نسميها الأخيرة قبل الانطلاق ليلقى مصيره، ليس أقل من أن يُذبح مع أهله. شخص تقبل مصيره الوشيك بكل شجاعة، لم ينتظره بل انطلق نحوه. لن تفيد معه القوة أو الرجاء أو المنطق، فتحول هو نفسه لمصير يجبرك فقط على تقبل أنه سيموت الآن.

ما أغرب تلك النظرات! كأنه كان يستعجل خلاصًا ما، خلاص اللحظة المرعبة. هل كانت شجاعة أم استسلامًا أم هروبًا؟ لقد اختار

دينق الموت الجماعي بدل النجاة الفردية.. ولكنه نجا، النجاة التي تعذبه حتى الآن.

ارتسمت ابتسامة مريرة على وجهه وهو متشبث بعجلة القيادة، يناور المارة الذين يعبرون الطرقات بذهن شارد. ثم تراجعت المدينة واختفت البيوت والأشجار القليلة الموزعة هنا وهناك، وتلاشت جلبة الأسواق الكبيرة والصغيرة التي يُنادى فيها على بضائع لم يعد في الإمكان شراؤها. قاد حذِرًا في مناورات خطرة على الطريق الترابي المتعرج الذي يقود إلى المعسكر. لقد جاء هنا أكثر من مرة وحدَه أو برفقة آخرين يأسوا في النهاية وأخبروه بعدم جدوى البحث عن شخص غاب قبل شهور. لاحظ أن لدى الجنوبيّين مرونة كبيرة لتقبل الفواجع؛ ربما لشدة ما رأوا من أهوال. لقد صار الأمل يرهقهم، ومن الأفضل لهم أن يزجوا بالمفقودين إلى القبر مباشرة، وأن يبدأوا رحلة الاعتياد على الذين أخلوا أماكنهم للأبد، وأن يتقبلوا أنهم يشغلون أماكن أخرى في السماء أو أينما كان، وليس باستطاعتهم لمسهم أو سماعهم. لا تُجبر القلوب المنكسرة إلّا بقطع حبل أمل اللقاء. حزن واحد ولمرة واحدة مهما طال زمنه أرحم من انتظار شخص لا نعلم أين ألقته الأقدار. ولكنه ليس مثلهم، لقد ظل الأمل ينقر موضعًا ما في قلبه.. ربما هذا سبب رغبته العارمة في تقيؤ كل شيء. رغبته في التحدث عما يعرفانه جيدًا من مكان شعوري مشترك. سيضعان أيديهما على موضع كل الجراحات دون أن يُلقي أحدهما اللوم على أحد، فإما أحييا الأمل، وإما قتلاه معًا وللأبد.

ازدادت حماسته، فلديه كثير ليقوله، يريد أن يحكي له بأنه عاد إلى تلك المدينة التي ذبحتهم، عاد ليجد الناس قد عادوا بدورهم لحالتهم الوادعة كأن شيئًا لم يحدث. لقد حاول حسن عباس طرح الأسئلة عما حدث في تلك الأيام، ولا أحد يريد الإدلاء برأيه، والجميع يتهرب، وينظر إليه بعضهم ببلاهة كأنه يتحدث عن أمر لا يعرفونه.

كأن هناك عقدًا سريًّا بينهم لنسيان الأمر برمته. آب الأطفال إلى براءتهم كأنهم لم يلعبوا بعبوات الجاز لحرق الناس. عاد الرجال من حالة المليشيا إلى مجرد تجار ورعاة كأنهم لم يستبيحوا حيوات أقامت بينهم. عادوا لمروءتهم وكرمهم وطيبتهم المعهودة كما ينبغي. عادت النساء اللائي كن يُضرمن الفتنة بأغنيات محرضة على أخذ الثأر، بوداعتهن وأنوثتهن التي يفوح منها عبق الهشاب والطلح. عادت الحياة لمجراها بعد نزهة دموية قصيرة. كما رجع بعض الضحايا إلى المدينة بعد أن آوى وحش غضبها الأعمى إلى كهفه، ولا يزال بعضهم يتلفت يمنة ويسرةً متوقعًا هجومًا ما. لقد فضلوا العودة والمكوث بالجوار؛ عساهم يعثرون على أطفالهم ونسائهم المختطفين، أو على الأقل قد تصلهم الصلوات التي يقيمونها في المقبرة الجماعية التي احتضنتهم في أعماقها السحيقة.

تجول حسن وحده كمنبوذ، حتى أن الضحايا هربوا منه أو وضعوا أصابعهم على شفاههم إشارة إلى أن يسكت، فكانت «هُسسسسس» إشارةً مختصرةً ألَّا يُفتح هذا الأمر. كأنهم لا يصدقون عودة الشيطان إلى قمقمه، ويتمنون ألَّا يستيقظ مرة أخرى.

كانت الشوارع الواسعة والنظيفة الهادئة في ساعات النهار القائظة تثرثر في أذنَيه. وقادته قدماه إلى السكة الحديدية، حيث تمت المحرقة، فوجد الذكرى تقف هناك متأججة.. كيف استطاعوا نسيان الأمر؟ وكيف يمرون من هنا كأن شيئًا لم يكن؟ هذه العربات التي لا تزال تحمل آثار الحريق والدهن البشري الذي يتمدد ككائنات عملاقة برؤوس وأكتاف على سطح الحديد! لم يستطع حبس دموعه التي انحدرت في قطرات كبيرة يمتصها شاربه الكث.

على الرغم من أنه لم يتوقف عن الكتابة في هذا الشأن لتوضيح الحقائق، وتعرض للاعتقال والتحقيق والسجن، ولكن لا يزال هناك شيء يفرم قلبه. يريد أن يخبر صديقه بأن الجميع يصارعون أنفسهم لينسوا مثلك تمامًا. زاد من السرعة وهو ينهب الطريق نهبًا، كأن هناك كيلو مترات تُضاف لهذه الشساعة الممتدة أمامه.

لقد نما المخيم نموًّا مضطردًا، لدرجة أنه ينافس المدينة في مساحتها: البيوت الاضطرارية الهشة في وجه الريح والأمطار تنبت هنا وهناك، وتفصل بينها دروب قصيرة متعرجة. فهم مثل كل الناس، انشغلوا عن كرب الحرب بحياتهم اليومية، فخف الغضب، ولم يعد المراهقون يهاجمون الغرباء أو يهتفون ضدهم بألفاظ عنصرية، فرضت الحياة القاسية نفسها لقبول الآخرين طالما أنهم زبائن محتملون لشرب العرق المصنوع تقليديًّا من التمر على أيدي نساء اتخذن هذه المهنة لإعالة أُسرهن.

وصل حسن أخيرًا، ونزل وسط سحابة من التراب المثار، وعندما توقفت سيارته مع بداية المعسكر، أبقى المحرك مدورًا، واتجه مباشرة إلى الدكان الصغير المغلف من كل النواحي كصندوق، ووقف أمام النافذة الصغيرة التي تسمح لتناول الأشياء. وقف برهة، مستمعًا إلى نبضات قلبه المتسارعة باضطراب.

- أيوه، عايز شنو؟

لم يكن دينق، كان صوت مراهقٍ بدأ صوته يغلظ للتو.

- دينق هنا؟

- دينق منو؟

- دينق كان شغال هنا؟

- ما فيه زول هنا اسمو دينق.

جاءت إجابة قاطعة وحاسمة، على الرغم من ضآلة صوت ناطق تلك الجملة. وقف حسن مكانه صامتًا، كأنه يودع خيبته الأخيرة. قبل أن يسمع صرير المزلاج وبابًا خلفيًا يُفتح، وقف بنفاد صبر، اقتربت خطوات كسولة تجر صندلًا على الأرض بطريقة غريبة، كأنه مقطوع، أو أكبر من أقدام صاحبه. استدار بطيئًا، ولكن ارتمى ظلٌّ نحيلٌ على الأرض مخيبًا أمله. مدَّ يده مصافحًا، وصافحه الشاب ببرود ووجه مليء بالأسئلة. وأخذ حسن يشرح له عمن يبحث عنه، ولم ينسَ أن يصف له دينق وصفًا مملًّا، وأخبره الشاب أخيرًا أنه لا يعرفه. وكاد أن يتوسل إليه، ويخبره بصداقتهما، وكم من الضروري أن يلتقيه. ولكن وجه الشاب لا يُشجع على الخوض في حوار إضافي. شكره حسن عائدًا إلى سيارته وأبطل محركها، ومشى داخل

المعسكر، يسأل المارة، ويقتحم الأندية التي ترحب به صاحبة المكان كزبون جديد، وعندما يسأل عن دينق، يتحول الترحيب إلى تقطيبة ونظرات ارتياب؛ فربما هو أحد عيون الشرطة التي ترسلهم لمعرفة البيوت العاملة في تجارة الخمور. وجد إجابات متضاربة، قال بعضهم إنه اختفى منذ وقت، وربما سافر عائدًا إلى الجنوب، وأكد بعضهم أنه مات قبل شهور. أحاط دينق نفسه بالغموض، لكيلا يثبت في ذاكرة أحد. وفضل أن يكون المجهول الغائب المنسي. هذا ما فهمه حسن أخيرًا.

عاد إلى سيارته، وقد تحولت خيبته إلى غضب من دينق ومن كل شيء. فتح باب سيارته بسخط واضح، وألقى جسمه على المقعد، وضرب عجلة القيادة ضربات متتالية وهو يردد: «ليه بس؟ ليه دا كله بيحصل؟ ليه؟». وانكفأ على المقود يبكي بحرقة. وفي تلك اللحظة فقط تقبل أن دينق فضَّل أن يظل ميتًا في قلوب مَن عرفوه، وقد نجح في ذلك.

***

انسالت دموع دينق على جانبي عينَيه وهو مُستلقٍ على ظهره. لأول مرة يبكي بعد مرور كل هذا الوقت، فقد عادت به الذكرى إلى يوم إخراجه من المستشفى ليلًا بتلك الطريقة الغامضة، حمله شخصان غريبان، ووضعاه في سيارة أجرة، ووضعوا كيسًا يحوي كل ما يحتاج إليه من أدوية ومحاليل ومراهم، وانطلقت به سيارة الأجرة إلى أطراف المدينة. ثم أنزله السائق على بعد مسافة من المعسكر؛ بحجة أنه خائف من دخول هذا المكان، وطلب منه النزول، فنزل

حذِرًا حتى لا يكشط جروحه بحديد السيارة، ووضع السائق كيس الأدوية قرب قدمَيه وهو يصارع نفسه بصعوبة، ويتفادى أن تلتقي عيناه عينَي دينق، كان مطرقًا مكللًا بالعار.

- معليش يا أخوي اعفي لي عليك الله.

وعاد أدراجه من حيث أتى. لم يُحر دينق جوابًا، وجد نفسه وحيدًا تائهًا في أرض ساشعة ومظلمة، بعد أن تلاشى الضوء الوحيد المنبعث من سيارة الأجرة التي قادها سائقها بسرعة جنونية وهو يرتعد عائدًا نحو المدينة. لوحت أضواء خافتة من فوانيس المعسكر، وقبل أن يخطو لمح في العتمة كتلًا بشرية تنهض من الأرض واحدًا تلو الآخر وتتجه نحوه بثبات، بعد أن سمع صوتًا يأمره بالوقوف: «اقيف مكانك يا زول».

وقف مكانه مُحكِمًا المُلآت حول جسمه المضمد حاملًا كيس أدويته. هو لا يعلم شيئًا عن عصابات الليل التي تنشط في هذا الوقت لنهب العابرين واغتصاب النساء الوحيدات. علموا فيما بعد أنه لم يكن سوى محاولة فاشلة لفريسة وقعت في مصيدة النهب، بل شخص سيذيب قلوبهم بالشفقة عليه. بعد أن رأوه في تلك الحالة، أخفى بعضهم سكاكينهم وهرواتهم التي يهددون بها ضحاياهم، وحملوه حذِرين، واتجهوا نحو المعسكر وهم يهمهمون بأسف على وضعه. تلقفه الناس، وسرعان ما نُصبت له خيمة، وعندما بدأوا تشييد بيتوهم من الطين، حصل هو أيضًا على غرفة وسقف مثبت بالأخشاب المتينة. بذلت نساء المعسكر جهدًا عظيمًا معه، وببساطة لم يتركنه يتعفن. كانت جروحه ساحة لتجربة كل خبراتهن

المتراكمة في علاج الحروق، العلمية منها والتي لا تمتُّ للعلم بصلة، بل وبعض الاعتقادات الخرافية التي كان من الممكن أن تؤدي إلى تسمم جسمه كاملًا، كان هذا السبب الكامن وراء تحملهن بصبر ودون اعتراض.. فربما عجلن موته. فتارة يحرقن ألياف الخيش المقطوع من أقرب شوال فحم وينثرن رماده على الطبقات المسلوخة، وتارة أُخرى يلصقن صوف أرنب لا يعلم كيف حصلن عليه في هذه الأنحاء البعيدة، ولم يسأل، ويضمدن به التقيحات ليمتص رطوبتها. وفعلًا في اليوم التالي يبدأ الجرح بالجفاف. ونجحن في دحر جزء كبير من الحروق، ولكن بطريقة مشوهة، وحذرنه من نزع تلك الأشياء، فظل يحمل بقعًا من صوف الأرنب كالزغب موزعًا على جسمه، تختبئ تحتها قروح توقفت عن النزف للتو.

لم يستطع طول هذا الوقت الخروج من عربة القطار، ظل محبوسًا فيها وعيناه تستحضران تساقط أهله واحدًا وراء واحدٍ أمام ناظرَيه حتى غاب عن الوعي. تعيد تلك الذكرى نفسها تعذيبه، وتدفعه نحو هوة سحيقة مظلمة من الذكرى المكرورة، حيث نجا الجميع بالموت، بينما الحياة تأكله بطيئًا. كثيرًا ما استيقظ من النوم بآلام شديدةٍ كأنما رُشَّ بحمض حارق. كانت تلك الذكرى تفتح جروحهً من جديد، لتتفاجأ النسوة بتدهور حالته بين يوم وليلة، فيدخُلن في معركة جديدة لاحتواء تلك الجروح الشرسة التي تنتشر سريعًا في جلده. يقضي دينق معظم الوقت في غرفته، مغمض العينَين، مناجيًا الموت.. بعدما لم يعد يفرق هل هناك ألم حقيقي أم هو فقط يجتر ألـمًا أستقر في روحه.

ذات يوم دلفت امرأة غرفته الطينية، ووقفت على مسافة منه واضعة يدَيها على جنبَيها كأنها في حالة شجار. أخذت تهز رأسها يمنة ويسرة بأسى. وبدأت تتكلم دون أن تصدر أصواتًا، وإنما نغمات كتلك التي تصدرها بعض الحيوانات، وتلوح بيدَيها، ترفعهما إلى السماء كأنها تطلب من الرب أن ينتقم منه؛ ربما لأنه يهدر جهد النساء اللائي يعتنين به، وأحيانًا تصفق وتعض إصبعها مغتاظة. لم يفهم ما تقول. هل هو المعنيُّ بما قالته بلغتها، أم تعني شخصًا آخر. ولكن كان غضبها جليًّا، وقد عرف فيما بعد أنها بكماء يناديها أهل المعسكر بـالطرشا.

أمسكت الطرشا يده، وأنزلته من السرير، وقد فرشت ملاءة على الأرض من قبل ذلك، وطلبت منه أن يستلقي عليها، ثم وقفت فوقه كملاك موت أخرس، باعدت بين ساقَيها فوقه، وتبولت على قروحه، وحرصت أن تمرر السائل الدافئ على كل جسمه، متجاهلةً وجهه الذي أبدى استنكارًا ورفضًا، ولكنه لم يقوَ على النهوض، وواصلت تميل يمنة ويسرة مقوصة ساقَيها ومنحية الرأس بوجه متقلص، تتبع مسار بولها فوق دينق. وبعد أن انتهت، أنزلت فستانها، وشرحت له بإشارات خرقاء أن ذلك سيشفيه، فتقبل تجربتها المهينة بقرف بائن، ثم مدت ذراعَيها لترفعه عن الأرض، فلاحظت انتصاب عضوه. التقت عيناهما، فابتلع ريقه، وشعرت به، وابتسمت! ثم مدت ذراعها، وصفعت باب الزنك بقوة، لينغلق عليهما مصدرًا ضجيجًا.

الفصل الحادي عشر

بيتُ الأَبِ

وقف بيت أبيها أمامها شامخًا بطوابقه الثلاثة، جداره قديم بدهان متقشر، يلفه الصمت من كل ناحية. خطت سلام خطوات وئيدة فوق الممشى المرصوف ببلاط قديم.

شعرت بحشد غير مرئي يمشي خلفها، تسمع وقع خطواتهم يوشوش فوق البلاط كأنها في موكبٍ. تلتفت، فلا ترى أحدًا. تحاول جلاء -التي تمشي بمحاذاتها- امتصاص ارتباكها بترديد كلمات الترحيب. كادت تمسك يدها لتطمئن قليلًا، ولكنها قمعت نفسها كعادتها. ولكن رغبتها في عناق أختها والبوح لها بكل شيء يحتشد الآن في قلبها الذي يخفق. تنفض الفكرة في اللحظة الأخيرة مبتلعة عبراتها. شتت مشاعرها بالتركيز على معالم الحديقة الواسعة. توزعت الأشجار بانتظام ملقية رقعًا من الظلال، يقسم الممشى -الذي تخطو فوقه متبعة جلاء التي سبقتها بخطوات- الحديقةَ قسمَين، قسم مبلط والآخر مغطى بالنجيلة. تبعثرت شجيرات جافة هنا وهناك، وأحواض الزهور تحمل آثار الإهمال. نافورة مزينة بأسد منحوت على نمط إغريقي عتيق كآثار التاريخ، تراكمت على جنباتها ذرات الغبار، طفت أوراق الأشجار المتساقطة فوق مائها الآسن.

دخلت البهو، وهي تعانق حقيبتها بقوة، كأنها تضغط على قلبها حتى لا يقفز خارجًا. البهو شديد النظافة والترتيب. توزعت المقاعد الوثيرة بعناية لتشكل مجالس منفصلة عن بعضها هنا وهناك وكل بطراز مختلف.

احتلت مقتنيات مجلوبة من كل أنحاء العالم مواقعها، واستقرت لوحات زيتية على الجدران. ولمع البلاط بلونَي رقع الشطرنج، ثم سلم لولبي أسطوري يهبط من سماء المكان.

وقفت تتأمل كل ذلك بعقل يهرول بين عالـمَين: عالم في خيالها، وعالم تضع عليه قدمَيها. طلبت جلاء منها أن تجلس، ففعلت على أقرب مقعد. واندفع دم ساخن في صدغَيها، وشعرت بدوار لم تتبين أهو في رأسها أم حولها.

لا يزال طيف الموكب غير المرئي يرنو إليها من خلف الكرسي الذي تجلس عليه. حشد كثيف، كأن باستطاعتها لمسهم إذا مدت يدها.. تشعر بهم جميعًا هنا.. الأموات منهم والأحياء، تلفح أنفاسهم رقبتها وتطير شعراتها المنفلتة. عبد السلام الأب الذي اختفى وعلمت بموته بعد سنوات، روزا الأم التي عاشت وحيدة تحاول حمايتها من ردود الفعل حول اختلافها، بيتر الأخ الذي ترعرع هنا كطفل متبنى، هل شعر بالغربة هنا كما شعرت هي بالغربة طوال عمرها هناك؟ ما الأسئلة التي تُوجَّه إليه؟ هل كانوا ينادونه سرًّا باسم عنصري؟ كيف استجاب لندائهم؟ مَن دافع عنه؟ تمنت لو كان موجودًا، هل كان سيسهل الأمر؟ حتى عمتها فوزية التي على حافة الموت المحبوسة في عالم آخر ولا تتلمس طريق العودة.. أحستها

هنا. تزاحمت الذكريات أمامها وتكالبت عليها، شعرت كأنها تعرت بغتة. بدت جلاء باهتة الحضور وأشرق وجهها بابتسامة صادقة تنبع من قلب طيب، كأنهما التقتا داخل حلم، يأتي صوتها المرحِّب من خلف طبقات المكان كرجع الصدى.

أيقظتها الخطوات الراكضة، رفعت رأسها تترقب شخصًا ينزل الدرج، ارتمى ظل حسن على الجدران. برز الشارب والشَّعر الكثيف مثبتَين على الجسم النحيل كمسطرة الأستاذ. كادت تطلق ضحكة على ظله الكاريكاتيري الذي ارتسم على الجدار المقابل، حيث تضخم الرأس لوهلة وصغر الجسم كثيرًا.

تنهدت مرتاحةً عندما ميزت حسنًا من ظله، صافحها بابتسامة واسعة، وشكرها على قبول مساعدتهم. تركتهما جلاء مؤكدة ترحيبها مرارًا وتكرارًا متجهةً إلى المطبخ لتعد شيئًا للضيفة.

لم يزعجها حسن، وتركها تتأمل في المكان، وعندما تلتقي أعينهما يومئ مرحِّبًا دون أن ينطق كلمة. عادت سلام تدريجيًّا لهدوئها. قدمت جلاء كوب العصير نحوها، فهزت رأسها شاكرة ولا تزال ابتسامة مضطربة ترتجف فوق شفتَيها. رشفت من العصير، ووضعت الكوب فوق المنضدة القريبة.

تجاذبوا أطراف الحديث عن الجنوب والشمال، عن الحرب والسلام، عن السياسة والناس، وكل ما تمر به البلاد. طبعًا عرج الحديث عن الأب الذي ربطهم بالجنوب عبر أسفاره الكثيرة إليه، وحكاياته عن ذلك كثيرًا، وعن الأخ بيتر الذي تربى معهم في هذا البيت، واستمرت العلاقة حتى التحاقه بالثورة المسلحة في الجنوب.

وعندما انتهت جلاء من سرد كل ذلك، شعرت سلام بفضولهما هي وحسن يخترق جلدها. مما جعلها تذكر معلومات مقتضبة عن نفسها وأبيها المتوفى الذي ينتمي للشمال وأمها التي لا تزال في الجنوب. وقبل أن يسترسلوا في الأسئلة، طلبت من جلاء أن تشرح لها ما المطلوب منها بالضبط. أعادت دفة الحديث إلى العمل الرسمي.

دعتها جلاء إلى الغرفة التي ترقد فيها الأم. كانت بعد نصف دورة تحت السلم. الباب موارب، ولا يخدش الصمت إلّا تكتكة عقارب ساعة تأتي من مكان ما، تتناغم مع نبضات قلبها. تكة من الساعة ونبضة منها... أمسكت جلاء مقبض الباب ودخلت دون جلبة، وكذلك فعلت سلام محاولةً إسكات جلبتها الداخلية وجلبة الموكب الذي يمشي خلفها كأنهم يزفونها إلى الحقيقة.

الإضاءة خافتة، لم تغرق الغرفة في العتمة ولا في الإضاءة. توزع أثاث قليل هنا وهناك كله من الأبنوس الأسود، ما عدا السرير الطبي المحمي بحواجز على الجانبَين ترقد فيه المريضة. فوقها على الجدران صورة مكبَّرة لعبد السلام ببدلة رمادية وربطة عنق حمراء. بدا أستاذًا جامعيًا.

رمقها بنظرة حانية وابتسامة تحركت بشكل ملحوظ خلف زجاج الإطار المذهب. خفضت عينَيها سريعًا؛ لأنها شعرت بذاك الوخز في قلبها يدفعها لترتمي بين ذراعَي جلاء وتعترف بقرابتها لها. ولكنها قاومت، كم تكره هذا الشعور!

هناك كرسي وحيد من الخيزران، ومنضدة تكدست فوقها صناديق الأدوية، ثم دولاب من ضلفتَين، يقف كتمثال قديم، ثقيل وراسخ

على الأرضية المفروشة بسجاد سميك يبتلع دبيب الخطوات، هناك حمام داخلي بابه موصد، وعلى الركن منه كرسي مدولب.

في كلمات بسيطة شرحت لها جلاء الوضع، ثم نبَّهتها إلى وجود جرس في حال احتاجت إليها أو خرجت الأمور عن السيطرة، وأشارت إلى مفتاح أسود به ذر أحمر مثبت على الحائط جوار الباب.

أومأت سلام مشيرة أنها فهمت كل شيء، مشت جلاء نحو الباب بعد أن ألقت نظرة أخيرة نحو أمها. كادت سلام ترجوها أن تبقى، لكنها ضبطت نفسها أخيرًا. تلفتت باحثة عن مكان تضع فيه حقيبتها، وضعتها على النافذة خلف الستار. جلست على الكرسي، في مواجهة صورة أبيها. عادت للواقع؛ لأن الصورة مجرد صورة، اختفت الابتسامة التي تخيلتها، وتراجع حفيف الحاشية التي زفتها إلى أن دخلت الغرفة.

ها هما الآن وحدهما، الماضي في مواجهة الحاضر. ستقضيان الليل معًا وتثرثران في الظلام دون أن تنطقا، وربما تعيدان نسج كل الخيوط المقطوعة لتكتمل القصة على ضوء مصباح صغير في السقف، لم يكن الغرض منه الإنارة، وإنما عتمة أكثر.. ينثر ظلالًا ناعمة لمن أراد أن يتوارى من أعين الفضوليين.

تأمل أن تخاطبها العجوز من بوابات الماضي الخلفية، تستفزها بلمسة كما فعلت من قبل؛ لعلها تسترسل وتكشف حاضرها المجروح الباحث عن الانتماء، فتخوضان معًا في وحل ذكرياتها دون أن تتلطخا. دارت دورة كاملة حول السرير، كمصارع ثيران يختبر مدى دقة وسرعة قرنَي الثَّور. اقتربت تمسح ملامحها النائمة.

وجه بلا تجاعيد، كأنها طفلة في جسد عجوز، تتقاطع يداها فوق بطنها، هناك فرق واضح بين عمر يدَيها والسنين التي تحط على وجهها. ترتدي ملابس بيضاء خفيفة وفضفاضة وتتغطى بالأبيض ومفارش سريرها بيضاء، كأنها أمام جنازة. رقدت جديلة طويلة على الجانب، وامتد إلى تحت الأغطية كحبل بئر، ودون أن تشعر مدَّت يدها لتحل ضفيرتها المعقوفة خلف رأسها، لم يكن بطول شَعر الحاجة، ولكن الخصلات المتمردة غير الخاضعة للتمشيط هي ذاتها، تحيط بالضفائر كهالة من الشعيرات اللا نهائية، أمسكت طرفها وباليد الأخرى أمسكت جديلة الحاجة، وقربتهما من بعضهما، وابتسمت هازئة. عمَّ تبحث بالضبط؟ تبحث عنها في وجوه الآخرين وملامحهم، هي المبعثرة في الكل، تريد أن تُلملم شتاتها المبعثر بين غابات الجنوب وصحراء الشمال. اخترقت أنفها رائحة طيبة، زيت الصندل والقرنفل المخلوط بدهن البهائم. تكره الروائح التي توقظ فيها الحنين، رائحة تدعوك للعناق فحسب، أغمضت عينَيها، وانحنت تستنشقها، كادت تتوسد صدرها الذي يرتفع وينخفض في شهقات وزفرات منتظمة، غمرت رأسها في عبق الحاجة، أغمضت عينَيها وهي تستسلم لجذب قوي يدعوها بأن تتوسد حضنها فحسب. فجأةً سمعت خطوات قرب الباب، أعادت لف شَعرها، وتظاهرت بقياس حرارة المريضة. أطلت جلاء ورفعت إبهامها تسأل هل كل شيء على ما يُرام؟! فردت سلام رافعة إبهامها في الهواء تومئ برأسها بألَّا تقلق. فوضعت جلاء كفها على خدها، إشارة إلى أنها ستنام.

لوحت سلام مبتسمة. سحبت جلاء الباب خلفها، ولكنها لم تحكم إغلاقه، وتركته مواربًا كما كان. جلست سلام على الكرسي، تتأمل صورة عبد السلام أبيها الذي يحدق فيها تحديدًا، بابتسامة تتراءى حينًا وتختفي حينًا. كل شيء ساكن فقط.. صمت مطبق. حملت الكرسي وجلست عليه ملتصقة بحافة السرير، واقتربت تغرق نفسها في عبق السيدة المسجية مرة أخرى.

تدفقت موجات من المشاعر واحدة تلو أخرى، انهار حصنها الواهي -الذي يتكدس خلفه كل آلامها وحزنها- ينهار كسد. شعرت بحريق في عينَيها، وبدأت دموعها تنساب، وكلما مسحت قطرة انسابت قطرات كبيرة، أحاطت بها الأطياف مرة أخرى، وشعرت بحضورهم متحلقين حولها.

أسندت رأسها على حافة السرير، مدت يدها تلامس يدَي عمتها نافرة العروق كجذور شجرة معمرة، ارتجفت ولم تعد تقاوم غضبها وحزنها وكل معناتها. انفرط كل شيء عن آخره، أخذ السرير يهتز مع كل شهقة حاولت ابتلاعها، حتى استيقظت المريضة من نومها العميق. سحبت يدها من كف سلام، ووضعتها على رأسها، وأخذت تربت عليها بوهن، ولكن وفر هذا لها العزاء وأمان أن تكون نفسها في هذه الليلة؛ فليس هناك ما يُخيف، فهي في حضرة النسيان نفسه. سينتهي كل شيء بشروق الشمس. قررت أن تمضي في تحفيز ذاكرة الحاجة فوزية. همست بين عبراتها: «أنا بنت روزا، بتعرفيها؟». انتظرت، لم ينِمَّ عنها أي نوع من الهياج، واصلت تربيتها على رأسها محملقة في السقف، وبعد هنيهة قالت: «ما لك يا تحية يا بنتي؟».

تسمرت، ظلت توسد رأسها بين يدَي فوزية، وخاب أملها قليلًا لأن ذاكرتها قد استيقظت في مكان آخر وحدث مختلف تمامًا. وواصلت الحاجة حديثها بصوت يأتي من أغوار بعيدة يحمل كل قلق الأمهات: «ما لك يا بنتي؟ اسماعين ضربك تاني؟ تعالي في حضني». زحفت سلام قليلًا إلى الأعلى محاولةً إخفاء وجهها قدر المستطاع، وسرعان ما طوقتها العجوز وأغرقتها في عبقها. وواصلت دموعها الانهمار، لا تدري منذ متى لم تبكِ بهذه الطريقة، ربما منذ كانت طفلة تلهو في القرى البعيدة في أقاصي الجنوب. إنها الغريبة دائمًا مهما أجادت من لغات ورقصات، ولكنها لم تبرح المكان الذي وُضعت فيه، فهي بنت الشمالي الذي هرب، وبحكم ذلك أصبحت عبئًا على أمها، وحاربت وحدها الجميع من أجلها، تفر بها من مكان لآخر، فصبغتهما الغربة حتى النخاع، لا تستطيع أن تعدد الأمكنة والألسنة التي مرت عليها وبها، إلى أن كبرت وأصبحت تهرب وحدها، ثم قررت أن تواجه مصيرها في هذا البيت.

استمرت فوزية تربت عليها وتمسح على رأسها بحنوٍ، وشبكت يدَيها حول رأسها، لم تكن في تمام الاحتواء ولا التراخي لدرجة الإفلات، ضمة واهنة كما تضم طفلة نائمة لعبتها المحببة. مدت يدها تحت ذقن سلام محاولة رفع رأسها بأصابع مرتجفة، فقاومت سلام النهوض، مفكرة في ماذا لو عاد إليها وعيها في كسر من الثانية وتفاجأت أنها ليست تحية؟ ربما سيكون رد فعلها أكثر سوءًا إذا تمثلت لها في صورة روزا! ارتعدت مستعيدةً ردة فعلها الغاضب عندما زجرتها في غرفة العناية الفائقة بسؤال جارح: «روزا، اللي

جابك هنا شنو؟»، أخذ قلبها يخفق، واتضح جليًّا أنها غير مستعدة للمواجهة الآن. منذ تلك الحادثة الصغيرة التي لم ينتبه إليها أحد، التي تفسيرها كنوبة من نوباتها التي أصبحت في حكم العادي، لم تتوقف سلام عن تحليل الأمر، الغضب ونظرة الكره، تفسران كثيرًا، فروزا أكثر من مجرد أم لصبي ربته على مضض، لأن عبد السلام فرضه عليهم فرضًا، وكان شعورًا آخر.. ربما الإهانة.

بحدس المرأة لا بد من أن تطرح الأسئلة وتلح حتى تحسم معركة الشك داخلها، بالتأكيد لن يمر كل ذلك دون تفسير حتى لو كان مؤلـمًا، هل اعترف لها في النهاية؟ هل أخبرها بوجود امرأة أخرى وابنة؟ وفي أثناء استغراقها في الأسئلة، كانت الحاجة تجيب بإجابات فارغة تمامًا. في النهاية غلبهما النعاس؛ تلف كلٌّ منهما ذراعَيها حول الأخرى، ونامتا حتى انبلج الفجر.

لا تدري سلام كيف مرت ساعات الليل وهي غافية في ذاك الوضع المريب محتضنة مريضتها. انتفضت تلقي نظرة حولها للتذكر أين هي. دخلت الحمام سريعًا، غسلت وجهها من ملح دموعها، وعادت لتجلس على مسافة هذه المرة حتى لا يتصيدها عبق الأم. أخذت تتأمل صفاء وجهها البهي. كان مضيئًا كبدر في ليلة اكتماله. هي أيضًا أحست براحة كبيرة على الرغم من أنها لا تزال سلام المجهولة. ابتسمت بامتنانٍ أمام ذاك الوجه الذي ينير قلبها ويملأ جوانحها بالطمأنينة. لا يزال دفء ذاك الجسد يوقد جانب وجهها.

رفعت رأسها نحو الإطار المذهب الذي يحبس صورة الأب، فاتسعت تلك الابتسامة مرة أخرى، وتمددت لتطوي الجلد حول عينَيه وتحيطهما بموجات من التجاعيد الناعمة. تحاشت إطالة النظر في وجه أبيها؛ لكيلا تقع في فخ العتاب الصامت على أنه تركها ذات يوم دون وداع، قد تنهار مرة أخرى.

عليها أن تتمالك نفسها. لا تزال المريضة تغط في نوم عميق دون اضطرابات تُذكر، بل هي التي أُصيبت بنوبة خطيرة من الأسى على النفس. وضعت أصابعها على معصم المريضة وراقبت عيناها الساعةَ على يدَيها، كان النبض منتظمًا وحرارتها على ما يرام. وقياسًا بكل المخاوف التي تحملها، يمكن أن تقول بأنه لم يحدث أمر مخيف من جانب مريضتها. نوم هادئ لساعات طويلة، دون كوابيس ولا ذكريات تهيج أعصابها. ولكن ذلك أحبطها بعض الشيء؛ لأنها رغبت في ذاك الهياج، وربما ترفع الستار عنها. سيختصر ذلك عليها كثيرًا من الوقت ويوفر لها الكلمات. لو استفزت بنطق اسم روزا، وبدأت تحكي كل شيء، ما كان عليها فعله هو الضغط على الجرس، وتترك جلاء وحسنًا يسمعان. في النهاية ستكشف عن نفسها، وتخرج الصور التي بحوزتها، وينتهي كل شيء. ولكن لم يحدث ذلك كله. لقد أثبتت فوزية خطأ نظريتها، فهي ليست شريط مُسجل، بمجرد تشغيلها ستثرثر بما ترغب فيه.

تسللت خيوط الشمس عبر النافذة، ولكن الستائر الداكنة حالت بينها وبين اقتحام فضاء الغرفة وتغيير مواقيتها الثابتة التي تضبطها على درجة الإضاءة الخافتة، لتجعل ليلها كنهارها وماضيها

كحاضرها، وقت ثابت كمواقيت القبر. سمعت طرقًا خفيفًا على الباب، وقفت جلاء مبتسمة خلف الباب الموارب، توزع نظراتها بين أمها وسلام التي تقف على رأسها. كأنها تستأذنها بالدخول. ابتسمت سلام، وتبادلتا كلمات ترحيب قصيرة. طلبت منها جلاء الانتظار في البهو، حملت سلام حقيبتها وخرجت، ولوهلة شعرت أنها دخلت متاهة، تلفت يمنة ويسرة لتجد طريقها. أخيرًا قررت الخروج من العتمة بتتبع الأضواء التي تزداد سطوعًا كلما مضت قدمًا، إلى أن وجدت بداية الدرج، والتفت أمامه لتجد نفسها في البهو الساطع الذي تدخله الشمس من كل المنافذ، ما أعطاها شعورًا كأنها تمر بلحظة ميلاد جديدة في بيت أبيها. غمرها شعور غريب، كأن عناق الحاجة فوزية لساعات قد منحها قوة لتغفر، وذاك الحوار الذي لم تعنها به قد غسل كل الحزن في دواخلها حتى ولو لم تدرك الحاجة فوزية ذلك. كانت مجهدة كأنها أزاحت صخرة ضخمة عن طريقها. عدم هياج الأم وتحولها فجأةً لشخص استطاع مواساتها بتلك الطريقة الرقيقة، كانت إشارة سعيدة أخذتها على محمل الجد. لدرجة أنها شعرت بأن أوان الكشف عن نفسها قد حان.

الفصل الثَّاني عشر

الفيضان

telegram @
yasmeenbook

استمر تدفق النازحين صوب الشمال بعد تخريب سبل الحياة في الجنوب. قابل ذلك انتشار المعسكرات التي تكدست عن آخرها، وتمددت حتى دخلت الأحياء القريبة منها. سكن بعضهم المباني التي تحت الإنشاء؛ على أمل أن كل ذلك مؤقت، وسيأتي اليوم الذي يعودون فيه. ولكن أنباء الوافدين الجدد كانت محبطة، تحمل كثيرًا من الفواجع، الأمر الذي جعل لوسي في حالة حزن وخوف دائمَين. تكره هؤلاء النعاة الذين يطرقون باب بيتها ليلًا وفي الصباحات الباكرة، وقبل أن ينطقوا كلمة واحدة تقرأ أنباء الموت في أعينهم المنغرسة في الأرض وأيديهم المتشابكة أمام بطونهم، كأنهم يُعبِّرون عن إحساسهم بالذنب لتحملهم مسؤولية توصيل الأخبار المفجعة. في العام الأول كانت تتلقى تلك الأنباء بالعويل. الحزن كالفرح يحتاج إلى المشاركة ليخرج في كامل بهائه. تُهرع الجارات تاركةً كل ما في أيديهن من طبخ وغسيل وإرضاع، ويرتدين أثوابهن متعجلات لمعرفة ما يجري في بيتها، ويندبن معها، ثم يواسينها. ومع تكرار عويلها -لا يمر أسبوع دون سماع أخبار مميتة- تحول إلى شيء عادي، فلم تعد جاراتها يُهرعن كالسابق متعجلات تاركات كل شيء، وبدلًا عن ذلك ينشغلن بأداء واجباتهن المنزلية. وإذا

مررن بها، فلا يقفن عندها ولا يجلسن معها، وهذا طبيعي؛ يغض الناس الطرف عن البلايا التي لا يملكون حيالها شيئًا.

أصبحت لوسي في حالة حداد دائم على مَن لقوا حتفهم ومَن لا يزال موتهم أخبارًا تنتظر الوصول. كفَّت عن العويل وإطلاق الصرخات الصباحية تستجدي جاراتها ليشاركنها الفجائع، وأصبحت تقيم مأتمها صامتةً والألم يعتصر قلبها.. تراكمها يومًا بعد يوم، وإذا فاق الأمر احتمالها، ذهبتْ إلى المعسكر؛ تقطع المسافات لتلتقي مَن يشاركنها الحزن. لم تنسَ عندما مازحتها إحدى الجارات ذات يوم سائلةً: هل جميع الموتى الذين تبكيهم ليلَ نهارَ أقاربها فعلًا، فلمَ تستطع لوسي الرد على سؤالها. كيف ستشرح لها تلك العلاقات الشائكة الممتدة إلى كل فرد في القبيلة، بالإضافة للمعارف الطارئين الذين أصبحوا من ذوي القربى بحكم الحرب.

توصلت -نتيجة تقليب هذه الأفكار في رأسها- إلى عدم إشهار مأتمها على مسامع الحي أبدًا، وأن تكتفي بالنحيب المكتوم، حريصةً ألَّا يعبر فوق الجدران التي تفصلها عن جيرانها. الناس يملون من الأسى إذا تكرَّر بالطريقة نفسها، وبمرور الوقت يتجاهلونه أو يتهربون من سماعه.

وضعتْ حُدودًا صارمة، تفصل بين نكبتها التي أصبحت أمرًا يخصها، وبين ممارسة الزيف العام متظاهرةً أنها بخير. على الرغم من أن قلبها حقد على مَن هم بخير فعلًا. ليس فقط جيرانها، بل أولادها الذين لا يعرفون أحدًا هناك في الغابات البعيدة، فمهما حكت لهم، لا يشعرون بحزن لفقد إنسان لم يلتقوه من قبل. ولكن سرعان ما

انتشر البؤس وطغى على كل شيء، ووجد الناس أنفسهم مضطرين لمجابهة الغلاء الفاحش واختفاء السلع وامتداد صفوف الخبز والوقود والسلع الضرورية الأخرى. تبدأ هذه الصفوف عند أبواب المخابز، وتتسلسل في الشوارع الجانبية إلى ما لا نهاية.. حالة من الفوضى وغياب تام للمعلومات المؤكدة وانتشار الشائعات والأكاذيب مع الهواء الذي يتنفسونه. الحدس وحده يقودهم لتوقع النهايات، متحايلين على الأخبار التي تبدأ بـ «قالوا»، فلا أحد يريد تحمل قول قد تمحوها «قالوا»جديدة تجعل الأولى كذبة مخيبة للآمال.

الحيلة هي ابتكار طرق لحفظ مواقعهم في الصف لا تؤثر على أنشطتهم الأخرى، كالذهاب إلى العمل أو الأسواق، أو قضاء واجب العزاء، وأحيانًا الذهاب إلى المقبرة لدفن الموتى الذين لا يأبهون بسوء توقيت موتهم، ومن ثم العودة سريعًا لأخذ مواقعهم في الصَّفِّ. تُحفَظ تلك المواقع بالحجز، يستخدمون الطُّوب والحجارة، وأحيانًا الأطفال الذين يُحوِّلون تلك الأزمة إلى ملهاة ولعب، ينتهي بمشاجرات بسبب نسيانهم أماكنهم، فسرعان ما يتورط فيها الكبار، ولا تنتهي سوى بشج رأس أحدهم وحضور الشرطة التي تفض الصفوف بجلد الجميع بالسياط.

بالنسبة لأُسرة لوسي وماركو التي تتكون من أفراد كثيرين، كانوا يرسلون أكثر من أربعة أطفال، ليحصلوا على خبز يكفيهم بعد تحديد عدد الأرغفة لكل مُشترٍ.

وكلما ضاق الخناق على المواطنين، كلما زادت ثرثرتهم وتباروا في تحليل كل شيء، فتارة يحيلون الأسباب إلى العقوبات الأمريكية

التي فُرضت على البلاد والديون التي أغرقت الحكومة، وتارة بسبب الحرب، وتارة يقولون: إن الأحزاب المعارضة تخلق الأزمات لتُسقط الحكومة، حتى وصل الأمر إلى إلقاء السلع في النيل من الوقود والدقيق والسكر لافتعال أزمة، وأكد شهود عيان أنهم رأوا بقعًا واسعة من الزيوت تطفح في النيل.

وبغض النظر عن التفسيرات الكثيرة التي يقذفها الناس يمينًا ويسارًا، فإن تأمين وجبة واحدة لأُسرة خلال اليوم صار يحتاج إلى عزيمة قوية، ويستلزم الأمر الاستيقاظ فجرًا أو قبله، ثم القيام بجولة خلال الشوارع المظلمة المليئة بالكلاب النابحة التي تهجم عليهم بشراسة، مما ألجأ المتجولين ليلًا للتسلح بالعصي أو الحجارة اتقاءَ شر هجمة مباغِتة من كلب شديد الوفاء لا يتردد في إثبات ذلك بعضِّ مؤخرات المارة في تجوالهم الليلي داخل الأحياء. يهيمون في الظلام كالأشباح، كبارًا وصغارًا، مجموعاتٍ وأفرادًا، نساءً وطفلاتٍ، رجالًا وصبيانًا، ولم تكن الخرطوم لتنام ما لم تؤمن قوت الغد.

ولأن هناك احتماليةً كبيرةً لعودة الناس خاليي الوفاض من الأفران، كانت ربات المنزل مستعداتٍ لإيجاد بدائل سريعة، بالعودة إلى الوجبات التقليدية المعدة من دقيق الذرة.

وتنامى السَّخط وسط المواطنين..

أصبح ماركو متيقِّنًا الآن أن كل الشائعات المتفشية في زمن الكوارث تتحول إلى حقائق آجلًا أو عاجلًا. وهذا ما حدث، لقد تعرَّض الفندق الذي يعمل فيه للإفلاس بسبب تدهور قطاع السياحة في البلاد. وقد سمع الموظفين وحتى عمال النظافة يتهامسون فيما

بينهم أنها مسألة وقت فقط حتى يجد الجميع أنفسهم على الرصيف من دون عمل، خاصة عندما فقد الفندق الزوَّار المقيمين، وأيضًا الرواد من السودانيين الأستقراطيين الذين يقضون أوقاتهم باحتساء القهوة والخمور المستوردة وحضور حفلات فنانين عالميين ووطنيين. وجد ماركو في أحد الصباحات خطابًا مغلفًا على منضدته يخبره بإنهاء عقده، وعليه التواصل مع المكتب المختص لإتمام الإجراءات الخاصة بذلك. طوى الخطاب، وقد ثقل رأسه حتى أنه بالكاد يرفعه بين كتفَيه، وفي ذهنه مسؤولياته الجسام.

ظل يأتي بانتظام، يتبع خيطًا واهيًا من الأمل؛ عسى أن يعاود الفندق فتح أبوابه ليكون أول العائدين. يتسكع في محيطه. يجلس تحت سقيفة المحلات المقابلة للفندق، يحدق في بابه الموصد، باب غريب على المكان، لا يتذكر أنه رأى هذا المكان مغلقًا من قبلُ. الأبواب المغلقة دائمًا تثير فيه الحزن والريبة. لكنه يبقى منتظرًا على أمل أن تقوم البلاد من كبوتها، وتعود الأمور كما كانت؛ فهم لا يريدون سوى حياة ممكنة، يضخون فيها من أنفاسهم وعرقهم. كان كل ذلك مجرد حسرات؛ فلا شيء سيعيد الأمور إلى الوراء.

الأماكن المهجورة لديها هُوية قوية وبائنة للعيان. ورأى ماركو القاذورات تتكدس في المساحة الأمامية للفندق. اختفت السيارات الفارهة وسيارات الأجرة التي تنقل القادمين من المطار. توقفت الموسيقى الهادئة التي تتسلل من مكان ما لتدب في قاعة الاستقبال والممرات النظيفة الطويلة ذات السجاجيد الحمراء كالتي يمشي عليها نجوم السينما.

يقف المبنى وحيدًا، سكون الحياة حوله جعله كئيبًا كأنه ينتظر الهدم. يعبر المارة بمحاذاته كمرورهم بجدار أو بوابة.. كأنه لم تكن خلفه هناك حياة كاملة. الناس ذاكرة الأماكن الحية والمتجددة، ومتى غادروها ماتت بالنسيان.

أخذ ماركو يحسب على أصابعه الأعوام التي قضاها هنا، خمسة عشر عامًا بالتمام والكمال، عندما كان كل شيء في شارع الجمهورية حيًّا حضاريًّا. تنهد بأسى، خلاصة الأمر هو الآن على الرصيف بلا عمل. لم يستطع تحمل ذلك كله، فانزوى على نفسه تاركًا كل شيء للوسي، التي أصبحت تتدبر أحوالهم بخبرة إنسانة تعرف كيف تتعايش مع النكبات. الحرب تهدد مَن لم تقتلهم القذائف بأن يلقوا حتفهم بالجوع والأسى والمذلة.. وهناك عدة مصائر غامضة تتربص بالجميع. لقد مرت لوسي من قبل في قريتها البعيدة في الجنوب بمثل هذه الانقطاعات في طبيعية انسياب الحياة. وعلى المرء فقط أن يشرع في وضع تدابير تقشف صارمة من أجل النجاة، من دون وضع أي أمل على أن الحرب ستنتهي قريبًا. تقول لوسي إذا فكرت بأن هذه الأيام القاسية ستنتهي، فتلقائيًّا ستُطلق يدَها للتبذير في كل شيء، متتبعة حدس الأمومة الذي يستشعر المخاطر قبل وقوعها.

منذ وقت مبكر جدًا، جففت فتات الخبز والخضار واللحم وكدستها في الشوالات والقدور الكبيرة، وملأت العلب والصفائح بالخضراوات المجففة والفول السوداني المطحون والبقوليات التي تحصل عليها من نساء المعسكر التي توزعها عليهن المنظمات، كرد جميل صغير على كرمها معهم عندما كانوا بلا مأوى.

بعد أن ساءت الأمور وفقد ماركو عمله، كانت لوسي مستعدة لحماية أُسرتها من الجوع، فأعلنت تدابيرها صارمة: أحدها تقديم وجبة واحدة أساسية في اليوم، ويجب أن يكون جميعهم حول المائدة مهما كان انشغالهم، وإذا فات أحدهم هذه الوجبة فعليه الانتظار حتى الغد في الموعد نفسه؛ فليس في الإمكان تقسيم الطعام للغائبين، وعلى كل واحد أن يأخذ نصيبه بيده وإلَّا فلن يحصل عليه. وعندما يسمعون تلك الكلمات المغلظة ويقارنونها بالمائدة التي تتحدث عنها، يتمنى عدد من أطفالها أن تفوتهم تلك الوجبات المرتجلة، التي تميل فيها لوسي للاقتصاد في كل مكوناتها إلَّا الماء والملح، وتدريجيًّا فقدت المائدة كل أصنافها الشهية. ولكن احتفظت لوسي بتقديم الخضار والبقوليات المسلوقة في الأواني الفاخرة نفسها التي قدمت فيها قديمًا ما لذ وطاب من اللحوم والفواكه، تلك الأطقم الصينية البيضاء المنقوشة بالورد ورسوم الفتيات الراقصات وبأيديهن مراوح تخفق.

في البداية عانت معهم لأنهم لم يعتادوا على ضيق المعيشة، يبقون على العصيدة ويغادرون المائدة مفضلين الجوع على أكل هذا الشيء، فتحن عليهم وتخرج لهم الخبز المخبأ الذي تنوي تجفيفه للأيام عصيبة. تتجول في البيت بأعصاب مشدودة، ويمكن لأكثر الأسباب تفاهة أن تُثير غضبها. يعود سبب توتر لوسي الزائد إلى ذاك الحلم، حلم غريب مزعج جعل قلبها منقبضًا طوال الوقت. لقد رأت أمواجًا عملاقة تتدحرج فوق سماء المدينة. لم تكن سحبًا قريبةً، ولكن كانت مياهًا هائجة تهدر، تتقلب في الهواء مُشكِّلة تيارات

خطرة تبتلع كل شيء. يدنو ذاك الوحش المائي ويختطف الناس. رؤوسهم مغروسة في عمق نهر هائل طائر، بينما أجسادهم متدلية في اتجاه الأرض تتأرجح في الهواء كأنهم معلقون على آلاف المشانق غير المرئية. يُهرع الناس في اتجاهات عديدة وأعينهم شاخصة إلى السماء. ولكن مصير لوسي كان مختلفًا، فقد وجدت نفسها هي وعائلتها متشبثين بأغصان شجرة النيم التي تحمل اسم (إنم)، تحلق بهم مراوغة أذرع المياه الممتدة في شكل دوامات هائلة تُغرق كل شيء في جوفها. توقف قلبها وهي ترى إموتا تسقط وتنجذب نحو الماء وتختفي. حينها استيقظت مذعورة تتفقد مَن حولها.

بقي هذا الحلم حاضرًا في يقظتها، وأخذت تنتظر ذاك القدر بقلب منقبض، ولكنها عزمت على تحدِّي كل المخاطر إذا كان هناك ما يهدد أطفالها.

لم تُعانِ لوسي من الشعور بالتهديد العام والضيق وحدها، لقد كان أمرًا متفشيًا، فالناس يتجولون بحثًا عن أرزاقهم بنفاد صبر وأمزجة معطوبة. وكثيرًا ما يتشاجرون ويتحول الأمر إلى عراك بالأيدي. وسكان المعسكر ليسوا منعزلين عن جو الضيق العام، بالإضافة لما يحملونه من غضب لفقد كل شيء واضطرارهم إنشاء حياة جديدة في الملاجئ الغريبة. كل الصراعات والانقسامات ألقت ظلالها عليهم، طفت العداوات القديمة -التي يحملونها ضد بعضهم على السطح.

آخر هذه النزاعات اندلع قبل أيام، تسبب الشجار في إصابات خطيرة، وطارد الجنوبيون بعضهم حتى دخلوا الأحياء القريبة منهم وسببوا رعبًا للسُّكان. الأمر الذي أثار غضب سكان المدينة

فخرجوا في مظاهرة مطالبين فيها بإزالة المعسكر، لعدم شعورهم بالأمان. وسرعان ما استجابت الحكومة، فأمرت بإزالة المعسكر ونقل النازحين إلى أماكن أبعد، ما أدى إلى رفض قاطع من سكان المعسكر، فلم يتركوا للحكومة سبيلًا غير ترحيلهم بالقوة.

لسوء الحظ كانت لوسي في المعسكر عندما اصطفت تلك الجرارات الثقيلة بأذرعها الهائلة، فهدمت البيوت، والشرطة تلجم غضب الناس بالعصي والقنابل المسيلة للدموع.

بينما علا مكبر صوت آمرًا الناس لإخراج أشيائهم من تلك الأكواخ، وستأتي شاحنات تنقلهم إلى مكان آخر. ولكن ذلك أثار غضبًا عامًّا، جعل النازحين يتسلحون بالعصي والهروات لمقاومة هدم بيوتهم، ودخلوا في عراك مع الشرطة، التي أطلقت طلقات في الهواء ليتراجع الجميع، ولكنهم عزموا على حماية بيوتهم بكل قوة، فضربتهم الشرطة بالسياط، واعتقلت بعضهم، وفرقت التجمعات بالغاز الحارق للأعين. بينما واصلت تلك الجرارات الهدم من الناحية الأخرى. كان صدامًا كارثيًّا بين غضب العامة وصلف السلطات غير الرحيمة.

في ذاك اليوم عادت لوسي غاضبة خالية الوفاض بهيئة مَن خرج من شجار قوي، وآثار الضرب على جسمها ووجهها، عيناها جاحظتان محمرتان يتطاير منهما الشرر. لم يعهدها أولادها غاضبةً هكذا من قبل، فحاموا حولها خائفين، فهم يعرفون أنها لن تتردد في قذف أحدهم بالنعال. وتحول صخبهم إلى همس، بينما التزم أغلبهم الصمت.

اقترب ماركو وجلس بجانبها بهدوئه المعهود، سألها برفق: «في شنو؟ ومنو اللي عمل فيك كدا؟». مرر يده على تلك الخطوط البارزة التي سببتها سياط شرطة مكافحة الشغب، فقالت وهي تخترق عينَيه: «متين نرجع بلدنا؟ الناس ديل ما عايزننا هنا».

لم يستطع ماركو الهروب من سؤالها ومن عينَيها، ولأول مرة يرى تلك النظرات المتحدية. كانت لوسي -ولا تزال- فتاته الصغيرة البسيطة، لا يعرف منها سوى البراءة. لقد تحولت إلى شخص آخر.. شخص يعذبه وعيُه بما يحدث حوله. شعر بذنب كبير لأنه أخفق في حمايتها من اختبار شعور الكراهية والانتقام. إنه يفضلها بريئة وعفوية في ردود أفعالها، لتنقل ذلك لأطفالهما. ولطالما خففت شخصيتها من المصائب. فهي المعادل الضروري لكل لحظات المرارة التي يمر بها.

لوسي الآن تائهة بقلب مُتَحسِر، لم تطالبه منذ سنوات بالعودة إلى الجنوب. سألها مرة أخرى: «فيه شنو يا لوسي؟».

نفضت يده وهبت واقفة، ولفت ثوبها على وسطها كمَن يستعد للشجار، وذرعت حوش بيتها الواسع طولًا وعرضًا، تقف حينًا في منتصفه تصفق وتعض إصبعها. ونادت جيرانها ليأتوا ويسمعوها، ووقفت جوار الجدران التي تفصل بينها وبين جيرانها وتصفق بعصبية، وانتقلت تطرق الأبواب والنوافذ كمَن أصابه الجنون. وعندما أطل بعضهم برؤوسهم من فوق الجدران، اهتاجت أكثر، وعلا صوتها وهي تروي ما حدث في المعسكر، وترمي عليهم أسئلة احتاروا في كيفية الإجابة عليها، على شاكلة: «بتكرهونا ليه؟ عملنا

شنو نحن؟ انتو اللي مشيتو لحدي الجنوب حاربتونا، جينا هنا وحاربتونا». كانت أسئلة مؤلمة وموجهة للكل. ماذا تقصد لوسي بنحن وأنتم؟ الأمر الذي جعل بعضهم يأتي إلى باب بيتها؛ فربما لوسي مفجوعة من موت أحد أقاربها كالعادة.

ولكنها انتقلت لمرحلة أخرى، فأخذت تسبهم دون أن تذكر اسم أحد، وفي النهاية طردتهم جميعًا من بيتها، ودفعت جاراتها اللائي انحدرت دموعهن، لقد آلمتهن لوسي. ها هي الآن تتنكر لسنوات طويلة من الجيرة التي لم تشبُها أي شائبة. لماذا انقلبت هكذا على حياة كاملة بمرها وحلوها؟ وأصبحوا كما جاء في لفظها «مجرد شماليين عرب». ولم تشفع لهن دموعهن، وأخذت تدفعهن، وتصرخ في وجوههن المتجهمة بصوت متهدج: «اطلعوا برة من بيتي، ما دايرة عرب هنا». سدت الدموع رؤيتها، فرأت محض أشباح تتراقص خلف قطرات الدموع التي أخذت تندفع مدرارًا.

- اطلعوا، ما عايزة عرب في بيتي.

وقفت الجارات أمامها عنادًا، متحملات دفعها بثبات، رافضات تركها في هذه الحالة، وحاولن احتواءَها لتهدأ، ولكنها أخذت تدفعهن واحدة تلو الأخرى نحو المخرج.

وفي أثناء دفعها واحدة منهن، تفاجأت أنها سلام.. كانت تقف وسط الجمهور، وأصابها الذهول كالبقية. وقفتا تواجه كل منها الأخرى..تنظران لبعضهما بتحدٍّ، بينما قالت أعينهما كثيرًا. تبلور حاجز قوي غير مرئي عزل بينهما، لم تعد سلام تسمع لوسي التي تمسك كتفَيها وتهزهها وتقول أشياء كثيرة بين دموعها، سال لعابها

وهي في حالة نشيج، ولكن سلام كانت قد قُذِفت إلى زمن آخر، إلى ماضيها وطفولتها المليئة بالرفض، عندما كان أطفال المدرسة يمشون خلفها كموكب مشاغب مرددين: «جنا مدوكورو.. جنا عرب».

لمحت لوسي قرار الرحيل في عينَيها المتحديتَين، لقد فات أوان التراجع أو الاعتذار، فلم ترهق نفسها لتشرح أنها لم تقصدها شخصيًا، ولكن سلام أوصدت كل المنافذ.

سلام تواجه حقيقتها لأول مرة، الحقيقة التي هربت منها خلال حياتها السابقة، وأمها ليست هنا لتحميها، لقد عادت وحيدة والحقيقة تحيط بها كمعطف ثقيل.

أين هي من كل هذا؟ هي نصف ضحية ونصف جانية.. كان شعور القهر مسيطرًا، قهر مَن ليست لديه الإرادة لتغيير ما هو آتٍ، وكان الفراق قرارًا ينتظر التنفيذ.

اختفت لوقت داخل الغرفة، ثم خرجت تجر حقيبتها خلفها، سألها ماركو: «ماشية وين يا سلام؟»، فلم تجبه، واتجهت نحو الباب المشرع الذي مرق الجيران من خلاله في أثناء فرارهم من غضب لوسي الهادر. وفجأةً انطلقت إموتا من مكمنها نحو سلام، وأحاطتها من وسطها، قائلة: «ماشية معاك». جثت سلام واحتضنتها، وأحاطت وجهها الصغير بيدَيها، وابتسمت لتطمئنها: «أنا بجي قريب». ثم تركت الجميع واجمين وذهبت.

وضعت لوسي -كما تفعل عندما يخبرها النعاة بموت عزيز لديها- يدَيها فوق رأسها بتقاطع، وأعادت التفكير في تفاصيل يومها، الذي حوَّل قلبها إلى كرة من نار تحرقها وتحرق مَن حولها.

جلس ماركو متهالكًا على كرسيه، وسرت برودة في أطرافها تمنعها من الحركة. وتفرق الأطفال بقلوب مليئة بأسئلة كثيرة، واتخذ كل واحد منهم لنفسه ركنًا يلوك فيه الأسئلة التي برزت فجأةً أمامهم.. أسئلة لم يضطروا لمواجهتها يومًا: مَن نحن؟ ومَن هم؟ وكيف لجيرانهم وأصدقائهم الذين ترعرعوا معًا في هذا الحي أن يكونوا أعداء أمهم أو أعداءهم؟ وماذا لو كان الأمر كذلك فعلًا؟ وكيف لسلام أن تكون منهم؟ وتركتهم؟ لكنها رحلت الآن! لم يتخيلوها يومًا مختلفة عنهم، سلام هي سلام، وستظل للأبد العمة سلام.

خيم الصمت...

وأنصت الجميع للصمت المريب، ابتداءً من بيت لوسي وانتهاءً إلى الحي كله، وبعدما اعتاد الجيران الثرثرة بصوت مرتفع سابقًا، صاروا يتهامسون في حذر شديد؛ خوفًا من أن تثور لوسي مرة أخرى.

هذه أول مرة في حياتهم منذ سنوات كثيرة يواجهون شخصية لوسي الغاضبة، كيف لتلك المبتسمة دومًا البشوشة الطيبة أن تنتفض هكذا؟! خاصة أنها لم تَشكُ يومًا ولم تُلقِ اللوم على أحد. تبكي موتاها داخل بيتها. تتحمل تلك المآتم المتتالية صابرةً، فكف جيرانها عن سؤالها: مَن مات؟ وما السبب؟ وعندما يعلو نحيبها، يستنتجون ما حدث فورًا، ولكن دون أن يقفوا على حقيقة الحرب التي تحصد أهلها. موت كثير يأتي على هيئة خبر على شفاه الزوار، أو رسالة تأخرت كثيرًا في الوصول، موت يلتهم حياة كاملة في الجنوب دون شواهد أو قبور...

موت نظيف ككذبة بيضاء...

دفنونهم في قلوب تورمت بالفقد. وسمم كل ذلك روحها المرحة.

ثم أخذت جملة «أنا بكرهكم كلكم» تتردد، ترن في آذانهم، وتنغرس كسيخ محمي يمر إلى عقولهم مباشرة.

لماذا تكرههم؟

حلق السؤال في سماء حيهم الهادئ، كطائر شؤم ينوي الانقضاض على سنوات هانئة صُبِغت بالطيبة وسماحة النفوس.

لم يدرِ أحد كم مر من الوقت في أثناء استغراقهم في تلك الأسئلة المرعبة، إلى أن تفاجأ الجميع بظلال تزحف فوق سقوف منازلهم الواطئة، اختفت الشمس كأنها تفقد وقودها، وطوت ظلال السحب المتراكمة فوق بعضها آخر أشعة الضوء المنتشر فوق مدينتهم البائسة.

وعندما رفعت لوسي رأسها لتتبين سر انتشار الليل المتسارع، وجدت السماء محشوة بكتل من الغيوم.

أصم هدير الرعد الآذان، فتسمر الحي كله، واحتاجوا لدقائق لاستيعاب هذه الزيارة المفاجئة للأمطار، إلَّا أن البرق الخاطف -الذي هوى يجلد جدار السماء محدِثًا فرقعة هائلة- أيقظهم.

وبعد هذا التحذير الجاد والخطر، ساد الهرج بين الناس لنقل المفارش إلى داخل الغرف اتقاء للبلل، وعلت الأصوات في فوضى، وناءت السماء بحمولةٍ هائلةٍ من السُّحب سرعان ما انهمرت بغزارة، ولم تكن مجرد قطرات كبيرة تسقط بوتيرة سريعة فحسب، بل تمددت كستار مائي سميك أُسدل بغتةً على الخرطوم.

ها هي مدينتهم المثقلة بإدارة حرب أقعدتها.. المدينة التي أخذت تترنح وهي تتلقى صفعات تلو صفعات.. الموبوءة بالتشظي.. المسكونة بالفقر والأوساخ وبؤس ساستها.. المحاصرة بالنازحين من كل حدب وصوب.. خرطوم الثورات المجهضة.. ها هي ترتجف بكامل هشاشتها، وتتهيَّأ لتلقي صواعق السماء...

جرت المياه، طفحت الشوارع في دقائق، واندفع بعضها من أسقف البيوت تحمل معها القاذورات المتراكمة على مر سنوات، من الأتربة ولعب الأطفال القديمة وبراز القطط والطيور وجيف الفئران. وفي الحال أخذت المياه تجري في كل الاتجاهات تسوق أمامها كل ما خف على الجرف.

كان هذا نذيرًا لما سُمِّيَ فيما بعدُ وعُرف شعبيًّا ورسميًّا بفيضان 88.

عندما توقف الهطول أخيرًا، خرج الناس يخوضون الماء حتى ركبهم، وبيوتهم محاطة بالمياه من كل النواحي. وتصايح الجيران من فوق الجدران ليطمئنوا على بعضهم، وكذلك فعلت لوسي، وأخذت تطمئن على أولادها واحدًا واحدًا، ولكنها تفاجأت باختفاء إموتا.

نادوها بصوت عالٍ؛ فربما غلبها النوم في أحد الأركان كعادتها تغفو كيفما اتفق. أشعلت لوسي مصباح الزيت بسبب انقطاع الكهرباء وتجولوا في أنحاء البيت، وبحثوا تحت الأسرة وفوقها، وتحت الشجرة وفوقها، وفي المرحاض والحمَّام. وكلما مرت ثانية دون أن تظهر، تنقبض قلوبهم، إلى أن دوت لوسي في صراخ هائل،

فهُرع الجيران مستفسرين قلقين، فعرفوا الخبر، وانتشروا باحثين عن الطفلة في الحي. ولكن كأن هذه الأمطار ذوبت إموتا في جوفها.

جُن جنون لوسي، واستحضرت الحلم الذي اختفت فيه إموتا، وأحست قبضة قوية تعتصر قلبها حتى آخر قطرة ولا تحرره أبدًا. ربطت رأسها بمنديل، ولفت وسطها بقطعة قماش، وأمسكت أحد فساتين إموتا في يدها، وأعلنت الحداد في صمت.

جاب إخوتها ومعهم شباب الحي ورجاله الشارع. وأذاع مؤذن المسجد القريب اسمها على مكبر الصوت اليدوي. وأحاطت الجارات لوسي الشاردة، هائمة خلف ابنتها الضائعة التي لا تعرف مصيرها. تمنت الموت من هول الألم الذي يمزق نياط قلبها، ولم تبكِ ولم تتحدث مع أحد. تحول كل شيء أمامها إلى مجرد خيالات عائمة، كتل الناس والأشياء والأصوات، وانطفأ كل شيءٍ فجأةً.

انهمرت الأمطار مرةً أخرى، ما فرض أن يلزم كلٌّ بيته، لتفادي المياه المندفعة بجنونٍ جارفةً كل شيءٍ. ولم تتوقف الأمطار إلَّا في ساعات الفجر الأولى. تسرب البلل داخل عظامهم وجدران بيوتهم بسبب المياه التي تتسلقهم وتتسلق المباني وترتفع بإصرار إلى الأعلى.

نال منهم التعب وهم يغرفون الماء من داخل الغرف والحوش بالأواني المتاحة: الجرادل والطاسات وقدور الطبخ. ولكن سرعان ما عادت تغمرهم من جديد، فاستسلموا لجبروت السيول العارمة، يشاهدون ذرات الرمل والطوب التي شيدوا بها بيوتهم تتفكك،

وبانت تلك التشققات الهائلة على الجدران، ووصلهم أنين السقوف المثقلة بالمياه.

سمع الحي دويًّا مخيفًا، وارتج المكان.. لقد انهار أحد الجدران، ثم توالت الانهيارات. ولأن البيوت متلاصقة بجدران مشتركة، فكلما وقع جدار، أضعف الجدار الملاصق له. وارتفع نداء آخر في المساجد محذرًا الناس من التواجد داخل الغرف أو الاقتراب من الجدران الآيلة للسقوط حفاظًا على حياتهم، ووقعت حوادث كثيرة فعلًا قتلت بعض الناس عندما هوت البيوت فوق ساكنيها مهشمة عظامهم، فاضطر الجميع للبقاء خارجًا. كانت لبعض الأُسر أسرار كبرى لم يكن ليعرفها أحد لولا الهشاشة التي أصابت بيوتهم. كجارتهم التي خبأت ابنًا معاقًا في أكثر الغرف عتمة وبعدًا عن أعين الناس. في البدء وقفت حائرة وهي ترى الناس ينقلون أشياءهم إلى الساحات اتقاء شر الهبوط المفاجئ للسقوف الذي لا يستطيع أي إنسان تحديد لحظته؛ فالأمر متروك لنخر الفيضان. سمعت تحذيرًا بأن هناك شقًّا هائلًا يزحف في إحدى الغرف الخلفية لبيتها، فما كان منها سوى أن خاضت الماء، حتى أنها سقطت عدة مرات. ودخلت الغرفة والناس يصرخون فيها لتخرج بسرعة. وعندما ظهرت أخيرًا، كانت تحمل صبيًّا على كتفها، يبدو كأنه بلا عظام، غاصت أقدامه في الماء وباقي جسده يتدلى خلف أمه. كان يضحك مبرزًا أسنانًا كبيرة مثل أسنان الأبقار. شَعره كثيف مجعد شديد السواد، يلوك لسانه ويلثغ بينما لعاب لزج يسيل دون انقطاع. شكل هذا المنظر صدمة كبيرة للحي. ومَن انتبه، جرى نحوها لمساعدتها؛ لأنَّ حملها كان ثقيلًا.

تحلق الصغار حوله، خاف بعضهم، واقترب بعضهم محاولين فهم ما يقول، ويضحكون لضحكه، ويشاغبون هذا الرفيق الجديد الذي لم يشاركهم اللعب في أزقة الحي وميدانه.

أصبحت (إنم) شجرة لوسي الغريبة هي المعلَم الوحيد الذي يقف شامخًا متحديًا السقوط والانجراف، بجذور ضاربة في الأعماق، متوغلة في أحشاء الأرض بشراسة، وبدت تربتها المرتفعة جزيرة لاذ بها الجميع، فاحتوتهم تحت أغصانها وفروعها الوارفة المتمددة إلى أقصاها، خاصة عندما أفسحت البيوت المنهارة المجال، فبدت أكبر بكثيرٍ ممَّا كانت عليه، وتحلق حولها كل السكان المتضررين، أما تراكمات الطوب والطين التي سببتها الجدران المتساقطة في الماء، فقد كونت مسارات منها وإليها دون أن يُضطروا للخوض في الوحل.

كان صباحًا كئيبًا. اختفت اليابسة. وارتفعت المياه إلى حد الخصور.. كأن النيل تاه عن مجراه وأخذ يتجول في الشوارع مسببًا الدمار. انشغل الناس بفتح قنوات للمياه، عسى أن يهتدي النيل ويعود إلى ضفافه. إلى أن خارت قواهم تمامًا، وقفوا يحدقون في هذه الكارثة التي ألمت بهم.

وإموتا لا تزال في عداد المفقودين..

ومع فجيعة الموت تحت الأنقاض أو السقوط في آبار المراحيض المفتوحة وصعقات الكهرباء وانطلاق العويل من هنا وهناك، تناسى الناس اختفاء الطفلة، الذي تضاءل ليشغل أُسرتها فقط؛ فقد أصبح لكل شخص منهم مأساته الخاصة، أقلها أن بيوتهم تذوب كقطعة من البسكويت. هكذا تخلت عنهم تلك الجدران دون أن تمنحهم

مهلة لإنقاذ بعض الأثاث. وبعد عشرات السنين من الستر، تركتهم في العراء مكشوفي الحال.

كان الألم كبيرًا. نهضت لوسي وخاضت في المياه، وكلما ابتعدت عن محيط شجرتها، ازدادت المياه اندفاعًا وارتفاعًا. مشت حَذِرةً لكيلا تفقد توازنها. فردت ذراعَيها وعينَيها إلى السماء التي بدأت سحبها تنقشع، وناجت الله في سرها أن يعيد ابنتها سالمة من غير سوء، وأن يرحمها من ألم كهذا. ثم أخذت تنادي إموتا بصوت خشَّنه طول السكوت، وانحَنت تغرف المياه بكفها وتنثرها عاليًا مطلقة رجاءات لم يسمعها أحد. وفي لحظة هوت في الماء خائرة القوى، هُرِع ماركو إليها،بوحملها بصعوبة، فهُرِع إليه آخرون لمساعدته. واتكأت لوسي باكية على جذع الشجرة.

***

هبط الظلام، ولف السكون الحي، ما عدا همهمة بعض الشباب والمراهقين الذين يتسامرون فوق أطلال البيوت المحطمة، يعيدون قصص رعب الليل وأحزان النهار، وقد حوَّلوا بعضها إلى طرفة وفكاهة على طريقتهم.

نام بعضهم وقد نال منهم التعب والإرهاق من المحاولات اليائسة لتغيير مسار المياه.

أخذ ضوءٌ يقترب من بعيد، أحدهم آتٍ نحوهم. خطواته توشوش المياه وتقلق ركودها وتوقظ موجات ناعمة تعكس ضوء المصباح، الذي يحمله رجل بقامة مديدة ملفتة، يحمل طفلة على رقبته وأضاء النور وجه إموتا الفرحة بالعودة.

- دي أختي.. إموتا.

صاح أحد أطفال لوسي، الأمر الذي جعل الجميع يهبون من نومهم، وأنار الضوء وجهها، وابتسمت لقد وصلت إلى أهلها أخيرًا.

كانت لوسي ترتجف، فلم تتمكن من النهوض، إلى أن وضع الرجل إموتا على حجرها، فبكت غير مصدقة، ولكنها تأكدت الآن أن هناك قوة ما تحمي هذه الطفلة، التي ينقذها الغرباء دائمًا ويعيدونها إليها سالمة.

أطلقت بعض الجارات الزغاريد التي شقت أجواء الحي الكئيب بأحزانه الطازجة، ووضعت لوسي ابنتها على ظهرها، وبدأت تغني بلغتها وترقص وسط الجموع. تردد صوتها في الظلام. كانت هذه الأغنية تتردد في ذهنها منذ لحظة اختفاء إموتا:

إموتا يا صغيرتي، لم أُنجبك لتصبحي قربانًا

أنتِ لا تعلمين ماذا يعني انكسار قلب الأم يا بنتي ويا أختي

كنتُ أفكر في فائدتي إذا لم أتمكن من إنقاذكِ

من الأفضل أن أُدفن حية في الحال

لقد دفعت جدتُكِ ما يكفي من القرابين

ستعيشين حتَّى تسأمي الحياة

وستملأين الأرض بنورك وبأحلام يقظتكِ

وستُشعِّين يا إدو يا أمي!

الفصل الثَّالث عشر

اللِّقاء

خرجت سلام من البيت تاركة الوجوم خلفها، شاعرة أن قلبها يتمزق، ولكن لم يعد بإمكانها التربيت على خاطر أحد. تجاهلت عن عمد نظرة الألم والرجاء في عينَي ماركو. دهست شعور الأطفال دون رحمة وهي تتفاعل بكبرياء زائفة مع سخط لوسي الناتج مما راكمته من مشاعر سلبية لوقت طويل، فانفجرت أخيرًا. ولكنها ستستغل الحدث وتنفذ ما عاهدت به نفسها من قبل، ألَّا وهو مواجهة جلاء بحقيقتها. هذه الحادثة تدفعها بشكل ما إلى اتخاذ قرار مصيري أجلته مرارًا. يجب أن تكون في وضع لا يمكنها التراجع منه، وانتظار الوقت المناسب الذي لم يأتِ أبدًا. لقد ملأها ماركو بالشك. هي أيضًا صاغت لنفسها أكثر من مبرر لتأجيل الكشف عن نفسها. أما الآن؛ فلا يمكنها التراجع مثل مَن أحرق سفينته. مشت على الطريق إلى المحطة دون أن تلتفت، ولم تشعر بخطوات إموتا الصغير على بعد عشرات الأمتار منها محاولةً اللحاق بها. استقلت أول مركبة وقفت بمحاذاتها. وفي تلك الأثناء زحفت كتل داكنة من الغيوم فوق سماء المدينة مسببة عتمة مفاجئة تخنق آخر أشعة الشمس الغاربة. سبَّب ذلك هلعًا للسائق الذي انطلق يقود بسرعة جنونية لإيصال الركاب إلى وجهتهم قبل انهمار الأمطار.

في منتصف الطريق بدأت قطرات كبيرة تفرقع على سقف العربة وتدخل من النوافذ. ومن شدة غزارتها حجبت الرؤية، فتوقَّف السَّائق عدة مرات قبل أن يستمر في السير. وجدت سلام نفسها قرب المستشفى الذي تعمل فيه، فقررت النزول، لتدخل مبنى المستشفى. ساعدها البواب وشخص آخر يجلسان في كابينة أمام الباب. كانت مبللة كاملةً. المعجزة وحدها مكنتها من الوصول إلى هذا المأمن بعد أن غمرت مياه الأمطار كل الطرقات والساحات، تتقلب أمواجها كسجاجيد ضخمة أُطلقت طياتها إلى ما لا نهاية، التيار القوي يجرف الأشياء أمامه، والكل يحاول بيأس التشبث بشيء لئلَّا يُجرفوا.

توقف سائقو المركبات تمامًا خشية الحوادث التي قد تطرأ أو بسبب تعطل المركبة أو الوقوع في الحفر المغمورة التي تفتح أفواهها كمصائد تنتظر سيِّئي الحظ من البشر والمركبات للإيقاع بهم.

خاضت سلام خضم هذا الفيضان الذي انبثق فجأةً مهدِّدًا المدينة بالغرق، وبإجراءات بسيطة تسلمت مفتاح غرفة صغيرة تُستغل للممرضات الزائرات من أجل التدريب.

ها هي أخيرًا هنا. تضمها هذه الغرفة الصغيرة بحنوّ. بعض الأماكن تصبح حميمة بالأمان الذي تمنحه. لم تشعل مصباحًا، ولم تفتح نافذة. وضعت الحقيبة التي تقطر ماء. كانت مرهقة، فتلمست طريقها على بصيص الأضواء الآتية من المباني المجاورة، وارتمت على السرير. لقد عادت وحيدةً مرة أخرى. مكثت في الظلام تبلع دموعًا انهمرت مثل الأمطار التي تغمر المدينة خارج غرفتها، والتي

لا يدري أحد من أين جاءت، ولماذا اختارت تلك الغيوم الداكنة الهطول هنا بهذه الغزارة.

تفكر سلام هل حان الوقت للتحدث مع جلاء، وحتى لو لم يحن الوقت، لقد تعبت، وترغب بشدة في عناق جلاء، مستعيدةً مشاهد عناقاتها العفوية السابقة، والتي قابلتها بجمود من الخارج بينما يئن داخلها بالحنين.

استغرقت في دوامات أفكارها، حتى تسلل فجر اليوم الجديد من خلال النافذة الضيقة دون أن تنتبه. نهضت وهي تقاوم آلامًا حادة في رأسها وسائر جسمها. جهزت نفسها للذهاب إلى مكتبها. لن يستغرق ذلك وقتًا؛ فهي تسكن الآن في البناية ذاتها. ألقت نظرة سريعة على معالم الغرفة التي قضت فيها ليلتها دون أن يغمض لها جفن. كانت مستطيلة، وبها كل ما يحتاجه نزيل: حمام داخلي ومنضدة من الحديد رُصَّ عليها قليلٌ من الأواني الضرورية للشاي وإعداد وجبة لشخص واحد لو اضطُرَّ إلى ذلك. الجدران مطلية بدهان أزرق غامق غيرمتناسق، كأن مَن دهنها كان على عجلة من أمره. الأرضية بلاطة واحدة ممتدة في كل المساحة المتاحة. تتدلى مروحة قديمة من السقف، بدت لوهلة كأنها مثبتة بأنسجة العناكب من كثرة تقاطعها عليها، مما يدل على أن الغرفة لم تُستخدم منذ أمد بعيد. ثَم باب خشبي يُغلق بمزلاج من الداخل، قفل كبير كتلك التي يستخدمها التجار لمحلاتهم.

الوَحدة أحيانًا مفيدة لينظر المرء داخل ذاته.. وهذا ما تحتاجه سلام، هذه الغرفة تكفيها لتقرِّر ما سيكون عليه مستقبلها؛ فإما أن تعيش مجهولة الهوية تثير شكوك مَن حولها، وإما أن تُواجه أُسرتها وتكون جاهزة للتبعات، تعلم أن ذلك يُشبه قفزة في الظلام؛ قد تصيب، وقد تخيب. لديها كثير من الوقت لتفكر بروية. شردت بذهنها تستحضر دفء احتواء أبناء لوسي لها حين غادرتهم. تجمع الدمع في محجرَيها. وحشة إموتا كانت يتمًا قائمًا بذاته. لا تدري كيف ومتى تغلغت هذه الطفلة في أعماقها لهذه الدرجة. وقبل أن تغرق في شعورها الذي يقهرها بطريقة ما، قررت ابتلاع غصتها والشروع في وضع خطة للأيام القادمة.

في مساء ذلك اليوم وعند الانتهاء من دوامها، ذهبت مباشرةً للقاء جلاء، لا سيما واليوم هو يوم الاعتناء بالمريضة أيضًا. عندما خرجت إلى الشارع، وجدت المياه على امتداد البصر. يخوض الناس المجبرون على الحركة الوحلَ. توقفت المواصلات. هناك قليل من أصحاب سيارات الأجرة، ولكن صارت أسعارهم خيالية بعد الطوفان. قررت المشي على قدمَيها، تتبع المشاة الذين يمشون مصطفين. وعندما وصلت مساء، طرقت الباب بقوة بعد أن ضغطت على الجرس عدة مرات دون استجابة.. ثم استنتجت أن الكهرباء لا تزال مقطوعة؛ لتقليل حوادث الصعق بالكهرباء. واصلت طرق الباب إلى أن فتح لها حسن أخيرًا، كانت في غاية الإجهاد، رحب بها حسن وعيناه مليئتان بسؤال: كيف جاءت في هذه الأجواء السيئة؟ اتجهت إلى صنبور الحديقة، وشطفت نفسها من الطين، ودخلت البيت، واستقبلتها جلاء فرِحةً قلِقةً معًا.

- جيتي كيف في الظروف دي يا سلام؟ ما كان لازم تجي!

ابتسمت سلام بوهن، وأجابت وهي تنظر عميقًا في عينَي جلاء: «الليلة بالذات كان لازم أجي».

ربتت جلاء على كتفها، وقد ألجمها الرد، بتلك الملامح التي تحمل خلفها فاجعة ما.

استأذنتها سلام في الدخول لمباشرة عملها. التفت حول السلم، ودخلت الغرفة المعتمة. كل شيء كما كان في آخر مرة. لم ترفع رأسها لتنظر إلى صورة أبيها، ولا تزال دموع الأمس تحرق جفنَيها.. ولا تريد أن تبكي الآن.

وضعت حقيبتها على عتبة النافذة خلف الستار، وقامت بالقياسات الروتينية للنبض والضغط والحرارة. كل شيء على ما يرام. وقفت تنظر إليها، وتحاشت الاقتراب أكثر حتى تتجنب عبق القرنفل الفائح.

جلست على الكرسي على مسافة معقولة، ظهرها إلى الباب، وثبتت عينَيها على الجسد المسجَّي أمامها.

شعرت بجلاء تقترب من خلفها، لم تلتفت. وضعت جلاء يدَيها على كتفَيها، فخفضت سلام عينَيها وابتلعت غصتها.

- انتي كويسة؟

هزت سلام رأسها بطيئًا، فاحتارت جلاء بين أن تعتبر ذلك إجابة بنعم أم لا، ولكنها شعرت أن سلام لا تريد التحدث.

- عمومًا لو في مشكلة، اعتبريني أختك، ومستعدة أسمعك.

أومأت سلام، ومدت يدها تربت فوق يد جلاء معبرة عن شكرها. وعندما خرجت جلاء، بكت وهي تردد داخلها: «أنتِ أختي فعلًا».

كانت ليلة هادئة أيضًا، كأن الوهن نال من الحاجة فوزية، وقد أجهدها السفر خلال الذكريات، فنامت هادئة دون هلاوس، ودون أن تنطق كلمة أو تحرك أطرافها. تنفسها منتظم، وجهها أكثر نضارة من المعتاد، لقد تحول تمامًا إلى وجه طفلة في العاشرة. أحست سلام بانطفاء جسدها، وحسب خبرتها فهي تعرف كيف تنسحب روح أحدهم تدريجيًا. لن تستطيع إخبار جلاء أن الأم تعيش أيامها الأخيرة. ولكن تردد جلاء إلى الغرفة عدة مرات في أثناء فترة رعايتها، جعلهما تتشاركان بصمت شعور أنهما يفقدونها. وكلما دخلت جلاء، وجدت سلام جالسة في وضعها، لكنها لم تسألها، وتحاشت سلام أن تلتقي نظراتهما.

في الصباح، طلبت منها جلاء البقاء؛ لأن الطرق خطرة، ولن تستطيع السيارات الحركة. وشعرت سلام فعلًا بإرهاق شديد بعد أن مر عليها يومان لم تنم فيهما، فهزت رأسها موافقة. تدلى جفناها إرهاقًا، وبدا كأنها ستنام واقفة.

قالت جلاء في ترحاب: «حافتح ليك أوضة تحية، تنومي شوية، لأنه التعب ظاهر عليك».

ابتسمت سلام دون أن تظهر أسنانها، وتبعت جلاء وهي ترتقي الدرج، ثم فتحت لها الغرفة. كانت مرتبة نظيفة، فيها سريران متقابلان وخزانة صغيرة. وهناك صورة نصفية لتحية بتسريحة شَعر جريئة مثبتة على الجدار بوجه بهي، يُجبر الرائي على تأمله.

طلبت منها جلاء أن تنتظرها ريثما تعد الشاي باللبن والزلابية، فيجب أن تتناول شيئًا قبل أن تنام. خرجت، ولكنها عادت بعد قليل وفي يدها جلباب فضفاض، طلبت منها ارتداءه لتنام مرتاحة، قائلة: «البيت بيتك».

خرجت وأوصدت الباب خلفها، تاركة لسلام وقتًا لاستبدال ملابسها. فعلت ذلك، واستلقت على السرير المريح، وأسندت حقيبتها قربها على الحائط الملاصق للسرير.

تأتيها أصوات الأواني من المطبخ محدثة جلبة. سرى الألم في مفاصلها. لا يزال الصداع يطرق رأسها بعنف. فتحت حقيبتها وسحبت شريط الحبوب المسكنة. تلفتت حولها بحثًا عن كوب ماء، فلم تجد. ترددت في الخروج وطلب الماء. وآثرت الانتظار إلى أن تأتي جلاء، فمؤكد سيكون الماء ضمن الأشياء التي ستأتي بها. أعادت الحبوب إلى الحقيبة، وفي أثناء سحبها يدها، اصطدمت بحواف الصور التي لا تفارقها أبدًا. داعبتها قليلًا، ثم أخرجتها برفق، وتأملتها واحدة تلو أُخرى. توقفت عند الصورة التي تضمهم: هي وأباها وأمها روزا. تنهدت متمدِّدةً على السرير، ورقدت على جنبها، ووجهها إلى الحائط، واضعة الصور أمامها، وتزاحمت الدموع في عينَيها وهي تقول:

- بابا، أنا جيت، وين أنت؟

لم تدرِ كيف غفت، ولا كم مر من الوقت. وعندما فتحت عينَيها بذاكرة مشوشة، حدقت في الجدار أمامها، تحاول أن تتذكر أين هي. ثم تذكرت كل شيء، لكن ثمة شيء مفقود، هبت تنبش فراشها بحثًا

عن الصور التي اختفت. رفعت المرتبة في اتجاه الحائط وألقت نظرة على الأرض، فربما انزلقت منها في أثناء نومها الذي لم تعرف هل كان قصيرًا أم طويلًا. نبض قلبها سريعًا. وشعرت بأنفاس منفعلة تنبعث من مكان ما في الغرفة. فضلت المكوث ووجهها إلى الجدار وذهنها يعمل سريعًا. كل أمنيتها ألَّا ينكشف أمرها بهذه الطريقة. ابتلعت ريقها، تأكدت تمامًا من وجود جلاء معها في الغرفة. واتتها فكرة، ربما أعادت الصور إلى الحقيبة قبل أن تنام، لا تتذكر هذه التفصيلة، ولكنها فتحت حقيبتها، وبدأت تنبش فيها.. لم تجد شيئًا، جلست في منتصف السرير، لمحت كتلة جلاء جالسة على السرير المقابل. تحاشت النظر إليها.

- بتفتشي لي ديل؟

جاء صوت جلاء متحشرجًا من الانفعال. تمنت سلام أن تبتلعها الأرض، وتساءلت في نفسها: لماذا لم تمت البارحة بالصاعقة؟! هذا أصعب موقف يمر عليها.

- انتي منو يا سلام!

لم يكن سؤالًا، بل كان تأكيدًا على أنها عرفت مَن تكون.

وفي لحظة واتتها الشجاعة لتلتفت. تقف جلاء على رجلَين مهزوزتين بالانفعال، وتتجه نحوها بدموع غزيرة غطت وجهها، تقبض على الصور بقوة كأنها تتشبث بشيء تخاف إفلاته.

شعرت سلام بوقع الصدمة على جلاء التي أوشكت على الانهيار. قفزت من جلستها واحتوتها محاولة تهدئتها. بدأت جلاء تشهق بشكل مخيف لم تستطع السيطرة عليه. وضعت سلام يدها على

كتفها، ومسحت دموعها الغزيرة بالأُخرى، ورددت اسمها: «جلاء.. جلاء»؛ لكيلا تفقد وعيها.

احتضنتها بقوة قائلة: «ما ممكن.. ما ممكن، طيب كيف؟ ومتين؟ وليه؟».

أحاطتها سلام بقوة، وهي تُقاوم البكاء، قائلة: «حاحكي ليك كل حاجة. بس معليش إنك عرفتي بالطريقة دي. كنت حاتكلم معاك».

ضغطت جلاء عليها أكثر، تُقبِّل وجهها وتهمس من بين دموعها: «نحن اللي آسفين، أنا اللي آسفة على نكران مشاعري، حسيت بيك من الأول، ما قدرت أفسر انجذابي ليك من أول لقاء، كنت حاسة بيك قريبة لقلبي شديد، يا هو الدم يا اختي».

لم تصدق سلام أن روحها التائهة رست أخيرًا، وبطريقة غير متوقعة. كقبطان اصطدم بكتلة، فظنها مجرد صخرة وقفت في طريق إبحاره، وعندما خرج ليستكشف، وجد أنها الجزيرة التي يبحث عنها منذ سنوات.

حان الأوان لتستريح، ستفتح قلبها على مصراعَيه، وستحرر حزنها وخوفها وأحاسيسها المريرة بالرفض والغضب. من اليوم ستعيش فتاة عادية، ليس عليها الوقوف في وجه أحدهم لتحمي هويتها. ستغفو ابنة الحرب أخيرًا في آمان بيت أبيها. لا تزال ترتجف بين يدَي جلاء غير مصدقة بأن كل شيء قد انتهى أخيرًا، ممتنة لتلك الغفوة التي تحملت عنها عناء البوح.

الفصل الرّابع عشر

النِّهاية

استلقى دينق على ظهره، تحاصره حمى الذكريات ويطارده الهذيان. لم يعد يميز في أي زمان هو. تلتقط أذناه أصوات مجموعة من الناس ينوحون بعيدًا. وتارة أخرى يسمع بوضوح أصواتًا محرضة لقتلهم، بل ترآت له المليشيات الملثمة التي احتشدت لذبحهم. يشعر بالنار تلسعه في كل جسمه من جديد. تحوَّل الفِراش إلى موقد ساخن. وقف في منتصف الغرفة الضيقة؛ لعل ذلك يخفف ما يشعر به، ولكن الحصار والنواح ازدادا، التقطت أذناه حوافر أحصنة تركض ورجال يصرخون بهستيريا. تملكه الرعب، وجال في نفسه لقد وجدوا مَكْمَنَهُ.. إنهم هنا! ولكن فجأةً تلاشى زعيق الرجال، وحلَّ محله صراخ قومه الذين يستغيثون به ليخلصهم، ولكنه وقف هناك مكبلًا بالرعب.

نظر إلى السقف الواهي الذي تتقاطع فيه مجموعة من الأخشاب التي شُد عليها مشمع المنظمات الأزرق. مد يده يختبر تلك العوارض الخشبية هل ستتحمل جسده. ما عليه سوى تمزيق الملاءة وصُنع مشنقة بأقصى سرعة. لن يتركهم يقتلونه مرة أخرى. سيخيب ظنهم. سيجدونه جثة متعفنة تخرج لهم لسانها استهزاءً.

نظر إلى السقف مرارًا، اختبره مرة بأن تعلق بإحدى الأخشاب السمكية، ولكنه أوشك أن يتهاوى.

وعندما فقد الأمل في أعمدة السقف، أخذ يدور حول نفسه؛ عساه أن يجد شيئًا آخر يستخدمه لإنهاء حياته، وللأسف لم يجد في غرفته ما يميته سريعًا. لا كهرباء في هذه الأنحاء، ربما يقبض على سلك عارٍ فينتهي كل شيء. لا بئر ليلقي فيها نفسه. لا مباني مرتفعة بالجوار، ربما يختار السقوط من علٍ. لا شيء البتة.. فالفقراء كما يحيون بمشقة، فإنهم لا يموتون سوى بمشقة أكبر.. والموت ليس سهلًا.

وفي أثناء بحثه الذي لم يدم طويلًا، وجد سراجًا، ووجد قريبًا منه لترًا في قنينة الجازولين تُعبّؤه الطرشا لتضيء المكان ليلًا. وفي تلك اللحظة اختفت كل الرؤى، وبقيت واحدة فقط.. لقد عرف كيف سيموت.

وقبل أن تأتي إحدى النسوة المشغولات الآن في تلبية احتياجات أُسرهن، حمل القنينة بكلتا يدَيه؛ لأن أصابعه المتصلبة تعجز عن إمساك أي شيء. وضع القنينة برفق في أحد الأركان. ثم أوصد الباب من الداخل بالمزلاج، وجر سريره الوحيد المتهالك معارضًا به الباب احتياطًا، فإذا حاول أحدهم إنقاذه، يفوت الأوان قبل ذلك، ويسد كل الطرق التي تقود لنجاة محتملة. يفعل كل ذلك سريعًا، كأنه في سباق، لا يدري مع قاتليه المتوَّهمين، أم مع نفسه حتى لا يتراجع ويرقد هناك عاجزًا ينتظر قدره المحتوم. ولقد طال ذاك الانتظار. ارتجف من رأسه حتى أخمصَي قدمَيه. قلبه ينبض سريعًا. يجب أن يكمل هذه المهمة بأسرع ما يمكن. يعلم بأن الإنسان يجب

أن يتحلى بالشجاعة الكافية ليتمكن من إنهاء حياته. فتح القنينة وسكب الجازولين على رأسه، وسمح للسائل أن يغطي جسمه كله. وسكب باقي الجازولين الذي في قلب السراج على كل ما حوله: فراشه، ملابسه القليلة، الأدوية، وبقايا صوف الأرانب، وعلاجات النسوة المعتوهات. تجسدت أمام عينَيه اللحظات الأخيرة التي تلت حرق قومه، عندما شاهد كل شيء من الثقب المحفور برصاصة في حديد القطار. رأى الأهالي المسعورين يرشون قومه بالجازولين، بينما يحرسهم رجال أقوياء ملثمون على ظهور الجياد، وبأيدهم بنادق وسيوف ملطخة بالدماء. ثم هبطت تلك الخرقة المشتعلة من السماء فوقهم، فتحوَّلت كتلة البشر هذه إلى قطعة من الجحيم. مد يده إلى الكبريت، ولم يستطع التقاط ذاك الصندوق اللعين. شعر بجسمه يتصلب ويتحول إلى تمثال من الحجر الثقيل. قاوم جبنه. هذه آخر فرصة لديه لينهي كل هذا. التقط صندوق الكبريت بعد أن حشره بين إصبعَين. جلس مستعينًا بالأرض. فتح العلبة وأخرج عود الثقاب. ارتجف بقوة. فقد عود الثقاب الذي وقع على الأرض، التقطه بصعوبة. أمال علبة الكبريت ليجد مستطيل البارود. كشط مرة أخرى. انتشر الجازولين على كل شيء، كأنه يزحف بحثًا عن شرارة تكمل وجوده. استمر دينق في محاولات الكشط اليائسة، لكنه فشل. بكى. أخرج صوتًا يُشبه كثيرًا الأصوات التي تصدرها الطرشا عندما تغضب. عوى بلعاب ودموع منهمرة. وسرى التصلب في كل جسده. أمسك عود الثقاب الأخير، ودقق الكشط على نقطة صغيرة لم يبللها الجازولين بعد. ضرب فيها رأس الثقاب، ولكنه وقع تحته ودخان واهن يصدر منه، وضع دينق يدَيه مغطيًا وجهه بيأس، مطلقًا

العواء. ولكن فجأةً انفجرت النار فيه وفيما حوله، فانتفض واقفًا وهو في شك عظيم. وقف مستسلمًا بعينَين مغمضتَين، ضامًّا ذراعَيه إلى جانبَيه، جازًّا على أسنانه لكيلا تند عنه آهة. بدأت النار تأكله، وتأكل ألمه وغضبه ذكرياته المريرة. تحولت كل الرؤى إلى أطياف من نار.. الأهالي، قومه، جنود الجياد. لن يجزع ليمر هذا بسرعة كما رأى من قبل، فهو يعرف تمامًا كيف تطفئ النار حياة أحدهم.

تساقط قومه مثل الذباب المباد، لم يأخذ ذلك ثوانيَ. ولكن الآن طال الأمر؛ تقضمه النار بطيئًا، حتى فقد الشعور بما حوله، وتهاوى على أرضية غُرفته التي شبت النار في كل جنباتها.

جرى الناس من كل حدب يحاولون إطفاء النار، يهيلون التراب على ما تبقى من أشياء مشتعلة. شق عويل الطرشا المعسكر عندما رأت اللهب يمد ألسنته بعد أن ابتلع السقف في جوفه، تدحرجت على الأرض تعفر نفسها بالتراب مصدرة أصواتًا غير مفهومة. مر الوقت بطيئًا إلى أن أخذ اللهيب يتراجع وينزوي. وانهارت قطعة الصفيح التي كانت بابًا، وظهر سرير دينق الخالي منه موضوعًا بشكل عرضي. كان ذاك آخر تفكير خبيث يبعد به أسباب النجاة.

التف كل المعسكر حول الغرفة التي أصبحت بلا سقف وباب، وتحولت كل مقتنياتها إلى رماد هامد وبقيت الجدران وهيكل السرير الحديدي وجثة متفحمة ممدة على الأرض، ولا يزال الدخان يتصاعد منها كوجبة ساخنة.

هرولت النساء المعتادات على النواح. ملأن الأجواء بالعويل. تعانقن. بكين تفانيهن وجهدهن الذي ذهب هباءً. ضاعت كل تلك الجهود وسبل العلاج المبتكرة المستحيلة للسيطرة على تلك القروح. بينما بقيت جروح روحه مفتوحة ونازفة حتى موته.

وبموت دينق واجهوا الحقيقة العارية: أنهم يسقطون نحو قبور أُعدت سلفًا للجميع، طالما أن هناك مَن أدار آلة الحرب، ودارت سنونها بسرعة لتفتح أبواب الشر التي سمحت لكل البلايا بالعبور.

-النهاية-

telegram @yasmeenbook

المحتويات

الفصل الأوَّل: العين	5
الفصل الثَّاني: البيت	24
الفصل الثَّالث: سلام	38
الفصل الرَّابع: جلاء	67
الفصل الخامس: ماركو	89
الفصل السَّادس: المذبحة	111
الفصل السَّابع: النَّاجي	135
الفصل الثَّامن: دينق بول	149
الفصل التَّاسع: مآلات الحرب	158
الفصل العاشر: متاهةٌ	179
الفصل الحادي عشر: بيتُ الأَبِ	193
الفصل الثَّاني عشر: الفيضان	204
الفصل الثَّالث عشر: اللِّقاء	224
الفصل الرَّابع عشر: النِّهاية	233